الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي — جامعة الحاج لخضر – باتنة –

كلية الآداب و الفنون — قسم اللغة العربية و آدابها

الخطاب النقدي و البلاغي عند المعتزلة

مقاربة لسانية تداولية

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراة العلوم في اللغة و الأدب العربي

إعداد الطالب: — إشراف الأستاذ الدكتور:

كلبوز نوري — محمد حجازي

لجنة المناقشة

أ . د . إسماعيل زردومي	جامعة باتنة	رئيسا
أ . د . محمد حجازي	جامعة باتنة	مشرفا و مقررا
أ . د . عيسى مدور	جامعة باتنة	عضوا
أ . د . فاتح حمبلي	جامعة أم البواقي	عضوا
أ . د . عباس بن يحيي	جامعة المسيلة	عضوا
أ . د . جلال خشاب	جامعة سوق اهراس	عضوا

السنة الجامعية: 2018/2017

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي — جامعة الحاج لخضر – باتنة –

كلية الآداب و الفنون — قسم اللغة العربية و آدابها

الخطاب النقدي و البلاغي عند المعتزلة

مقاربة لسانية تداولية

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراة العلوم في اللغة و الأدب العربي

إعداد الطالب: — إشراف الأستاذ الدكتور:

كلبوز نوري — محمد حجازي

لجنة المناقشة

أ . د . إسماعيل زردومي	جامعة باتنة	رئيسا
أ . د . محمد حجازي	جامعة باتنة	مشرفا و مقررا
أ . د . عيسى مدور	جامعة باتنة	عضوا
أ . د . فاتح حمبلي	جامعة أم البواقي	عضوا
أ . د . عباس بن يحيي	جامعة المسيلة	عضوا
أ . د . جلال خشاب	جامعة سوق اهراس	عضوا

السنة الجامعية: 2018/2017

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي هذا العمل إلى الوالدين الكريمين. . .

و إلى زوجتي العزيزة. . .

و إلى كل أفراد عائلتي . . .

كلمة شكر

أتقدم بفائق الشكر و الامتنان إلى أستاذي المشرف الدكتور محمد حجازي الذي لولا تشجيعه و توجيهاته لما خرج هذا العمل إلى النور.

وأشكر كل من ساهم من قريب أو بعيد في إتمام هذا العمل المتواضع

مقدمة

لعل أظهر ما تميزت به الحياة الفكرية العربية في قرونها الأولى، أنها كانت كالبحر، تنظر إلى سطحه فتراه على كثير من التجانس، لكن إذا أمعنت النظر ترى الصراع ناشبا بين ثلاث مجموعات تشابكت بينها الروابط والصلات، لكنها مختلفة بعضها عن بعض اختلافا يبلغ حد العداوة؛ فأما نقطة الالتقاء الواحدة فهي الكتاب المنزل، وبعد ذلك يذهب كل في طريق: فهنالك من يقف عند التنزيل نصا، يدرسه من كل ناحية، يستخلص منه الأحكام، ويدرس حوله لغة وأدبا وتاريخا. وهنالك من ينظر إلى النص لا ليقف عنده، بل ليغوص فيما يظنه كامنا وراءه من أسرار يحاول كشفها ليصل إلى «الحقيقة» وصولا حدسيا مباشرا هو من قبيل الإلهام الصوفي. وأما الفريق الثالث فهو أولئك الذين لا هم يكتفون بظاهر الآيات ليستخلصوا منها الشريعة، ولا هم يرضون بالوصول إلى الحقيقة المستترة وصولا وجدانيا مباشرا؛ بل يريدون أن يكون «العقل» أداتهم التي يعالجون بها الفهم والتأويل معا، وإذن فلا بد لهم من حجاج يقيمونه في كل مسألة على أسس المنطق الأرسطي الذي جاءهم منقولا من اليونان، وكان المتكلمون – والمعتزلة منهم بصفة خاصة– هم أول فئة تستخدم هذه الأداة العقلية اليونانية في دفاعها عن الإسلام وقيمه وعقائده وشرائعه ضد المرجئة والمجبرة وروافض الشيعة والنصارى واليهود والدهريين الماديين والمانويين الثَّنويين. وقد ملئوا بجدالهم وحجاجهم لهم مساجد البصرة، وجذبوا بحسن بيانهم وقوتهم في الإقناع وإفحام الخصوم الشباب شعراء وغير شعراء، ورحل كثير منهم منذ أواخر القرن الثاني إلى بغداد، فخلبوا الألباب هناك ببيانهم الساحر وبما أوردوا على الناس من دقائق الأفكار، وإذا الناس لا حديث لهم غير الاعتزال والمعتزلة ومناظراتهم لأصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة.

ولعلنا لا نبالغ إذا سمينا هذا العصر عصر الاعتزال، فقد بلغ من ازدهاره أن استولى على صولجان الحكم وأن وجهه حسب مشيئته، وربما كان ذلك هو الخطأ الوحيد الذي ارتكبه أصحابه، فإنهم وضعوه ووضعوا معه محنة خلق القرآن على رقاب الناس، فكان ذلك سبب سقوطه من حالق. ولكنه إذا كان قد أخفق حين استخدم السيف وغياهب السجون؛ فإنه نجح نجاحا كبيرا في أن صبغ العقول بصبغة فلسفية، وأن مرَّنها تمرينا واسعا على دقة التعليل

والمهارة في الاستنباط لخفيات المعاني ودقائقها والبراعة في تفريعها وتشعيبها وتوليدها، مع القياس الناصع والبرهان الساطع. لقد أكبَّ الناس على مناظراتهم وأكبَّ معهم الشعراء، بل قلما نجد شاعرا نابها في هذا العصر إلا تتلمذ لهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس وأبان اللاحقي والعتابي ومنصور النمري وأبي تمام.

وكان من المعتزلة أنفسهم شعراء كثيرون شاركوا في مجال الشعر، ومشاركتهم فيه تأخذ وجهتين: وجهة عامة فهم ينظمون فيما ينظم فيه غيرهم من موضوعات الشعر وأغراضه، ووجهة خاصة فهم ينظمون في الاحتجاج لآرائهم الكلامية وفيما يتصل بها من بعض المباحث في الطبيعة، وكثيرا ما يردون على خصومهم من أصحاب النحل المختلفة.

والذي يهمنا في بحثنا هذا هو الجهود البلاغية والنقدية التي قام بها المعتزلة، حيث تتضح منذ مطالع العصر العباسي الثاني ثلاث بيئات تتناول كل منها البلاغة تناولا متميزا، وهي:

1) بيئة اللغويين المحافظين حاولت أن تفرض المثال العربي القديم كنموذج يحسن أن يحاكى وكل ما سواه سقيم.
2) بيئة المتفلسفة والمترجمين: أسرفت في التجديد وسعت إلى فرض الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أصولا في تقويم البلاغة العربية.
3) بيئة المعتزلة والمتكلمون: وقفت موقفا معتدلا بين الطرفين المتعارضين إذ يقوِّمون ما لدى الأجانب من مقاييس بلاغية ويقرنونه إلى أنظار العرب في البلاغة، بل إنهم يخضعونه للذوق العربي الأصيل ومقاييسه.

إن هذا المنهج الذي انتهجه المعتزلة في بحوثهم البلاغية جعلهم يستميلون الناس إليهم، حتى سيطروا ببحوثهم على العصور والأجيال التالية.

وإذا كانت البلاغة خطت خطوات واسعة في سبيل تحولها إلى علم في هذا العصر؛ فكذلك النقد خطا بدوره خطوات كثيرة نحو تقنين مسائله، مع العلم أن البيئات الثلاث: اللغوية، والفلسفية، والاعتزالية، هي نفسها التي حاولت أن تشرِّع للنقد وأن تضع له معاييره ومقاييسه.

ولابد أن نلاحظ بصفة عامة أن الذوق الذي كان مسيطرا على النقد والشعر جميعا كان ذوقا محافظا، وكان طبيعيا أن يرفض نقد المتفلسفة المفرطين في التجديد. وكان من المنتظر للغويين الذين يمثلون بدقة النزعة المحافظة أن يسيطروا على الحركة النقدية ولكنهم لم يستطيعوا لسبب مهم، وهو أنهم لم ينفذوا إلى وضع نظرية أو أصول من شأنها أن تشيع، ولذلك سيطر المتكلمون المعتزلة الذين استطاعوا أن يضعوا للنقد أصولا ورسوما واضحة، وساعد على سيطرتهم أنهم لم يكونوا يرفضون القديم بل كانوا يوازنون بينه وبين روح العصر؛ وبذلك ظلوا يحافظون للشعر على تقاليده الموروثة.

إن هذا الزخم وهذا الثراء الذي تميز به الخطاب النقدي والبلاغي عند المعتزلة، وكذا تلك المكانة المرموقة في صدارة الحياة الأدبية في العصر العباسي، إن كل هذا ليدفع الباحث إلى التساؤل عن الأسباب والمقومات التي بوّأتهم هذه المنزلة؟ إن ذلك العمق والإبداع وقوة التأثير وجلاء الحجة في الخطاب النقدي والبلاغي للمعتزلة تجعل الدارس يُكِب على تراثهم درسا وتمحيصا لعله يضفر بشيء من أسراره.

إن اهتمام هذا البحث بالتراث بصفة عامة – والتراث المعتزلي خاصة– لا ينطلق من عاطفة أولية ساذجة، تتمثل في الحنين إلى الماضي، وتعكس في جوهرها نوعا من عبادة الأسلاف، وهو كذلك لا ينطلق من أي شعور بالقداسة لهذا التراث، يجعل الاقتراب النقدي منه خطيئة لا تغتفر. بل إن معاودة النظر في التراث العربي ينبغي أن تنطلق من الإيمان بكرامة العقل البشري حين ينشط إلى العمل، وحين يجهد نفسه سعيا وراء الحق، والحقيقة، فنحن جزء من هذا العقل، أو جزء من ديمومته، ومن ثم يكتسب كل عطاء إنساني أهميته وقيمته، لا لأنه حقق الغاية، بل لأنه مجرد خطوة على الطريق غير النهائي إليها، وفي هذا الإطار من الفهم والتقدير لكل عطاء انساني تكون نظرتنا إلى الجهود التي بذلها المعتزلة في محاولاتهم لتأسيس خطاب نقدي وبلاغي عربي يقوم على أصول واضحة يؤصلها منهجهم العام في العلم والمعرفة والحياة.

هذا إلى جانب أننا آثرنا أن ننظر إلى التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة من زاوية أخرى غير تقليدية، وقد سعت هذه الدراسة إلى اختيار منهج حداثي يلائم المدونة ويساعد على استكشاف خباياها وأسرارها، فبدت النظرية اللسانية التداولية أنسب منهج لهذه المهمة، وذلك لعدة اعتبارات منها:

- أن المعتزلة لفرط عقلانيتهم كانت لهم مواقف بيانية تتقاطع مع ما انتهى إليه البحث التداولي في تصوره عن التواصل واللغة والكلام.
- كما أن التداولية بما هي دراسة للمعنى في صلته بظروف الكلام، تتأسس على أربعة عناصر، وهي على الإجمال: أولا: أطراف التخاطب (أو المستعملون للغة). ثانيا: قصودهم وهي درجات ومراتب، وثالثا: السياق، ورابعا: المقام. وهي كلها مترابطة ومتداخلة. فالتداولية بهذا المفهوم يمكن اعتبارها أنسب منهج لتفكيك ثم إعادة بناء الخطاب النقدي والبلاغي عند المعتزلة القائم في الأساس على الحجاج والجدال والبراعة في توظيف الحجة والدليل، وكذا استعمال مخزون ثقافي فلسفي هائل.

ومن هنا تحدد عنوان هذا البحث بـــ:

الخطاب النقدي والبلاغي عند المعتزلة

مقاربة تداولية لسانية

وعموما يرمي هذا البحث إلى الإجابة عن الإشكالات الآتية:

- هل كان للمعتزلة أسسا تداولية خاصة ومتميزة وجهت نظرهم النقدي والبلاغي؟ ثم هيكلت صياغتهم لخطاباتهم الأدبية؟
- ما مدى تجلي الأثر الإديولوجي العقدي في الدرس النقدي والبلاغي عند المعتزلة ؟.
- هل تميزت وتفردت معالجة الناقد المعتزلي للقضايا البلاغية والنقدية عن غيره بسمات ومعالم خاصة تميزه ؟.
- الكشف عن مقدار انسجام أتباع هذه المدرسة أو افتراقهم عن الأصول الفكرية، ومقدار التزامهم العقل في الممارسة النقدية.

- وعلى الجملة تحاول هذه الدراسة تتبع الاستراتجيات والتقنيات التي ابتكرها المعتزلة أثناء تأسيسهم لخطابهم النقدي البلاغي.

أما من حيث المنهج؛ فهذه الدراسة ترتكز في منطلقها على توظيف مبادئ اللسانيات التداولية في مقاربة التراث النقدي و البلاغي العربي عامة و المعتزلي خاصة، غير ان تطبيق هذه المبادئ على مدونة الخطاب يحتاج إلى آليات متعددة منها: المقارنة، والاستقصاء و الاستنتاج و غيرها الآليات و الاستراتيجيات.

وقد انقسمت هذه الدراسة إلى: مقدمة، و أربعة فصول، و خاتمة.

الفصل الأول: يتضمن ضبط للمفاهيم الأساسية التي تقوم عليها الدراسة، فكان لزاما تعريف التداولية و توضيح أنواعها و أهم مبادئها و قضاياها. ثم تطرقنا لتعريف المعتزلة و شرحنا أصولهم التي يقوم عليها توجههم الإديولوجي. و كذلك قدمنا لمحة عن علم الكلام الذي كان للمعتزلة دور بارز في تأصيل أصوله.

في الفصل الثاني حاولنا ان ملقي الضوء على أبعاد الدرس اللساني التداولي في التراث النقدي و البلاغي العربي بصفة عامة؛ حيث ناقشنا قضية السياق و قضية المقصدية في التراث العربي، وكذلك تتبعنا بعض ملامح التداولية عند النقاد و البلاغيين العرب، و ركزنا على نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني.

أما في الفصل الثالث فقد حصرنا المدونة المدروسة في الخطاب البلاغي المعتزلي، وأخذنا الجاحظ كنموذج ؛ حيث درسنا الاستراتيجيات الإقناعية في خطاباته و كذلك الآليات الحجاجية عنده.

في الفصل الرابع حاولنا أن نلقي نظرة لسانية تداولية على بعض المدونات الاعتزالية المتخصصة في الاتجاه البلاغي، فحاولنا أن نقدم مقاربة لرسالة النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن الرماني المعتزلي، ثم مقاربة لصحيفة بشر بن المعتمر؛ حاولنا من خلال هذه المقاربات استجلاء بعض الأبعاد اللسانية التداولية في هذه الخطابات البلاغية المعتزلية المتميزة.

لابد من الإشارة إلى أن معالجة نصوص التراث العربي وفق منهج لساني تداولي تصطدم بعدة صعوبات، على رأسها قلة المادة المحكمة التي تفتح الطريق أمام الباحث الذي يلج غمار هذا المنهج. فرغم وجود محاولات متعددة لتأصل هذا المنهج وفق الخطاب اللغوي العربي؛ لكن ما يواجه الباحث هو تضارب و تناقض هذه المحاولات في كثير من الأحيان؛ حتى تفضي به في بعض الأحيان إلى الحيرة و الغموض.

لهذا فنحن نعتذر مسبقا إذ لم نوف الموضوع حقه.

وفي الأخير يجب علي أن أشكر أستاذي الفاضل محمد حجازي الذي لولا توجيهاته و إرشاداته لما اكتملت هذه الدراسة.

الفصل الأول

المدخل النظري

يكاد الباحثون يتفقون على أن البحث التداولي يقوم على دراسة أربعة جوانب هي: الإشارة والاستلزام الحواري والافتراض المسبق والأفعال الكلامية[1].

1. الإشاريات

تعد الإشاريات من المفاهيم اللسانية الجامعة لكل العناصر اللغوية التي تحيل مباشرة على المقام، من حيث وجود الذات المتكلمة أو الزمن أو المكان، حيث ينجز الملفوظ الذي يرتبط به معناه، وكل أسماء الإشارة تلتقي في مفهوم التعيين أو توجيه الانتباه إلى موضوعها بالإشارة إليه، وهي تنظم الفضاء انطلاقاً من نقطة مركزية هي الذات المتكلمة أو الأنا، ويجري هذا التنظيم على وفق عدد من المعايير أو المقالات هي المسافة بين المتكلم، أو المخاطب من جهة، وبين المشار إليه من جهة أخرى، وينحصر دور هذه العناصر في تعيين المرجع الذي تشير إليه وهي بذلك تضبط المقام الإشاري.

وبهذا يتضح أنه لا يتحدد مرجع الإشاريات إلا في سياق الخطاب التداولي؛ لأنها خالية من كل معنى في ذاتها، فبالرغم من ارتباطها بمرجع، إلا أنه مرجع غير ثابت لذلك يتفق النحاة جميعاً، على أن المبهمات – يعني بها أسماء الإشارة – عامل مهم في تكوين بنية الخطاب بواسطة القيام بدورها النحوي ووظيفتها الدلالية، وبهذا أصبحت الإشاريات مجالاً مشتركاً بين علم الدلالة والتداولية، وتقسم إلى خمسة أنواع هي: (إشارات شخصية، وزمانية، ومكانية، وخطابية، واجتماعية)

2. الاستلزام الحواري:

يعد من أهم الجوانب التداولية، نشأ في المحاضرات التي ألقاها غرايس (1967) عندما أشار إلى أن الجملة قد تحمل في مقاماتها المختلفة معاني أخرى غير مباشرة، مقسماً إياها إلى نوعين هما : (استلزام عرفي واستلزام حواري) والاستلزام العرفي هو ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ بدلالات بعينها، لا تنفك عنها مهما اختلفت السياقات وتغيرت

(1) د. تغريد الشميري، مفهوم التداولية في الفكر العربي القديم ، مقال منشور على شبكة الانترنت.

التراكيب، أمّا الاستلزام الحواري فهو متغير دائماً بتغير السياقات التي يرد فيها، ويقوم على أربعة مبادئ هي(مبدأ الكيف والكم والمناسبة والطريقة).

3. الافتراض المسبق

تعد الافتراضات المسبقة ضرورية لإنجاح عمليات التواصل والتبليغ في ميدان التعليم على وجه الخصوص، إذ إن تلقين معلومة جديدة لا تتحقق إلا إذا كانت هناك خلفيات وافتراضات سابقة يتم الانطلاق منها لتبليغ تلك المعلومة ، إذ ينبغي الاهتمام بالمتلقي الذي يجب أن يكون على دراية سابقة بما يقصده المتكلم من خلال كلامه، فمثلاً لو قال أحدهم : من فضلك أغلق الباب، فإننا نستنتج – من هذه الجملة – الآتي:

أولاً : أن باباً مفتوحاً والمتكلم يأمل من المتلقي أن يقوم بإغلاقه.

ثانياً : أن المتلقي قادر على إغلاق الباب.

ثالثاً : أن العلاقة القائمة بين المتكلم والمتلقي تسمح له أن يطلب منه إغلاق الباب، والدليل على ذلك شبه الجملة (من فضلك) التي بدأت الحوار المعين عليه أسلوب الطلب ولكن بأسلوب حواري مؤدب، وكأن العلاقة بين المتكلم والمتلقي علاقة ودية بغض النظر عن كونها علاقة متكلم يصدر الأوامر ومتلق ينفذ.

رابعاً : الباب مفتوح منذ وقت طويل مما جعل المتكلم يتضجر من هذا ربما لأسباب عدة، منها دخول الهواء القوي مثلاً، أو إزعاج المارة بالنظر إليه ذهاباً وإياباً وسؤالهم، أو أنه في وضع حواري خاص مع صديقه ولا يريد أحداً أن ينظر إليه.

خامساً : ربما عجز المتكلم عن التلميح للمتلقي أنه كان ينظر للباب المفتوح بنظرات استغراب توصي بإغلاقه، لكن المتلقي لم يفهم قصده مباشرة، فجاء بهذه الجملة المسبوقة بجملة (من فضلك) والمتبوعة بجملة الطلب (أغلق الباب).

4. الأفعال الكلامية

يعد هذا المفهوم الأساس الجوهري الذي بُني عليه الاتجاه التداولي، ويعود للفيلسوف (توماس رايد) الذي طرح فكرة الأفعال الاجتماعية في مقابل الأفعال الأحادية، أما أول درس

منظم للأفعال الكلامية فكان للفيلسوف الألماني (أدولف رايناخ) الذي تناول الوعد والطلب والأمر تحت مسمى الأفعال الاجتماعية، وكان الكتاب الأول الذي حمل مصطلح (نظرية الأفعال الكلامية) هو كتاب بوهلر، نظرية اللغة (1934)، واستناداً إلى ما جاء به بوهلر فإن كل استعمال للغة لابد أن يظهر واحدة من الوظائف التمثيل أو التعبير أو الابتداء .

ومع ازدهار تحليل الملفوظ كبنية للبحث تبناه رواد التداولية وعلى رأسهم أوستن (1962) فأكسبه المدلول الحالي، وبعد ذلك طوره تلميذه جون سيرل، في نظرية عرفت فيما بعد بنظرية أفعال الكلام العامة، نظرت للغة على أنها ليست مجرد وسيلة تبليغ وتواصل، بل هي أداة يستعملها المتكلمون للتأثير في متلقي الخطاب، والفعل الكلامي أصبح نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية، ومقصده أن كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، ويعد نشاطاً مادياً نحوياً يتوسل أفعالاً قولية لتحقيق أغراض إنجازية (كالطلب والوعد والوعيد و... إلخ) وغايات تأثيرية تؤدي إلى ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول). وقد شرحنا هذا في الصفحات السابقة.

المبحث الأول: التداولية؛

المفاهيم و القضايا

أولا : ماهية التداولية:

أ: لغة:

جاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي من "مادة دَوَلَ" :(الدولة: انقلاب الزمان، والعقبة في المال. و تدَاولوه أخذوه بالدُول. ودَوالِيك، أي: مُداولة على أمر، ودَالت الأيَام : دَارتْ، والله تعالى يُدَاولها بين الناس. والدول: لغة في الدلو، وانقلاب الدهر مِنْ حَالٍ إلى حَالْ وبالتحريك: النبل المتداول)[2].

وقد جاءت أيضا في مقاييس اللغة : (...فقال أهل اللغة اندَال القوم إذا تحَولوا من مكان إلى مكان...تدَاول القوم الشيء بينهم إذا صَار من بعضهم إلى بعضهم والدولة والدولة لغتان ، ويقال الدولة في المال والدولة في الحرب ، وإنّما سميا بذلك من قياس الباب لأنه أمر يتداولونه فيتحول من هذا على ذاك ومن ذاك على هذا)[3] ، ونرى من خلال التعريفين للتداولية أنها تنصب حول معنى واحد وهو التغير والتحول، وهو المعنى الذي يتفق عليه جميع اللغويين.

ب: اصطلاحا:

تعتبر التداولية توجها حديثا ومعاصرا في معالجة الخطاب بمختلف مستوياته وتعتبر المحاضرات التي ألقاها (أوستن) عام 1955 في جامعة (هارفارد) هي الانبثاق الواقعي للتداولية ،ومن المعلوم ومن المعلوم أن حداثة النشأة تولد الاختلاف في ضبط ماهية الشيء وتحديده بدقة ، ومن هنا فقد اختلفت تعريفات التداولية بين الباحثين ويذكر مؤلف القاموس الموسوعي للتداولية أنها "دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللساني الذي تعنى به تحديدا

(2) محمد بن يعقوب بن السراج الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح:محمود مسعود أحمد، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2009. مادة :(دول).

(3) ابن فارس ، مقاييس اللغة ، تح: عبد السلام محمود هارون، ج2 ، دار الجيل ، ط1، 1991 ، مادة :(دول).

اللسانيات "[4] ولعل أبرز الأسباب التي أدت إلى عدم الدقة في تحديد مفهوم التداولية هو أن "نشأة التداولية توافق تقريبا نشأة العلوم المعرفية، ولقد جرى التفكير في الذكاء الاصطناعي في سياق عقلية جديدة هي العقلية التي مكنت من ظهور العلوم العرفية ففي أمريكا على وجه الخصوص اتخذ علم النفس منذ بداية القرن العشرين وجهة سلوكية ، ويرفض علم النفس السلوكي التسليم بوجود أشياء غير قابلة للملاحظة كالحالات الذهنية ، وهو يكتفي بملاحظة السلوك للوصول إلى تعميم في شأن المعطيات النفسية"[5]، وكردة فعل على هذا التوجه السلوكي ظهرت العلوم المعرفية والتي منها (علم النفس ،اللسانيات ،فلسفة العقل ،الذكاء الاصطناعي ،علوم الأعصاب) وقد تقاطعت التداولية مع هذه العلوم التي ترتكز "في برنامج بحثها على توضيح اشتغال العقل ،الدماغ وبيان كيف أن العقل البشري يكتسب معارفا ويطورها ويستعملها اعتمادا من جملة مايعتمد على الحالة الذهنية "[6].

وهناك سبب آخر لتعدد تعريفات التداولية وهو تنوع النظريات والاتجاهات التي تشكلت داخل الاتجاه التداولي ، مما جعل كل باحث يوجه التداولية حسب النظرية التي يتبناها وينطلق منها، يعرف الدكتور صحراوي الاتجاه التداولي بأنه "مذهب لساني يدرس علاقة اللغة بمستعمليها وطرق كيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح .والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب. والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة و ناجحة .والبحث عن أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية "[7].

ومن هنا فالتداولية تقوم على رفض ثنائية اللغة/الكلام الذي نادى بها (دوسوسير) والتي

---

(4) جاك موشلر، آن ريبول ، القاموس الموسوعي للتداولية ، ترجمة مجموعة من الباحثين، المركز الوطني للترجمة ، تونس، 2010، ط2، ص21

(5) جاك موشلر، آن ريبول ،التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني ، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، بيروت، 2003، ط1، ص27.

(6) جاك موشلر، آن ريبول ،التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، ص28

(7) مسعود صحراوي، لتداولية عند العلماء العرب، ، دار الطليعة، بيروت، 2005، ط1، ص5.

تقول بأن اللغة وحدها دون الكلام هي الجديرة بالدراسة العلمية ،فالتداولية تتخطى هذا إلى تحليل عمليات الكلام ووصف وظائف الأقوال وخصائصها لدى التواصل اللغوي.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مصطلح (pragmatique) قد تعددت ترجماته إلى اللغة العربية ومن هذه الترجمات: البراغماتية ، البراغماتيك ،البراجماتية ،البراجماتيك وهذا يعتبر نقلا حرفيا للمصطلح الأجنبي وترجمت أيضا: التداولية، المقامية، الوظيفية،السياقية، الذرائعية ، النفعية.... وقد هيمن فيما بعد مصطلح التداولية على كل هذه الترجمات.

ويعتبر عدم استقرار مفهوم التداولية نفسه وموضوعها في توجه واحد أهم سبب في عدم استقرار المصطلح العربي .

يصنف الدكتور خليفة بوجادي تعريفات التداولية وفق عدة حقول هي [8] :

1-**تعريفات ترتبط بحقل نشأة التفكير التداولي:** تجمع هذه التعريفات على رصدا أصلين لنشأة التفكير التداولي:

<u>الأول</u>: تعريف تشارلز موريس لها حيث عدها جزءا من السينمائية و أحد مكوناتها ،تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات ،وبين مستعمليها أو مفسريها(متكلم،سامع ،قارئ ،كاتب) وتحديد ما يترتب عن هذه العلامات ،كان ذلك حينما شرح أبعاد السينمائية الثلاثة :

* علاقة العلامات بالموضوعات المعبر عنها وذلك بعد دلالي يهتم به علم الدلالة .

* علاقة العلامات بالناطقين بها ،وبالمتلقي وبالظواهر النفسية والحياتية والاجتماعية المرافقة لاستعمال العلامات وتوظيفها .وذلك هو البعد التداولي ،اهتمام التداولية .

* علاقة العلامات فيما بينها ، وذلك بعد تركيبي يهتم به علم التراكيب.

<u>الثاني</u>: يجعل حقل فلسفة اللغة العادية لدى (أوستين) وتلميذه (سورل) نواة لتأسيس التداولية

(8) خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية محاولة تاصيلية ، بيت الحكمة، الجزائر، 2012، ط2، ص55 ومايليها.

.....انطلاقا من إشكالية أفعال الكلام التي طورت التفكير في آليات معالجة اللغة :الحجاج :أنواع الخطاب....

2-تعريفات ترتبط بحقل موضوع التداولية ووظيفتها:

وتتفق على أن التداولية في عمومها تهتم بجميع شروط الخطاب ،وتعتمد أسلوبا ما في فهمه وإدراكه بدراسة كيفية استخدام اللغة وبيان الإشكال اللسانية التي لا يتحدد معناها إلا بالاستعمال ،وشرح سياق الحال والمقام الذي يؤدي فيه المتكلمون خطاباتهم.

فاهتمامها بنصب أساسا على المتكلم انطلاقا من سياق الملفوظات التي يؤديها إلى جانب تحليل الأفعال الكلامية ووظائف المنطوقات اللغوية ،وسماتها في عمليات الاتصال ،ولذلك سماها بعضهم (لسانيات الاستعمال اللغوي) ،موضوعها توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي.

3- تعريفات ترتبط بحقل التواصل والأداء:

اهتمام التداولية في مجموع تعريفات هذا الحقل ينصب على دراسة العلاقة بين المتكلم والسامع.بكل ما يعتري هذه العلاقة من ملابسات وشروط مختلفة ،حيث تدرس كل العلاقات بين المنطوقات اللغوية وعمليات الاتصال والتفاعل ،وتستند إلى علم اللغة النفسي وعلم اللغة الاجتماعي وتعالج قيود صلاحية منطوقات لغوية (أو أفعال كلامية) وقواعدها بالنسبة إلى السياق ويتلخص ذلك في دراسة العلاقة بين المتلفظ والخاطب فموضوعها – إذن – هو التواصل البشري على دراسة المقام والشروط المناسبة لأداء الحديث .

4-تعريفات ترتبط بحقل علاقتها بعلوم أخرى:

تتضح تعريفات أخرى للتداولية من خلال توضيح علاقتها بالعلوم الأخرى ومن أمثلة ذلك :

* تبرز التداولية كامتداد للسانيات التلفظ و لاهتمامها بلسانيات الكلام وعدم تمييزها بينه وبين اللغة ،صار تمييزها قائما بين الملفوظ الذي يقصد به ما يقال و الملفوظ الذي يعد فعلا للقول.

*وانقضت تعريفات أخرى لها على أنها أحد ثلاثة مكونات للغة ،إلى جانب المكون التركيبي والدلالي ،وتلك نتيجة ما توصل إليه (موريس).

* وفي سياق شرح علاقتها بالسيمياء عرفت حسب (موريس) بأنها فرع من السيميائية تهتم بالعلاقة بين الخطاب أثناء التفاعل اعتدادا بشروط تلفظه وبأنها أخر مولود للدرس السيميائي. وبعد استوائها في أعمال (أوستين) و (سورل) حثت على الرجوع إلى تحليل الحجاج.

يقترح الباحث اللساني والتداولي (ليفسون)[9] وجوها متعددة عرفت بها التداولية هي :

* **التعريف الأول:** ما دام التركيب دراسة للخصائص التآلفية بين الكلمات، والدلالة في المعنى وما يعكسه من أشياء (ملموسة أو مجردة)، فان التداولية دراسة للاستعمال اللغوي language usage الذي يقوم به أشخاص لهم معارف خاصة ووضعية اجتماعية معينة .

* **التعريف الثاني:**التداولية دراسة للمبادئ التي تؤهلنا لإدراك غرابة بعض الجمل أو عدم مقبوليتها أو لحنها أو عدم ورودها في لغة المتكلم.

***التعريف الثالث:** دراسة للغة في إطارها الوظيفي أو من وجهتها الوظيفية functional perspective وهذا يعني شرح وفهم البيانات اللغوية بالاعتماد على علل واستدلالات غير لغوية nanlinguistics .

* **التعريف الرابع:** التداولية جزء من الانجاز part of performance (بمفهوم شومسكي) وهذا ما ذهب إليه katz- fodor حيث اعتبر النظرية التداولية أو نظرية الانتقاء التركيبي يومئذ theory of setting selection تتعلق بدراسة الجمل الصحيحة في سياقاتها .

* **التعريف الخامس:** التداولية دراسة للعلاقات بين اللغة و السياق ، أو هي دراسة لكفاية

(9)إدريس مقبول ، الأسس الابستمولوجية و التداولية للنظر النحوي عند سيبويه، جدارا للكتاب العالمي ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، 2007، ص263 وما يليها

مستعملي اللغة في ربطهم اللغة بسياقاتها الخاصة .

* **التعريف السادس:** التداولية دراسة لظواهر بنية الخطاب اللغوي من تضمينات واقتضاءات أو ما يسمى بأفعال اللغة speech acts.

* **التعريف السابع:** التداولية دراسة كل مظاهر المعنى aspects of meaning من غير فصلها عن نظرية الدلالة، إلا أن الدلالة محدودة في عنصر شروط الصدق thruth conditional في حين تتناول التداولية التعابير التي لا تعلل بشروط الصدق (الملفوظات الإنشائية ،عللها مقامية انجازيه).

ويخلص (إدريس مقبول) إلى مجموع هذه التعاريف تدور حول وجهان هما:"الدلالة والاستعمال وكل ذلك راجع إلى ما تكرر بألفاظ متقاربة بناء على أن الاستعمال يدخل تحته جملة عناصر بالتضمن من غير الحاجة لتفصيلها ، وهي أربعة على الإجمال :

أولا أطراف التخاطب (أو المستعملون للغة).

ثانيا قصودهم وهي درجات ومراتب.

ثالثا السياق .

ورابعا المقام .،وهي كلها متداخلة "[10].

(10)إدريس مقبول ، الأسس الابستمولوجية و التداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ص265

ثانيا: أنواع التداولية:

ظهرت نتيجة التطورات الكبيرة في الفلسفة واللسانيات عدد من التداوليات. فالتداولية حقل لساني يهتم بالبعد الاستعمالي او الانجازي للكلام ، و ياخذ بعين الاعتبار المتكلم و السياق، الا ان ماينبغي التاكيد عليه هو ان الاهتمام ليس موحدا لتوزعه على مجالات وتوجهات متعددة مما ينتج لنا تداوليات متعددة تبعا لتطور الدرس التداولي. فنجد الدكتور نحلة محمود أحمد يقسم التداولية إلى":

1. **التداولية الاجتماعية:** التي تهتم بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي.
2. **التداولية اللغوية:** والتي تدرس الاستعمال اللغوي من وجهة نظر تركيبية.
3. **التداولية التطبيقية:** وهي تعنى بمشكلات التواصل في المواقف المختلفة.
4. **التداولية العامة:** وهي التي تعنى الأسس التي يقوم عليها استعمال اللغة استعمالاً اتصالياً."[11]

و قد ميزت (أورشيوني)[2] بين ثلاث تداوليات أساسية متجاورة هي:

1. **التداولية التلفظية** énonciative pragmatique (أو لسانيات التلفظ) مع (شارل موريس) التي تهتم بوصف العلاقات الموجودة بين بعض المعطيات الداخلية للملفوظ. و لعض خصائص الجهاز التلفظي (مرسل، متلقي، وضعية التلفظ) التي يندرج ضمنها الملفوظ.

(11) نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،ص:15.

(2) ينظر، ادريس مقبول ، الاسس الابستمولوجية و التداولية للنظر النحوي عند سيبويه، جدارا للكتاب العالمي ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، 2007، ص263

2. **التداولية التخاطبية** illocutoire pragmatique (أو نظرية أفعال اللغة)مع أوستين و سيرل ، التي تخصص لدراسة القيم التخاطبية داخل الملفوظ والتي تسمح له بالاشتغال كفعل لغوي خاص.
3. **التداولية التحاورية** conversationnelle pragmatique التي نتج تطورها الحديث جدا عن استيراد الحقل اللساني للافكار المؤسسة اصلا من لدن الاثنولوجيين و اتنوميتودولوجيي التواصل. و التي تهتم بدراسة اشتغال هذا النمط الخاص من التفاعلات التواصلية الذي هوالحوارات (وهي تبادلات كلامية تقتضي خصوصيتها أن تنجز بمساعدة دوال لفظية و لفظية موازية).

تصور هانسون :

قدم (هانسون)[12] 1974 تصورا متميزا يهدف من خلاله إلى توحيد أجزاء التداولية وفق درجة تعقُّد السياق من جزء إلى آخر، فميز بين:

1. **تداولية الدرجة الأولى:** تتمثل في دراسة رموز التعبيرات المبهمة ضمن ظروف استعمالها. وتعتمد هذه التداولية السياق الوجودي ؛ المتمثل في المخاطبين، ومعطيات الزمان والمكان. وتعكسها أعمال دارسي الإشارة و الرمز نحو بيرس ، روسل.
2. **تداولية الدرجة الثانية:** تتمثل في دراسة مدى ارتباط الموضوع المعبر عنه بملفوظاته، أي دراسة حجم ما يبلغه المتكلم من دلالات في الملفوظ الذي يؤدي ذلك، و مدى نجاحه أو إخفاقه. و سياقها في هذه الحال يكون أوسع من السابق؛ حيث يمتد من الموجودات إلى نفسية المتخاطبين و حدسهم، و الاعتقادات المشتركة بينهم. و تهتم خلال ذلك بقضايا مختلفة، نحو: شروط التواصل، التمييز بين المعنى الحرفي و

(12) ينظر : فرانسواز ارمينيكو، المقاربة التداولية ، ص41، 50، 61. و خليفة بوجادي ، مدخل إلى اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية، ص64 ومايليها و ينظر: الجيلالي دلاش ، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص34 ومايليها.

المعنى التواصلي (لدى ستالناكر وجاك) أو المعنى الحرفي و المعنى السياقي (سورل)، أو المعنى الحرفي و المعنى الموضوعي (ديكرو).

وتندرج ضمن هذه التداولية حِكم الحديث ل(غرايس) القائمة على "مبدأ التعاون" بين المتخاطبين،وهذا ما يتيح حسب غرايس[13] تبادلا أقصى للمعلومات؛ ويميز في ذلك أربع قواعد تتعلق بأنساق **(الكمية):** "عدم الإفراط أو التفريط في القول"، **(الكيفية):** "أن تكون مساهمتك ذات صدقية"، **(العلاقة):** "تكلم بصدد الموضوع المقصود"، **(الشكلية):** "كن واضحا". لكن هذه القواعد لا تحترم دائما خلال الاستعمال العادي للغة؛ ويمكن لذلك أن يحدث بسبب عدم الكفاءة أو عدم الانتباه أو الخطأ أو بسبب رفض التعاون المقصود. إلا أنه من الممكن أيضا أن لا تؤدي تجاوزات ظاهرة لقاعدة محددة إلى الإضرار بمبدأ التعاون: إنها تتم بشكل يتمكن فيه المتلقي من المواءمة ضمنيا بين الاختراق الظاهر و الاحترام الحقيقي للتعاون.

3. تداولية الدرجة الثالثة: تتمثل في نظرية أفعال الكلام مما قدمه (أوستين) و طوره (سورل)، و لا يتحدد الفعل الكلامي إلا من خلال السياق الذي يتكفل بتحديد جدية التلفُّظ أو الدعابة، أو إنجاز فعل معين. وقد توصل أوستين في آخر مرحلة من مراحل بحثه إلى تقسيم تقسيم "الفعل الكلامي الكامل"[14] de discours intégral acte إلى ثلاثة "أفعال" فرعية، على النحو الآتي:

أ. **فعل القول (او الفعل اللغوي) Acte locutoire :** و يراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم و ذات دلالة. ففعل القول يشتمل بالضرورة على أفعال لغوية فرعية، وهي المستويات اللسانية المعهودة: المستوى الصوتي، المستوى التركيبي، المستوى الدلالي. لكن أوستين يسميها أفعالا: الفعل الصوتي هو التلفظ بسلسلة من الأصوات المنتمية إلى لغة معينة، أما الفعل التركيبي فيؤلِّف مفردات طبقا لقواعد لغة

(13) DELCROIX(M), HALLYN(F),Methodes du texte ?introduction aux etudes litteraires ,Paris,Ducult,1987,P 70

(14) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء الغرب، ص 41 ومايليها.

معينة، و أما الفعل الدلالي فهو توظيف هذه الأفعال حسب معان و إحالات محددة . فقولنا مثلا: إنها ستمطر. يمكن أن يفهم معنى الجملة، و مع ذلك لا ندري أهي إخبار بـــ (أنها ستمطر) أم (تحذير من عواقب الخروج في هذا الجو)، أم (أمر بحمل مظلة) ، أم غير ذلك.... إلا بالرجوع إلى قرائن السياق لتحديد "قصد" المتكلم أو "غرضه" من الكلام.

ب. **الفعل المتضمَّن في القول acte illocutoire:** وهو الفعل الانجازي الحقيقي إذ إنه عملٌ يُنْجَزُ بقول ما، وهذا الصنف من الأفعال الكلامية هو المقصود من النظرية برمتها، ولذا اقترح أوستين تسمية الوظائف اللسانية الثاوية خلف هذه الأفعال: القوى الإنجازية، ومن أمثلة ذلك: السؤال، إجابة السؤال، إصدار تأكيد أو تحذير، وعد، أمر، شهادة في محكمة.... فالفرق بين الفعل الأول (أ) و الفعل الثاني (ب) هو أن الثاني قيام بفعل ضمن قول شيء، في مقابل الأول الذي هو مجرد قول شيء.

ج. **الفعل الناتج عن القول Acte perlocutoire:** يرى أوستين أنه مع القيام بفعل القول، و ما يصحبه من فعل متضمن في القول (القوة)، فقد يكون الفاعل (وهو هنا الشخص المتكلم) قائما بفعل ثالث هو التسبب في نشوء آثار في المشاعر و الفكر، ومن أمثلة تلك الآثار: الإقناعن التضليل، الإرشاد، التثبيط... و يسميه أوستين: الفعل الناتج عن القول، و سماه بعضهم "الفعل التأثيري".

و قد وضع الدكتور مسعود صحراوي خطاطات تمثل أفعال الكلام عند أوستين كالتالي[15]:

الفعل الأول، فعل القول:

(15) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء الغرب، ص 43

فعل صوتي (إنتاج الأصوات)

+ فعل تركيبي (إخضاع الأصوات لنظام نحوي معين)

+ فعل دلالي (ربط الأصوات بالدلالة)

فعل القول Acte locutoire

الفعلان الثاني والثالث: الفعل المتضمن في القول، والفعل الناتج عن القول:

الفعل المتضمّن في القول: وهو القيام بفعلٍ ما ضمن قول شيء **Acte illocutoire**

الفعل الناتج عن القول: وهو مجموع الآثار المترتبة عن الفعل السابق **Acte perlocutoire**

النتيجة: الفعل الكلامي الكامل، و بنيته كالآتي:

فعل القول (قول شيء معين) Acte locutoire

+ **الفعل المتضمّن في القول** (القيام بفعلٍ ما ضمن قول شيء) **Acte illocutoire**

+ **الفعل الناتج عن القول** (الآثار المترتبة على الفعل الإنجازي) **Acte perlocutoire**

الفعل الكلامي الكامل Acte de discours intégral

ولعل هذه البنية تتضح أكثر في الخطاطة أدناه:

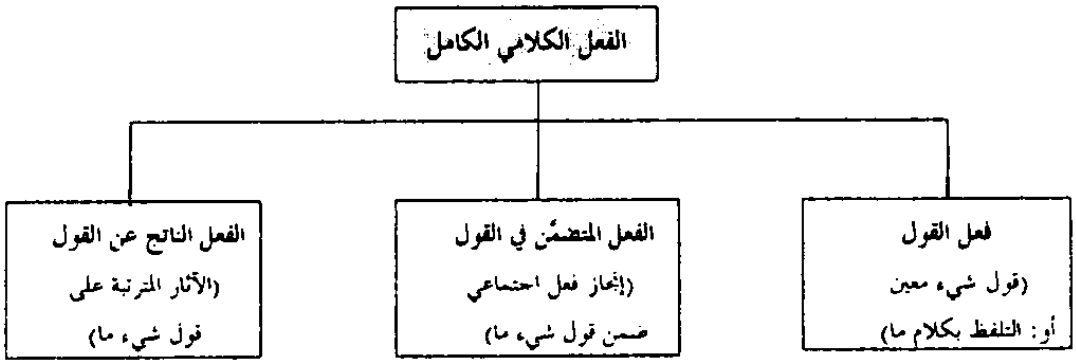

بعد ذلك قام أوستين بتجميع الأفعال اللغوية في خمس فصائل كبرى تحتوي على[16] :

-الأفعال اللغوية الدالة على الحكم verdictifs : قدّر، حكم على....

-الأفعال اللغوية الدالة على الممارسة exercitifs : عيّن، نصح، حذّر ...

-الأفعال اللغوية الدالة على الوعد commissifs : وعد، كفل، التزم ...

-الأفعال اللغوية الدالة على السيرة conductifs : شكر، هنّأ ، لعن ...

ووظيفة هذه الأفعال هي ضبط سيرة وسلوك المتكلمين الاجتماعي.

-الأفعال اللغوية الدالة على العرض expositifs : افترض، اعترف،ردّ ....

وتقوم هذه الأفعال بضبط مكانة أقوالنا داخل الحديث أو الحوار.

تصور ج .ر .سورل J. R. Searle لأفعال الكلام :

بعد استفادته من دروس أستاذه أوستين اقترح سورل بعض التعديلات وطور نظرية الأفعال اللغوية. يمكن عرض ما جاء به على النحو الآتي:

(16) الجيلالي دلاش ، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص25.

أولا : أكد" سيرل "على أن الفعل الإنجازي هو الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي وأن للقوة الإنجازية دليلا يسمى (دليل القوة الإنجازية) يبين لنا أن الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم بنطقه بجملة معينة يكون باستعماله لصيغة معينة لها دلالتها الخاصة، كعلامات الترقيم، والتنغيم، والوعد، والأمر...

ثانيا : الفعل الكلامي ليس رهين قصد المتكلم وإنما هو مرتبط بالعرف اللغوي والاجتماعي.

ثالثا : طوّر" سيرل "شروط الملائمة وجعلها أربعة، وهي:

1. **شرط المحتوى القضوي**: ويتحقق في فعل الوعد الذي يلزم به المتكلم نفسه في المستقبل.
2. **الشرط التمهيدي** : ويتحقق بقدرة المخاطب على إنجاز الفعل.
3. **شرط الإخلاص** : ويتحقق حين يكون المتكلم مخلصا في أداء الفعل، فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يستطيع.
4. **الشرط الأساسي** : ويتحقق بمحاولة تأثير المتكلم على السامع لينجز الفعل.[17]

رابعا: قدم" سيرل "تصنيفا بديلا لما قدمه" أوستين "قائما على ثلاثة أسس منهجية هي: الغرض الإنجازي ، اتجاه المطابقة ، شرط الإخلاص.

وقد جعل الأفعال الكلامية خمسة أصناف مثل" أوستين "وهي:

1. **أفعال الإثبات (الإخباريات)** : والغرض الإنجازي فيها جعل المتكلم مسؤولا عن وجود وضع للأشياء، وأفعال هذا الصنف كلها تحتمل الصدق أو الكذب، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها وتشمل التأكيد،والوصف ...

(17). احمد محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص47.

2. **أفعال التوجيه (التوجيهيات)** : وغرضها الإنجازي حمل الشخص على القيام بفعل معين، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الرغبة الصادقة وتشمل الأمر والنهي والطلب...
3. **أفعال الوعد (الالتزاميات)**: وغرضها الإنجازي التزام المتكلم بالقيام بشيء في المستقبل، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص هو القصد، وتشمل الوعد والوصية...
4. **التعبيريات** : وغرضها الإنجازي هو التعبير عن حالة نفسية، وليس لهذا الصنف من الأفعال اتجاه مطابقة (لا توجد علاقة هنا بين الكلمات والعالم) وشرط الإخلاص فيها هو الصدق، وتشمل، والاعتذار والمواساة.
5. **الإعلانيات** :والغرض الإنجازي فيها إحداث تغيير عن طريق الإعلان، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم ومن العالم إلى الكلمات، ولا تحتاج إلى شرط إخلاص وتشمل : الإعلام، والإخبار، والإعلان.[18]

وفي تمييزه بين الأفعال الإنجازية أشار" سيرل "إلى اثني عشر بعدا يختلف فيها كل فعل

إنجازي عن الآخر، يمكن ذكر أهمها:

1. **الاختلاف في الغرض الإنجازي** : يبين أن الغرض من الأمر مثلا هو التأثير في السامع وحمله للأمتثال بفعل ما ، في حين أن الغرض الإنجازي مثلا إلزام المتكلم نفسه بفعل شيء ما للمخاطب في المستقبل.
2. **الاختلاف في اتجاه المطابقة** : في بعض الأفعال الانجازية يكون اتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات كالوعد والرجاء وفي بعضها الآخر من الكلمات إلى العالم كالإخباريات.
3. **الاختلاف في الموقف النفسي الذي يعبر عنه المتكلم** : فالذي يعد أو يتوعد يعبر عن مقصديته .والذي يعتذر يعبر عن ندمه والذي يأمر أو ينهى يعبر عن رغبته [19]

(18). احمد محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص48.

4. **الاختلاف في القوة أو الدرجة التي يعرض بها الغرض الإنجازي** : ففرق بين قولك :أنا جائع، وإني لجائع، ففي عرض الغاية الكلامية هناك فرق في الشدة والقوة بين المثالين كان دعامتها التوكيد ب :إن واللام المزحلقة الواقعة في خبر) إن (ومثل هذا يدخل في أضرب الجملة الخبرية. تجدر الإشارة إلى أن" أوستين "وسيرل قد اختلفا في مصدر قوة المنطوق الإنجازية، ف" أوستين" يرى أن قوة المنطوق الإنجازية تحقيق لمقصد المتكلم تحقيقا ناجحا، أما" سيرل "يرى أن القوة حاصل تفسير المستمع للمنطوق[20].
5. **الاختلاف بين وضع المتكلم والسامع** : ويظهر ذلك في الوضعيات التي تكون فيها مكانة المتكلم أسمى من مكانة السامع، كأن تكون اجتماعية أو أخلاقية أو إدارية.

خامسا : **تصنيف" سيرل "للأفعال الإنجازية**:

إذا كان" أوستين "قد فرق بين الأفعال الإنجازية الصريحة والأولية، فإن" سيرل "ذهب إلى أكثر من ذلك وجاء بتصنيف أوسع عندما ميز بين الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة:

1. **الأفعال الإنجازية المباشرة** : وهي التي تطابق قوتها الانجازية قصد المتكلم، فيكون معنى ما ينطقه مطابقا لما يريد قوله، ويدخل هذا في معاني الكلمات التي تكون المنطوق وقواعد تأليفها (وضع اللغة).
2. **الأفعال الإنجازية غير المباشرة** : وهي التي تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم، فالفعل الإنجازي يتحقق من خلال فعل إنجازي آخر، ففي المثال المشهور الذي قدمه "سيرل": " هل يمكنك أن تناولني الملح؟" يبدو ظاهر المنطوق استفهاما، ولكن الدلالة لا تشير البتة إلى الاستفهام إنما تشير إلى الطلب (الالتماس)[21]. فـ"سيرل "يشير إلى

---

(19). المرجع السابق، ص 75 ومايليها

(20)محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، ط1، 2005،ص 288.

(21)بلخير عمر، تحليل الخطاب، المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة – الجزائر، ط1، 2003، ص164

ضرورة إحكام المتكلم لمنطوقه غير المباشر، حتى يحقق ما يريده من مستمعه، وذلك بمراعاة السياق، وطبيعة العلاقة بينهما.

ثالثا: مفاهيم التداولية و قضاياها:

تقوم اللسانيات التداولية على مجموعة من المفاهيم من أبرزها:

1. **مفهوم الفعل:** يتجاوز مفهوم الفعل في التداولية مفهوم تمثيل العالم وإنتاج ألفظ دالة على المعاني، إلى القيام بفعل وممارسة التأثير من خلال استعمال اللغة، هذا المفهوم الذي أسس لنظرية **أفعال الكلام**، وقد قسّم أوستن الأفعال إلى إنجازية actes performatifs وتقريرية أو واصفة actes constatifes ؛ بحيث يقترن في الأولى الإنجاز بالتلفظ نحو بعت، اعتقدت.. فالعمل هنا دلالة اللفظ، وفي الثانية تصف حالة عالم مستقل عن التلفظ نحو اقتربت الساعة، إلى جانب ذلك فقد قسم سيرل الأفعال الإنجازية إلى خمسة أصناف(التأكيدات، الأوامر، الالتزامات، التصريحات، الإدلاءات) وهو تقسيم يصب في خانة المفهوم التداولي للفعل أو الممارسة الفعلية للغة التي ترتبط دلالتها الفعلية بالحال أو السياق.
2. **مفهوم السياق:** ويقصد به الوضعية الملموسة التي توضع و تنطلق من خلالها مقاصد تخص المكان و الزمان، و هوية المتكلمين، الخ....و كل ما نحن في حاجة إليه، من أجل فهم وتقييم ما يقال. و هكذا ندرك مقدار أهمية السياق حين نحرم منه مثلا، وحين تنقل إلينا المقاصد عبر وسيط، و في حالة معزولة عن السياق الذي يصبح مبهما عامة، ودون قيمة. وعلى عكس ذلك، فاللغة العلمية، واللغة القانونية، أجهدتا نفسيهما على الدوام في إيجاد مقاصدها– التي هي عبارة عن نصوص مكتوبة في الغالب– لتمرير كل الأخبار السياقية الضرورية للفهم الجيد كما يعبر عنه.[22]
3. **مفهوم الإنجاز:** و يقصد بالإنجاز طبقا للمعنى الأصلي للكلمة إنجاز الفعل في السياق، إما بمحايثة لقدرات المتكلمين، أي معرفتهم و إلمامهم بالقواعد. و إما بتوجب إدماج التمرس اللساني بمفهوم أكثر تفهما، كالقدرة التواصلية[23].

---

(22) حفناوي بعلي، التداولية ..البراغماتية الجديدة خطاب ما بعد الحداثة، مجلة اللغة و الأدب، مجلة أكاديمية محكمة يصدرها معهد اللغة العربية وآدابها،جامعة الجزائر، العدد 17، جانفي 2006، ص:55

(23) المرجع السابق، نفس الصفحة.

4. **نظرية الملائمة THEORIE DE LA PARTINENECE**

هي مفهوم تداولي تأسس على يد كل من الباحث اللساني الفرنسي D.Speber و البريطاني D.WILSON[3] وتهتم هذه النظرية بمقولة المقام حيث تقوم بتفسير الظواهر الكلامية و سماتها البنيوية في طبقاتها المقامية و تعد في الوقت نفسه إدراكية لأنها تنتمي إلى العلوم المعرفية الإدراكية[4]. و قد اعتمد كل من (ولسن و سبربر) أثناء تأسيسهما لهذه النظرية على المبادئ التي أسس عليها (جرايس) مفهوم الاستلزام الحواري و القائم على مبدأ التعاون.

5. **مبدأ القصدية INTENTIONNNALITE**

هو مفهوم أخذه اوستين عن هوسرل وادخله في تحليلاته للظواهر اللغوية و اعتبر أن كل فعل كلامي يقوم على مبدأ القصدية ويهتم هذا المبدأ بربط بين التراكيب اللغوية و مراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من خطاب في إطار مفاهيمي مستوف للأبعاد التداولية للظاهرة اللغوية[24].

6. **الاستلزام الحواري IMPLICATION CONVERSATIONELLE**

تعود نشأة هذت المفهوم التداولي الى المحاضرات التي ألقاها بول (جرايس) سنة 1967 حيث لاحظ هذا الفيلسوف أن الجملة قد تحتمل في مقاماتها المختلفة معاني أخرى غير مباشرة ، و يقوم هذا المبدأ على أربع مسلمات أساسية تضم كل مسلمة عدد من المبادئ الفرعية و هي: مسلمة **الكم** QUANTITE ومسلمة **الكيف** QUALITE مسلمة **الملائمة** PERTINENCE و مسلمة **الجهة** MODALITE.

7. **منتظمات القول LES IMPLICITES**

هي مفهوم تداولي يهتم بدراسة الخطاب في جوانبه الغامضة و في إطار السياق الذي يرد فيه و ينطوي تحت هذا المفهوم الافتراض السابق أو المسبق و الأقوال المضمرة.

الافتراض السابق أو المسبق PRESUPPOSITION

---

(3) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 36.

(4) المرجع نفسه، ص36.

(24) المرجع نفسه، ص10.

لقد أثار هذا المفهوم اهتمام الدارسين منذ مطلع العقد السابع من القرن العشرين ،حيث ظهر المصطلح لأول مرة من طرف الفيلسوف الألماني(فريجة) ،و هذا بوصفه مشكلة من مشكلات علم الدلالة المنطقي المؤسس على الصدق، ثم أرسى مبادئ هذا المفهوم فيما بعد(ستراوس) وهو احد فلاسفة أكسفورد، و يشكل الافتراض المسبق الخلفية الأساسية لإنجاح العملية التواصلية التبليغية ؛ حيث ينطلق المتخاطبون إثناء حواراتهم من معطيات وافتراضات تكون مشتركة و معلومة لديهم ؛ وعلى هذا الأساس يوجه المتكلم خطابا إلى السامع مفترضا أن جوانب هذا الخطاب ستكون معلومة بالضرورة لديه و لتوضيح ذلك نقدم هذا المثال[25].

حوار بين شخصين(أ، ب)

أ /هل تحسنت صحتك؟

فالافتراض المسبق لهذه العبارة هو أن الشخص (ب) مريض و إن الشخص (أ) يعرفه و على علم بمرضه، و بالتالي يجيب (ب) على النحو الآتي:

ب /نعم لقد تحسنت قليلا ، شكرا على اهتمامك.

لكن لنفترض أن هذه المعطيات غير مشتركة بين الطرفين وان الشخص (ب) لا يعرف الشخص (أ) أو انه لم يكن مريضا في الأصل و هو بصحة جيدة فسيجيب عليه بإحدى العبارات :

من قال إني مريض؟

أنا بصحة جيدة ولم أكن مريضا

من أنت أنا لا أعرفك؟

الأقوال المضمرة:[26]

هو المعاني المتضمنة في الخطاب والتي تحدد وفق السياق الذي ترد فيه تقول (أوركيوني) القول المضمر هو كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها و لكن تحقيقها في

(25) الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ص39

(26) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص32 . و ينظر أيضا:ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، دار الأمل، الجزائر، 2005، ص118 ومايليها.

الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث، ومثال ذلك قول شخص في غرفة مع صديقه اشعر بالبرد، فالمتكلم قد يقصد من وراء عبارته :إن الجو بارد بالفعل المعنى الحرفي للعبارة و قد يريد من خلال عبارته أن:

* يثير انتباه صديقه لغلق النافذة أو الباب إذا كانا مفتوحين.

* يلفت انتباهه إلى إشعال المدفأة.

* أن يضع عليه غطاء آخر أو ما شابه ذلك و تبقى قائمة التأويلات مفتوحة و مختلفة باختلاف السياق الذي ترد فيه.

8. **الإحالة REFERENCE**

تتمثل في العلاقات القائمة بين العبارة اللغوية والشيء الذي يحيل إليه في الواقع، وقد درس هذا المفهوم في ضوء تعريف العلامة اللغوية والتي تتكون من ثلاثة عناصر و هي[27]

- **الدال SIGNIFICATION**

هو مجموعة الأصوات التي تكون الكلمة مثل مدير م. د. ي. ر

- **المدلول SIGNIFIE**

هو التصور الذهني المجرد لمعنى الكلمة فالمدير هو شخص يدير مكانا ما

- **المرجع REFERENT**

هو الشيء الذي تحيل إليه العلامة في العالم الخارجي (الواقع) فالمدير هو الشخص الذي تنطبق عليه خاصية إدارة عمل أو مكان ما.

و قد قسم فلاسفة اللغة العبارة اللغوية إلى أربعة أقسام بحسب ما تحيل عليه في الواقع و هي[28] عبارات عامة، عبارات خاصة، عبارات معينة، و عبارات غير معينة.

---

(27) صلاح حسين، المدخل إلى علم الدلالة وعلاقته بعلم الانثربولوجيا و علم النفس، دار الكتاب الحديثة، (الجزائر، القاهرة، الكويت)، د.ط، 2008 ، ص192

(28) أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، مرجع سابق، ص16

* عبارات عامة :هي التي تحيل على مجموعة من الأشخاص أو الأشياء في العالم الخارجي مثل: أساتذة ،إنسان، كتب.

* عبارات خاصة :هي التي تحيل على شخص واحد أو شيء واحد مثل :الأستاذ علي الطاولة البيضاء.

* عبارات معينة أو محيلة :هي العبارات التي تحيل إلى شخص أو شيء محدد مثل: جاء أبوك يا علي.

* عبارات غير معينة :هي العبارات التي تحيل إلى شخص أو شيء ما غير محدد مثل: رأيت شخصا يسرق منزلا.

9. **الاقتضاء PRESUPPOSE**

ارتبط مفهوم الاقتضاء بمفهوم الإحالة في فلسفة اللغة العادية، و قد كان الفيلسوف (فريجة) أول من نبه إلى هذا الرابط بين المفهومين ؛ فإذا كانت العمارة اللغوية تحيل إلى شيء ما فهذا يقتضي بالضرورة وجود شخص أو شيء ما يحيل إليه في الواقع.

10. **الحجاج:** l'argumentation مفهوم الحجاج يختلف و يتنوع و يصعب حصره و الإحاطة به فهو يتميز بكثرة الحقول المعرفية التي تتناوله" إذ نجده متواترا في الأدبيات الفلسفية المنطقية و البلاغة التقليدية والدراسات القانونية و المقاربة اللسانية و الخطابية المعاصرة"[29].

و هو بحث من أجل ترجيح خيار من بين قائمة و ممكنة؛ بهدف دفع فاعلين معيّنين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائما، فهو كما يبدو يقوم في مفهومه على صناعة الجدل و الخطابة[30].تطلق لفظة الحجاج و محاججة عند (بيرلمان و تيتيكا)[31] على

(29)محمد طروس :النظرية الحجاجية من جلال الدراسات البلاغية و المنطقية و اللسانية دار النشر للثقافة،الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص06

(30). خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية محاولة تاصيلية، ص85

(31)نعمان بوقرة، المصطلحات الاساسية في لسانيات النص و تحليل الخطاب، جدارا للكتاب العالمين عمان، الاردن، ط1 ، 2009، ص 105،106.

العلم و موضوعه، و مؤداها درس تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليه من أطروحات، و أن تزيد درجة التسليم، محاولة إذعان العقل لما يطرح عليه من أفكار؛ يمر الخطاب الحجاجي في تشكله بالأدوار التالية:

أ. مرحلة مصادر الأدلة.

ب. مرحلة ترتيب أجزاء القول.

ج.مرحلة الصياغة الأسلوبية.

د. مرحلة الإلقاء.

11. الوظائف التداولية les fonctions pragmatique

من أهم ما تميز به الدرس التداولي تحديده لما يعرف بالوظيفة التداولية للغة حيث تجاوز فكرة الوظيفة الوحيدة للغة (التواصل)، إلى تعدد الوظائف وأهمها أن اللغة ذات وظيفة تأثيرية في السلوك الإنساني، وتتبني عليها تغيرات في المواقف والآراء[32].

والوظيفة تعرف حسب معجم (ديبوا) بأنها "الدور الذي تؤديه الوحدة اللسانية في البنية التركيبية للملفوظ، ويعد كل عنصر من الجملة مشاركا في معناها العام"[33].

وفي معجم (جورج مونان) تقوم وجهة النظر الوظيفية في تحليل لساني على وصف بنية لغة ما، والتي تعرف قبل كل شيء بأنها وسيلة تواصل، وفي هذه الحال، كل الوحدات اللسانية والعلاقات المتبادلة بينها، تحلل وتوصف اعتدادا بدورها (وظيفتها) في مؤسسة التواصل[34].

ومهمة الوظائف التداولية أن تعدد وضعية مكونات الجملة ، بالنظر غلى البنية الإخبارية والمعلوماتية في علاقة الجملة بالطبقات المقامية المحتمل أن تنجز فيها، فهي – إذًا– وظائف مرتبطة بالسياق والمقام وبمدى إنجازيتها، في واقع التواصل[35].

---

(32) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية تأصيل، ص 94

(33) Jean Dubois, dictionnaire linguistique, larousse, Paris, France,1988 p216

(34) G.Mounin, Dictionnaire de linguistique Quadrige, PUF,èdition, 1973 p143 144

(35) ينظر: خليفة بوجادي. في اللسانيات التداولية– تأصيل– ص 96 وكذلك. أحمد المتوكل، الجملة المركبة في اللغة العربية ، ص25

ويميز أحمد المتوكل[36] في الوظائف التداولية في اللغة العربية بين ما هو "داخلي" من هذه الوظائف وبين ما هو "خارجي". ويمكن تلخيص ذلك كما يلي:

الوظائف الداخلية:

الوظائف التداولية الداخلية وظيفتان تسندان وفقا للسياق (المقامي والمقالي) إلى موضوعين أو لاحقين داخل حمل الجملة نفسه.

هاتان الوظيفتان هما: "المحور" و "البؤرة " باعتبار انقسام البؤرة إلى "بؤرة جديدة" و "بؤرة مقابلة" .

(أ)- يحمل الوظيفة المحور الموضوع أو اللاحق المحيل على الذات (شخص أو شيء أو غيرهما) التي تشكل "محيط الحديث في موقف تواصلي معين كما هو الشأن للمكون "هند" في الحوار التالي:

أ- ماذا شربت هند؟

ب- شربت هند فنجان قهوة.

إن اللغة العربية لا تختلف عن غيرها من اللغات في كونها تنزع كغيرها إلى تجميع وظيفة المنفذ ووظيفة الفاعل ووظيفة المحور في مكوّن واحد، وهو ما يطلق عليه في أدبيات اللسانيات النمطية مصطلح "الفاعل النموذجي" تضافر هذه الوظائف الثلاث هو سمة المكون"هند" في الجملتين السابقتين.

تجميع الوظائف الثلاث ليس قاعدة بل مجرد نزوع عام يمكن أن يخالفه إسناد المحور إلى غير المنفذ – الفاعل.

(ب)- تسند بؤرة الجديدة إلى المكون الحامل للمعلومة غير المتواجدة في مخزون المتكلم الذهني في موقف تواصلي معين.

ذلك شان المكون المفعول "فنجان قهوة" في المثال السابق.

---

(36) احمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، دار الأمان، الرباط، المغرب،ط1،2006، ص93 . و ينظر أيضا: المتوكل، الوظائف التداولية، ص25 وما بعدها.

أما بؤرة المقابلة فتسند إلى المكوّن الذي يحمل معلومة "تصحيحية" تعوض معلومة في مخزون المخاطب يعتقد المتكلم أنها غير واردة.

في الجملة الثانية من الحوار التالي، نجد المكون "كأس شاي" مُبأّر تبئير مقابلة لا تبئير جديد كما كان شأن المكون "فنجان قهوة" في الجملة السابقة.

أ- لقد شربت هند فنجان قهوة.

ب- لا، كأس شاي شربت هند.

الوظائف الخارجية:

في اللغة العربية ثلاث وظائف خارجية هما وظيفتا "المبتدأ" و "الذيل" و وظيفة "المنادي". وتكمن خارجية هذه الوظائف الثلاث في كونها تسند إلى مكونات تتموقع خارج الجملة.

1-المبتدأ:[37]

يقترح "سيمون ديك" تعريفه:"المبتدأ (theme) هو ما يحدد مجال الخطاب (universe of discourse) الذي يعتبر الحمل (predicotion) بالنسبة إليه واردا (relevant)

ولنأخذ كمثال –توضيحيا لهذا التعريف- الجملة التالية:

- زيدٌ، قام أبوه.

يمكن أن يمثل لبنية هذه الجملة تمثيلا أوليا كما يلي:

[زيد] مبتدأ [قام أبوه] حمل

الجملة تتركب إذن ركنين أساسيين:

- حمل [قام أبوه]
- ومبتدأ [زيد] وهو الذي يحدد المجال الذي يعتبر إسناد مجموع الحمل إليه واردا.

ويقدم أحمد المتوكل[38] لاعتباره المبتدأ وظيفة تداولية، تبريرين اثنين.

---

(37) احمد المتوكل، الوظائف التداولية، ص115

(38) م. نفسه، ص116

1/ يشترك المبتدأ مع الوظائف التداولية الأخرى (كالمحور، والذيل،والبؤرة...) في الخاصية التي تميزها عن كل من الأدوار الدلالية والوظائف التركيبية وهي أنها مرتبطة بالمقام، أي أن تحديدها لا يمكن أن يتم إلا انطلاقا من الوضع التخابري القائم بين المتكلم والمخاطب في طبقة مقامية معينة .

2/ وتتحدد هذه العلاقة في إطار معارف المتكلم حول العالم الخارجي.

2-الذيل:[39]

يحمل الذيل المعلومة التي توضح معلومة داخل الحمل أو تعدلها. يتضح من التعريف أن المكون الذيل يقوم على مستوى البنية الإخبارية للجملة بدورين: دور توضيح ودور تعديل. وفي اللغة العربية يقوم الذيل بدور ثالث هو: دور التصحيح .

ومن هنا يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الذيول:

1- ذيل التوضيح:

يطابق ذيل التوضيح عملية إنتاج الخطاب الآتية:

يعطي المتكلم المعلومة (م) ثم يلاحظ أنها ليست واضحة الوضوح الكافي فيضيف المعلوم (مَ)؛ لإزالة الإبهام، ففي الجملة: أخوه مسافر، زيد. تضاف المعلومة التي يحملها المكون الذيل [زيد] لإزالة إبهام الضمير(ه) في [أخوه].

2- **ذيل التعديل:**

يطابق ذيل التعديل عملية إنتاج الخطاب الآتية:

يعطي المتكلم المعلومة(م) ثم يلاحظ أنها ليست بالضبط المعلومة المقصود إعطاؤها، فيضيف المعلومة (مَ) التي تعدلها. ففي الجملة التالية:

قرأت الكتاب، نصفه.

تضاف المعلومة التي يحملها المكون (نصفه) لتعديل المعلومة التي يحملها المكون (الكتاب).

---

(39) م. نفسه، ص147

3- ذيل التصحيح:

يطابق ذيل التصحيح العملية الخطابية الآتية:

يعطي المتكلم المعلومة (م) ثم ينتبه إلى أنها ليست المعلومة المقصود إعطاؤها فيضيف المعلومة (مَ) قصد تصحيحها[أي إحلال معلومة أخرى محلها] كما في الجملة:

- قابلت اليوم زيدا، بل خالدا تضاف المعلومة التي تحملها العبارة (خالد) لتصحيح المعلومة التي تحملها العبارة (زيد) .

4- المنادي:

تسند الوظيفة المنادي إلى المكون الدال على الكائن المنادي في مقام معين، وينبغي التمييز بين النداء بعده فعلا لغويا، شأنه شأن الإخبار أو الاستفهام أو الأمر، وبين المنادى بعده وظيفة: أي علاقة تسند إلى أحد مكونات الجملة، فالوظيفة التداولية مرتبطة بالمقام، على نحو ارتباط وظيفة المبتدأ أو الذيل...

المبحث الثاني: المعتزلة

للحديث عن المعتزلة نجد أنفسنا مدفوعين لإلقاء الضوء على ثلاثة عناصر أساسية؛ من خلالها تتضح الصورة العامة لهذه الفرقة الإسلامية، وهذه العناصر هي: علم الكلام، ثم المعتزلة، ثم الأصول الخمسة للمعتزلة.

أولا :علم الكلام

كانت المهمة الأساسية والأولى للإسلام هي تقرير التوحيد تقريرا واضحا صريحا لا لبس فيه وإقراره في العقول والقلوب إقرارا يدفعها إلى العمل به و التزام شريعته ومنهاجه في كافة نواحي الحياة ، ثم نفي الشرك –المضاد لهذا التوحيد – نفيا تاما في أي صورة من صوره ، وتحت أي اسم أو شعار يختفي وراءه[40].

ومن أجل تحقيق هذه الغايات السامية انتهج القرآن الكريم منهجا خاصا في تقرير تلك العقيدة ،فاتجه إلى الفطرة الإنسانية يخاطب ما هو مركوز فيها من معان تجعل الإيمان بوجود الخالق وضرورة عبادته وحده أمرا بديهيا لا حاجة فيه لجدل أو سفسطة[41].

وقد أحسن الرعيل الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في استيعابهم لمقررات القرآن الكريم على الطريقة التي قررها[42].

لكن يبدو أن هذا الأمر لم يدم طويلا، فمع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وضمها للعديد من الأمم والقوميات التي تحمل خلفيات فكرية وعقائدية وثقافية مختلفة تماما عما حمله المجتمع الإسلامي، ومما لا شك فيه أن المسلمين قد تأثروا بتلك الأمم "وما تحمله ثقافاتهم ودياناتهم من أفكار ومعتقدات بل ومناهج نظر وبحث تختلف باختلاف تلك الأمم ،إلى جانب أن الكثير من أبناء تلك الأمم قد دخلوا الإسلام حاملين ذلك التراث المثقل بركام التصورات القديمة والمناهج الضالة...إضافة إلى اتساع نطاق الترجمة والنقل عن الثقافات الأخرى خاصة اليونانية وفي

---

(40)محمد العبد، طارق عبد الحليم، المعتزلة بين القديم و الحديث، دار الأرقم، برمنجهام، ط1، 1987، ص09

(41)المرجع نفسه، ص09.

(42)المرجع نفسه، ص12.

مجال الفلسفة والمنطق "[43].

كل هذه العوامل أدت إلى ظهور "علم الكلام" ويسمى أيضا بأصول الدين وسماه أبو حنيفة بالفقه الأكبر ويسمى بعلم النظر والاستدلال ،وأيضا بعلم التوحيد والصفات[44]، وهو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على غيرها،بإجراء الحجج ودفع الشبه[45].

ولكن رغم كل هذه العوامل المساهمة في ولادة هذا العلم إلا أنه يعتبر بحق "علما أصليا فقد نشأ في البيئة الإسلامية العربية ،واختص بإثبات مبادئ العقيدة الإسلامية وإبطال أدلة خصومها، حتى عده البعض قريت الفقه ومكملا له ،فالمتكلم يشتغل بالإثبات العقلي للأصول الشرعية التي يستنبط منها الفقيه أحكامه و فتاويه ،حتى سماه أبو حنيفة (الفقه الأكبر) وعلم الكلام أيضا مشارك وخادم للإلهيات ،فقد فتح الطريق لها للخوض في مسائل إلهية ،مثل مسألة النبوة ومسألة المفاد، و أمرها بوسائل البحث فيها... وعلم الكلام يقبل كذلك الاعتراض على مضامينه وعلى مسالكه... بل ليس في الممارسة التراثية علم أقرب إلى هذه الخاصية الاعتراضية منه، نظرا لطبيعته الجدلية المعتبرة وقد يجوز تعريفه بأنه العلم يختص بدفع الاعتراضات على أصول العقيدة، إذ جانبه التأسيسي أو الإثباتي لم ينشأ ويتطور إلا بالاستناد إلى جانبه الإبطالي أو النقدي، وعلم الكلام هو أخيرا العلم الذي أظهر قدرة تداخلية قل نظيرها في الممارسة التراثية، فقد تداخل مع العلوم الأصلية مثل الفقه والتصوف والبلاغة واللغة والنحو ،وعلم الأصول كما تداخل مع العلوم المنقولة نحو: الإلهيات والمنطق والأخلاق[46].

"فعلم الكلام هو علم يختص بالحجاج عن العقائد بالأدلة العقلية[47]"

والحق أن الكلام بشؤون العقيدة في الإسلام ،إنما صار "علما" أو "فنا" باصطلاح القدماء (أي مجموعة منظمة من المعارف حول موضوعات محددة هي هنا :ذات الله وصفاته و أفعال)

---

(43) المرجع نفسه، ص13

(44)عبد الرحمان بدوي، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1997، ص08.

(45)المرجع نفسه، ص12.

(46) طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1993، ص141ــ142.

(47) ابن خلدون، المقدمة، ص458.

مع المعتزلة، فهم أرباب الكلام و أصحاب الجدل والتمييز والنظر والاستنباط والحجج على من خالفهم وأنواع الكلام، والمفرقون بين علم السمع وعلم العقل والمنصفون في مناظرة خصومهم[48].و قد سمي هذا العلم بعلم الكلام لعدة أسباب منها:

1. لأن عنوان مباحثه كان قولهم : الكلام في كذا وكذا.
2. و لأن مسألة الكلام كانت أشهر مباحثه وأكثره نزاعا و جدالا حتى إن بعض المتغلبة قتل كثيرا من أهل الحق لعدم قولهم بخلق القرآن.
3. ولأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات و إلزام الخصوم، كالمنطق للفلسفة.
4. ولأنه أول ما يجب من العلوم التي تعلم وتتعلم بالكلام، فأطلق عليه هذا الاسم لذلك، ثم خص به ولم يطلق على غيره تمييزا له.
5. لأنه يتحقق بالمباحثة و إدارة الكلام بين الجانبين و غيره قد يتحقق بالتأمل و مطالعة الكتب.
6. ولأنه أكثر العلوم خلافا و نزاعا، فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم.
7. ولأنه و لقوة أدلته صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من العلوم كما يقال للأقوى من الكلامين: هذا هو الكلام.
8. ولأنه لابتنائه على الأدلة القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية، أشد العلوم تأثيرا في القلب وتغلغلا فيه فسمي بالكلام المشتق من الكلم و هو الجرح.

وقد كان المعتزلة هم الفرقة الإسلامية التي حملت لواء علم الكلام بهدف الدفاع

عن الدين الإسلامي و تنزيه التوحيد والرد على المخالفين بالحجج الدامغة...فمن هم المعتزلة؟؟

(48) محمد عابد الجابري، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1998، ص14

ثانيا: المعتزلة

المعتزلة فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري (80 هـ - 131 هـ) في البصرة (في أواخر العصر الأموي) وقد ازدهرت في العصر العباسي. وقد لعبت دوراً رئيسياً سواء على المستوى الديني والسياسي، ولقد غلبت على المعتزلة النزعة العقلية فاعتمدوا على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل، وقالوا بالفكر قبل السمع، ورفضوا الأحاديث التي لا يقرها العقل، وقالوا بوجوب معرفة الله بالعقل ولو لم يرد شرع بذلك، وإذا تعارض النص مع العقل قدموا العقل لأنه أصل النص، ولا يتقدم الفرع على الأصل، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، لذلك فإنهم قد تطرفوا وغالوا في استخدام العقل وجعلوه حاكماً على النص، بعكس أهل السنة الذين استخدموا العقل وسيلة لفهم النص وليس حاكماً عليه.

اختلف المؤرخون في بواعث ظهور مذهب المعتزلة، واتجهت رؤية العلماء إلى:

- **سبب ديني:**

الاعتزال حدث بسبب اختلاف في بعض الأحكام الدينية كالحكم على مرتكب الكبيرة. ويعتقد العلماء المؤيدون لهذه النظرية أن سبب التسمية هو ما ورد في الرواية الشائعة؛ في اعتزال **(واصل بن عطاء)** عن شيخه **الحسن البصري** في مجلسه العلمي، بسبب الحكم على مرتكب الكبيرة، وكان الحكم أنه ليس بكافر. وتقول الرواية أن واصل بن عطاء لم ترقه هذه العبارة وقال هو في (منزلة بين منزلتين)، أي لا مؤمن ولا كافر. وبسبب هذه الإجابة اعتزل مجلس الحسن البصري وكوّن لنفسه حلقة دراسية وفق ما يفهم ويقال حين ذاك أن الحسن البصري أطلق عبارة (اعْتَزَلنا واصل)[49]. فسمي هو أتباعه باسم المعتزلة.

(49) محمد العبدة، طارق عبد الحليم، المعتزلة بين القديم و الحديث،ص102 و ما بعدها

- **سبب سياسي:**

يعتقد بعض العلماء أن الداعي لظهور هذه الفرقة ظرف حضاري أو تاريخي لأن الإسلام عند نهاية القرن الأول كان قد توسع ودخلت أمم عديدة وشعوب كثيرة في الإسلام ودخلت معها ثقافات مختلفة ودخلت الفلسفة ولم يعد المنهج النصي التقليدي النقلي يفي حاجات المسلمين العقلية في جدالهم. والمنهج الذي يصلح لذلك هو المنهج الطبيعي العقلي والذي سيصبح أهم المذاهب الكلامية من الناحية الخالصة فهو أكثر المذاهب إغراقا وتعلقا بالمذهب العقلاني.

ويذكر الدكتور عبد الرحمان بدوي[50] بإيجاز ما توصل له (نالينو) عن أصل اسم المعتزلة، وهذه النتائج هي:

1. أن اسم المعتزلة ليس مأخوذا عن فكرة الانفصال عن مذاهب أهل السنة و الجماعة؛ وبالتالي لم يكن من وضع أهل السنة بقصد الذم أو السخرية من المعتزلة بوصفهم خارجين على مذهب الجماعة الإسلامية ومنشقين عنها، وإنما اختار المعتزلة الأولون هذا الاسم ، أو على الأقل تقبلوه بمعنى (المحايدين) أو الذين لا ينصرون أحد الفريقين المتنازعين (أهل السنة والخوارج) على الآخر في المسألة السياسية الدينية الخطيرة.مسألة "الفاسق" ما حكمه: هل هو كافر مخلد في النار كما يقول الخوارج أو هو مؤمن يعاقب على الكبيرة بقدرها، أو هو في منزلة بين المنزلتين، وهو ما سيقول به المعتزلة.
2. أن اسم "المعتزلة" في بدايته اتخذ بعدا سياسيا، ثم كان المعتزلة الجدد المتكلمون استمرارا في ميدان الفكر و النظر.
3. أن اسم "المعتزلة" كان في الأصل يشير إلى النقطة الوحيدة المميزة لمذهبهم عن مذهب أهل السنة و الجماعة وهذه النقطة قد فقدت أهميتها بعد انقضاء الحروب،

(50)عبد الرحمان بدوي، مذاهب الإسلاميين، ص37

أي أن التسمية كانت جزئية في وقت من الأوقات، مثل التسميات الأخرى التي أطلقت على المعتزلة بعد ذلك، للدلالة على بعض النقاط الخاصة في تعاليمهم مثل (القدرية، العدلية، الموحدة) مشيرين بذلك إلى مذاهبهم في القدر و في العدل و في التوحيد.

ثالثا: الأصول الخمسة:

يقول الخياط:"وليس يستحق أحد منهم – أي المعتزلة – اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد و الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا أكملت فيه هذه الخصال فهو المعتزلي".

1. **التوحيد:** ويعنون به إثبات وحدانيةِ الله ونفي المثل عنه، وقالوا أن صفاته هي عين ذاته فهو عالم بذاته قادر بذاته، لا بصفات زائدة عن الذات، وقد درج مخالفوهم من المغرضين على تفسير ذلك بأنهم ينفون الصفات عن الله.
2. **العدل:** ويعنون به قياس أحكام الله على ما يقتضيه العقل والحكمة، وبناء على ذلك نفوا أمورا وأوجبوا أخرى، فنفوا أن يكون الله خالقا لأفعال عباده، وقالوا: إن العباد هم الخالقون لأفعال أنفسهم إن خيرا وإن شرا، قال **أبو محمد بن حزم**[51]:" قالت المعتزلة: بأسرها حاشا **ضرار بن عبد الله الغطفاني الكوفي** ومن وافقه **كحفص الفرد وكلثوم** وأصحابه إن جميع أفعال العباد من حركاتهم وسكونهم في أقوالهم وأفعالهم وعقودهم لم يخلقها الله عز وجل ". وأوجبوا على الخالق الله فعل الأصلح لعباده، قال **الشهرستاني**[52]:" اتفقوا – أي المعتزلة – على أن الله لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه عندهم خلاف وسموا هذا النمط عدلا "، وقالوا أيضا بأن العقل مستقل بالتحسين والتقبيح، فما حسنه العقل كان حسنا، وما قبحه كان قبيحا، وأوجبوا الثواب على فعل ما استحسنه العقل، والعقاب على فعل ما استقبحه.
3. **المنزلة بين المنزلتين:** وهذا الأصل يوضح حكم الفاسق في الدنيا عند المعتزلة، وهي المسألة التي اختلف فيها **واصل بن عطاء** مع **الحسن البصري**، إذ يعتقد المعتزلة أن الفاسق في الدنيا لا يسمى مؤمنا بوجه من الوجوه، ولا يسمى كافرا بل هو في منزلة بين هاتين المنزلتين، فإن تاب رجع إلى إيمانه، وإن مات مصرا على فسقه كان من المخلدين في عذاب جهنم.

---

(51) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، صححه ، ج1، ص: 83،

(52) أبو الفتح الشهرستاني، الملل والنحل، احمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1992، ج1، ص: 39.

4. **الوعد والوعيد:** والمقصود به إنفاذ الوعيد في الآخرة على أصحاب الكبائر وأن الله لا يقبل فيهم شفاعة، ولا يخرج أحدا منهم من النار، فهم كفار خارجون عن الملة مخلدون في نار جهنم، قال **الشهرستاني**[53]: "واتفقوا – أي المعتزلة – على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض. وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط وعدا ووعيدا".

5. **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** وهذا الأصل يوضح موقف المعتزلة من أصحاب الكبائر سواء أكانوا حكاما أم محكومين، قال الإمام **الأشعري**[54]في المقالات :" وأجمعت المعتزلة إلا **الأصم** على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإمكان والقدرة باللسان واليد والسيف كيف قدروا على ذلك" فهم يرون قتال أئمة الجور لمجرد فسقهم، ووجوب الخروج عليهم عند القدرة على ذلك وغلبة الظن بحصول الغلبة وإزالة المنكر.

شرح أصول المعتزلة:

1/ التوحيد:

فمن خلال استدلالهم العقلي على وجود الله سبحانه التزموا بنفي الصفات، وأداهم ذلك إلى إثبات خلق القرآن، وإلى عدم رؤية المؤمنين لله سبحانه يوم القيامة، وإلى نفي استواء الله على عرشه من فوق سماواته كما اخبر في كتابه الكريم[55] .وينضوي تحت باب التوحيد عند المعتزلة مجموعة من القضايا منها:

أولا- التعطيل:

وللاستدلال على وجود الله بدليل الحدوث والقدم قالوا:

---

(53)أبو الفتح الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص39

(54)أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج1، ص: 265

(55)محمد العبدة، طارق عبد الحليم، المعتزلة بين القديم و الحديث، ص44

- إن الأجسام يوجد بها أعراض معينة (وهي كل ما يطرأ على الجسم من تغيرات) كالحركة والسكون والاجتماع والافتراق وصفات الأجسام فالجسم يتحرك ثم يسكن، وقد يكون ساكنا ثم يتحرك،فهذه أعراض يتعرض لها خلاف ذاته.
- وهذه الأعراض حادثة لأنها تتغير، والقديم ثابت لا يتغير ولا يطرأ عليه تبديل.
- وقد رأينا أن كل جسم لا يخلو من أعراض في كل وقت على الدوام.
- فالأجسام إذًا محدثة (أي حدثت بعد أن لم تكن)، وليست قديمة[56].

ثم إذا ثبت أن الأجسام محدثة فلابد لها من مُحدث مُوجِد، وحدوث المُحدَث وإيجاده بعد العدم بالفعل يحتاج إلى مرجّح ليرجح إيجاد المحدث في وقت مخصوص و مكان مخصوص، وهذا المرجح هو الله سبحانه.[57]

ثم قالوا: انه قد تبين لنا أن الصفات هي أعراض للأجسام فهي محدثة،ولو أثبتنا لله تعالى صفة قديمة فكأننا نقول بقد يمين وذلك حيث أن الصفات زائدة عن الذات لما عرف من اختلاف الصفة عن الموصوف. وإذن فالله سبحانه لا يجوز أن يوصف بصفة فيها معنى إيجابي كالعلم والقدرة، بل الأمثل هو أن نصفه بصفات سلبية محضة، فهو سبحانه واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا دم ولا لحم ولا شخص ولا جوهر ولا عرف ولا زبدي لون ولا طعم...إلى آخر ما وصفوه به من سلوب بلا ولا...

أما عن صفاته كالسمع والبصر فقد منعوا من ذلك ، وقالوا إنه عالم بدون علم وقادر بدون قدرة وسميع بلا سمع وهكذا ...[58]

ثم عرّجوا على سائر صفات الله التي أثبتها لنفسه كاليد والعينيين كما في قوله " بل يداه مبسوطتان"[59] وقوله تعالى " ويبقى وجه ربك"[60].

---

(56) ينظر: ابن تيمية، الفتاوى، ج3 ، ص303 و عبد الرحمان بدوي، مذاهب الاسلاميين، ص398

(57)محمد العبدة، طارق عبد الحليم، المعتزلة بين القديم و الحديث، ص47

(58)أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج1، ص155ومابعدها

(59) سورة المائدة، الآية 64

فقالوا إن ذلك منافٍ للتنزيه اللائق بالله تعالى، كما أنه يستدعي أن يكون له جسم، فلابد من تأويل هذه الآيات وصرفها عن معناها الواضح الظاهر، فزعموا أن وجه الله هو الله وأن يد الله هي كرمه، وأن عينه في قوله تعالى"ولتصنع على عيني"[61].أي في علمه وإحاطته، وهكذا في سائر الصفات بدعوى التنزيه عن مشابهة الخلق للخالق[62].

وتبعا لما تقدم، قالوا بنفي الاستواء على العرش من حيث أن الاستواء لا يكون إلا من جسم مماس لجسم آخر وهذا لا يكون في حق الله تعالى، وذهبوا في تأويل آيات الاستواء كقوله تعالى"الرحمان على العرش استوى"[63] إلى أنه الاستيلاء، كما يقال: استوى بشر على المدينة، أي استولى عليها..

كذلك نفوا علو الله سبحانه عن خلقه بدعوى أن ذلك يستلزمه أن يكون "متحيزا" في "جهة" والله سبحانه لا يتحيز ولا تحده الحدود، وكذلك إن قلنا أنه في جهة، فهو إذن موجود داخل شيء مخلوق وهي الجهة [64].

ثانيا: نفي رؤية الله في الآخرة

ذهبت المعتزلة – نتيجة لما سبق من تصوراتهم عن نفي الجسمية والصفات والجهة والتحيز، إلى أن الله سبحانه لا يمكن أن يراه المؤمنون في الآخرة، وأوّلوا الآيات الدالة على ذلك في القرآن، ورفضوا الأحاديث المروية في هذا المعنى بحجة أنها أحاديث آحاد[65].

ثالثا: كلام الله تعالى (القرآن).

تابع المعتزلة الجهم بن صفوان في مقالته أن القرآن مخلوق لله تعالى، وكان ذلك متسقا مع مذهبهم في مسالة الصفات، إذ لو كان القرآن كلام الله غير مخلوق لكان قديما مع الله، وهذا

---

(60) سورة الرحمان، الآية 27

(61) سورة طه، الآية 39

(62)محمد العبدة، طارق عبد الحليم، المعتزلة بين القديم و الحديث، ص49

(63) سورة طه، الآية 5

(64) محمد العبدة، م.سابق، ص49

(65) م.نفسه، ص50

قول بإلهين، كذلك فالقرآن يشتمل على أوامر ونواه وحوادث وقصص قد وقعت في أزمنة متعددة فلا يمكن أن يكون الله لم يزل متكلما بها منذ الأزل[66].

2/ العدل:

وينذرج تحت هذا الأصل عدة مسائل منها:

أ- **نفي القدرة.**

يذهبون إلى أن صفة العدل تستلزم أن لا يحاسب أحدا إلا على ما جنت يداه، أما ما اكره عليه واضطره غيره إليه فلا مجال لحسابه ولا لعقابه به، كما أن فاعل الظلم ظالم، وفاعل الشر شرير، والله سبحانه بخلاف ذلك إذ يقول:"وما ربك بظلام للعبيد"[67]، وقال: "وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"[68]، فهذا يستدعي أنه لم يقدر شيئا على عباده ولم يقض عليهم بأمره في الأزل، بل إن العباد مختارون لأفعالهم، أحرار في عملها بكامل مشيئتهم وإرادتهم، والإرادة الإلهية لا دخل لها بهذه الأفعال التي يقوم بها العباد، إذ أن ذلك التصور هو المبرر لمعنى الثواب والعقاب، ولكون الله عادلاّ[69].

ب- **خلق أفعال العباد:**

يقول القاضي عبد الجبار :"اتفق أهل العدل على أن أفعال العباد من تصرفهم وقيامهم وقعودهم حادثة من جهتهم، وان الله عز و جل أقدرهم على ذلك ولا فاعل لها، ولا محدث سواهم، وان من قال أن الله سبحانه خالقها ومحدثها فقد عظم خطؤه، وأحالوا حدوث فعل من فاعلين"[70]، ويظهر من هذا ما يلي:

أولا: اتفاق المعتزلة أن الله غير خالق لأفعال العباد.

ثانيا: اتفاق المعتزلة أيضا على أن العباد خالقون أفعالهم، وأن الله أقدرهم على ذلك.

---

(66) م.نفسه، ص50

(67) سورة فصلت ، الآية 46

(68) سورة النحل، الآية 118

(69)محمد العبدة، م.سابق، ص57

(70) القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب العدل و التوحيد، ج8 ، ص3

ج- أفعال التولد:

أفعال التولد هي كل فعل ينهيأ وقوعه على الخطأ دون القصد غليه أو الإرادة له، فهو متولد، وكل فعل لا يتهيأ وقوعه إلا بقصد، ويحتاج كل جزء منه إلى تجدد عزم وإرادة له، فهو خارج من حد التولد داخل في حد المباشر[71].

ومن أمثلة ذلك، الألم الحادث عن الضرب، والألوان الحادثة عند الضربة، والإدراك الحادث عن فتح البصر، وما أشبهها من المسببات غير المقصودة[72]

وللمعتزلة في أفعال التولد أقوال منها:

القول الأول: قولهم إن المتولدات أفعالا لا محدث لها،وممن ذلك ثمامة بن أشرس، فإنه جعل الحوادث ماعدا الإرادة حدثا لا محدث له[73].

ويروى الشهرستاني[74] أن ثمامة انفرد عن أصحابه بمسائل منها قوله: إن الأفعال المتولدة لا فاعل لها، إذ لم يمكنه إضافتها إلى فاعل أسبابها، لأنه يلزم أن يضيف الفعل إلى ميت مثلما إذا فعل السبب ومات ووجد المتولد بعده، ولم يمكنه إضافتها إلى الله تعالى، لأنه يؤدي إلى فعل القبيح وذلك محال، فتحير فيه وقال: المتولدات أفعال لا فاعل لها.

القول الثاني: قول من نسبها إلى طبع الإنسان ك**الجاحظ** أو فعل الله تعالى بإيجاب الخلقة ك**النظام** و**معمر**، يقول القاضي عبد الجبار:"وأما المتولدات ففيها نوع من الاختلاف ... ففي الناس من علقها بالطبع على ما قاله أبو عثمان الجاحظ في أفعال الجوارح والمعرفة، ولم يجعل الواقع عند الاختيار سوى الإرادة دون الحركات وما شاكلها ، وفيهم من قال إن الحوادث التي تحدث في الجمادات، إنها تحصل فيها بطبع المحل، وهو النظام ، وإليه ذهب معمر"[75].

القول الثالث: وهو قول أكثر المعتزلة ، وقد قسموا أفعال التولد إلى قسمين:

---

(71) عواد بن عبد الله المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة، مكتبة الرشيد، الرياض، السعودية، ط2، 1995، ص184

(72)م. نفسه، ص184

(73)القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، مكتبة وهبة، مطبعة الاستقلال الكبرى، ط1، 1965، ص388

(74) الشهرستاني، الملل و النحل، ج1، ص61

(75)القاضي عبد الجبار، شرح الاصول الخمسة، ص387

القسم الأول: ما تولد من غير الحي، كحرق النار، وتبريد الثلج، وقد اختلفوا فيه. فقال بعضهم: فعل الله عز وجل وقال آخرون: فعل الطبيعة، وقال فريق ثالث: أفعال الله لا فاعل لها .

القسم الثاني: ما تولد من الإنسان الحي، قالوا: هذا من فعل الإنسان، وممن قال بهذا القول بشير بن المعتمر منشئ القول بالتولد، وكذلك القاضي عبد الجبار[76].

د- نظرية الصالح والأصلح:

قالت المعتزلة: بما أن الله سبحانه يفعل الخير ويريده، ولا يفعل الشر ولا يريده، بل ولا يقدر عليه عند بعضهم فإن ذلك يعني انه سبحانه يفعل الصالح من الأمور لعبادة... بل "يجب" عليه أن يفعل الأصلح منها، وإذا فعل ما يضرهم لاستتبع ذلك ظلمهم وقد نفيناه عنه، فهو سبحانه لا يفعل إلا ما هو صالح لعبادة وإلا كان ظالما لهم[77].

يقول النظام[78]:"فاعل العدل لا يوصف بالقدرة على الظلم، وإنما يقدر على فعل ما يعلم أن فيه صلاحا لعبادة، ولا يقدر على أن يفعل لعباده في الدنيا ما ليس فيه صلاحهم" إذن فالمعتزلة اتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير، بل ويجب عليه ذلك.

وأما الأصلح فقد اختلفوا فيه فجمهورهم يرون وجوبه على الله لأن أصلح الأشياء –عندهم– هو الغاية، وقد فعله الله بعباده ولا شيء يتوهم وراء الغاية.

ه- التحسين والتقبيح العقليات :

مجمل هذه القضية هو: هل يستطيع العقل أن يستقل بإدراك الأفعال الحسنة أو القبيحة وحده؟ أم لابد من ورود الشرع ليعلمنا بالحسن والقبيح ويعينه للعقل؟ وبعبارة أخرى هل في الأشياء صفات ذاتية يمكن بها للعقل أن يدرك حسنها أو قبحها؟ ذهبت المعتزلة إلى أن العقل يمكنه –وحده– أن يدرك الحسن والقبح في الأشياء كلها وذلك لما فيها من صفات تدل على أنها حسنة أو قبيحة؛ فالصدق حسن والكذب قبيح والعقل يدرك ذلك وحده حتى قبل ورود الشرع

---

(76)عواد بن عبد الله المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة، ص189

(77) محمد العبدة، م.سابق، ص68

(78) الشهرستاني، الملل و النحل، ج1، ص47

بذلك، فالشرع إنما يأتي ليقرر ما يراه العقل وليس ليثبته يثبته ابتداء[79]. وقد بنوا على ذلك أمرين:

1- أن التوحيد – الذي هو أحسن الأمور وأفضلها – وكذلك الأفعال الحسنة والأفعال والقبيحة يمكن إدراكها بالفعل قبل إرسال الرسل ومن ثم فإن الإنسان مثاب على ما يفعله من حسنات ومعاقب على ما يقترفه من سيئات حتى ودون إرسال الرسل وإنزال الكتب.

2- أن العقل هو الحكم النهائي في إدراك حسن الأفعال وقبحها ومن ثَمَّ فهو الحكم في قبول ما ورد من أحاديث تحسن بعض الأشياء، وتقبح بعضها، و بمعنى آخر تأمر ببعضها لما فيه من حسن ومصلحة، وتنهي عن بعضها لما فيه من قبح ومفسدة.

3/ الوعد والوعيد

يقول القاضي عبد الجبار: "وأما علوم الوعد والوعيد، فهو: أن الله وعد المطيعين بالثواب، وأنه يفعل ما وعد به لا محالة، ولا يجوز عليه الخلف والكذب"[80].

فالمعتزلة ترى أن الله يجب أن ينفذ وعده، بل وأن المكلف ينال ما وُعِد به عن طريق الاستحقاق. ويتكلم القاضي عبد الجبار عن الوعيد فيقول: "ولا يتوعد –عز وجل– إلا بالمستحق، لأنه إذا خرج عن المستحق دخل في حد الظلم"[81].

ويذكر الشهرستاني رأي المعتزلة في الوعيد: "واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكافر"[82]. مما سبق يتضح أن رأي المعتزلة في الوعيد هو أن الفاسق إذا مات على غير توبة عن كبيرة ارتكبها يستحق النار مخلدا فيها، لأن الله سبحانه وتعالى توعده بذلك، ولابد أن ينفذ وعيده، لكن عذابه يكون اخف من عذاب الكافر.

---

(79) محمد العبدة، م.سابق، ص70

(80)القاضي عبد الجبار، شرح الاصول الخمسة، ص136

(81)عواد بن عبد الله المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة، ص219

(82)الشهرستاني، الملل و النحل، ج1، ص45

4/المنزلة بين المنزلتين:

هذا الأصل هو نقطة البدء في نشأة المعتزلة كما أشرنا إلى ذلك سابقا، وسبب تسميتهم أن هذا الأصل هو سبب الاختلاف بين واصل والحسن؛ حيث استقل واصل برأي خاص في مرتكب الكبيرة، ويشرح القاضي عبد الجبار هذا فبقول:"إن صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين، فلا يكون اسمه اسم كافر، ولا اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقا، وكذلك صاحب الكبيرة له حكم بين الحكمين فلا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرناه هو سبب تلقيب المسالة بالمنزلة بين المنزلتين، فإن صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر ولا منزلة المؤمن، بل له منزلة بينهما"[83].

فمقصود المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين، وهو أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنا، ولا كافرا، لا في الاسم ولا في الحكم، بل في منزلة بين المنزلتين، فلا يسمى مؤمنا، ولا كافرا، وإنما يسمى فاسقا.

5/ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

يقول القاضي عبد الجبار: "اعلم أنه لا خلاف في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[84] ويقول أيضا:" وأعلم أن المقصود في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو: أن لا يضيع المعروف ولا يقع المنكر، فإذا ارتفع هذا الغرض ببعض المكلفين سقط عن الباقين، فلهذا قلنا أنه من فروض الكفايات"[85].

(83)القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص137

(84)القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص142

(85)القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص148

الفصل الثاني :

ملامح التداولية في الخطاب النقدي و البلاغي العربي القديم

مدخل تمهيدي

يبدو أن مبادئ التداولية الحديثة ماثلة في تراثنا اللغوي والنحوي، ولو بمصطلحات مختلفة، وذلك من بداية طلائع الدرس اللساني، وصولاً إلى النقاد والبلاغيين المتأخرين. كما وجدنا عند الأصوليين اهتماماً كبيراً بأطراف العملية التخاطبية أكثر من اهتمام اللغويين، والنحويين، والبلاغيين، وذلك بقدر ما يعود إلى اهتمام كل فريق. فالنحويون صبوا اهتمامهم على وصف الطريقة الأسلم للقول، وأن يفهم المعنى العام للخطاب في جانبيه: الدلالي والمعجمي. في حين انصب اهتمام البلاغيين على الإنشاء والخبر، وأضرب الخبر، ومبدأ الإفادة، ومراعاة الغرض، وهذا هو الذي نشأت من أجله التداولية[86].

هذا وتدرس التداولية اللغة عند استعمالها في طبقات مقامية مختلفة؛ أي بوصفها كلاماً محدداً صادراً عن مرسل محدد إلى مرسل إليه محدد. وتتأسس الاستدلالات التداولية على "أعراف" اجتماعية، وإن كانت نسبية، فمثلاً قولنا: "لا شكراً" لمن قدّم لنا شيئاً لا نريده، فالسياق المقامي يعدّ مفهوماً تداولياً راسخاً، ينظر عادة إلى المقام على أنه معيار من معايير الحكم على العبارة بالقبول من ناحية لغوية؛ إذ إنّ العبارات غير المكتملة لغوياً قد تكون منسجمة مع المقام، فتصبح صحيحة ومقبولة، والعبارة السابقة "لا شكراً" غير مستقيمة لغوياً؛ لأنّ المعيارية النحوية ترفض هذا التركيب من ناحية المعنى، لكن الواقع الاستعمالي أو السياق المقامي يأخذ به، ومن ثمّ يصبح مفهوماً، ومتداولاً، ومقبولاً.

وكذلك لو شاهدنا جنازة تُحمل على الأكتاف، ويسأل سائلٌ: مَنْ المتوفِّي؟ فيجاب: فلان. فالمتداول كلمة المتوفِّي، تعني الإنسان أو الكائن الحي، لكن المنطوق اللغوي يخالف ذلك مخالفة كبيرة، إذ المتوفِّي هو الله، والمتوفَّى هو الإنسان، ولو أجيب السائل – عند سؤاله مَنْ المتوفّى – بالقول: الله لقامت الدنيا ولم تقعد على رأس المجيب، ووقع ما لم تحمد عقباه.

(86)عاطف فضل ، الخطاب وعلم اللغة التداولي، جامعة الزرقاء، تشرين الثاني 2013م،محاضرة، غير منشورة

ومثله قول أحدهم لآخر "لا عافاك الله" ليس المقصود الدعوة عليه بعدم المعافاة، بل الدعوة له، لكن منطوق العبارة التداولي هو: لا عافاك الله، في حين أن منطوقها اللغوي غير ذلك، ويفضي إلى الدعوة عليه.

ومثل ذلك كثير، وأحياناً نسمع من بعض من لهم قليل من المعرفة اللغوية، يقولون لمن يقول هذه الجملة وأمثالها، قل: لا وعافاك الله، أو لا (ثم سكتة خفيفة) عافاك الله.

وثمّة أمثلة كثيرة من المتداول تخالف قواعد اللغة، منها:

قرأت صفحة الوفيّات ← وصوابه الوَفَيات.

أقيمت دورة رياضية بإشراف خبراء أكفّاء ← والصواب أكفاء.

مدراء الدوائر مجازون ← مديرو الدوائر مجازون.

كلما زاد عدد الطلبة كلما زاد عدد المدارس ← كلما لا تكرر.

استبدلت السيارة القديمة بالجديدة ← الباء تكون مع المتروك؛ أي أنه أخذ الجديدة وترك القديمة، لكن منطوق الجملة أنه أخذ القديمة وترك الجديدة.

سحب شكواه ← استردّ شكواه.

وغير ذلك من الجمل والتراكيب التي فيها تجاوز لحدود الوضع اللغوي الأصلي، إذ الوضع الأصلي لكل جملة ممّا سبق هو معيار الصواب الذي ارتضاه النحويون، واللغويون، ووضعوا له المسوّغات الناظمة له، وهو ما أطلقوا عليه قواعد القياس الصرفي والنحوي، وهو وضع لغوي مجرد لا يمكن الوصول إليه إلا من فهم اللغة في سياق ما يرتضيه علم النحو الذي يقتصر على دراسة العلاقات بين العلامات.

أما الاستعمال المتجدد الذي يتجدد بمقاصد المتكلمين، فهو غير ذلك، فما دامت الرسالة قد وصلت واضحة ومفهومة، فلا مجال للحكم على الكلمة أو الجملة بالخطأ اللغوي أو النحوي، فكل الجمل السابقة أخذت بعداً تداولياً شائعاً في المجتمع بين مرسل ومرسل إليه، بل إنّ

الخروج عن هذا المتداول خروج على أعراف المجتمع اللغوية، فيما يتخاطبون به. وفي هذا كله خطورة واضحة، وموضع الخطورة أن تسود جمل وعبارات على ألسنة الناطقين، وتصبح شائعة مستساغة، وبعد زمن تصبح وكأنها هي الأصل على ما فيها من خطأ وتجاوز.

وممّا يعدّ من التداولية أيضاً الحذف، والترتيب، والتنغيم، وبعض الأساليب كالاستفهام، والتعجب، والتحذير، والإغراء، والاختصاص، وكم الخبرية والاستفهامية، وغيره.

أمّا الحذف فيعني أيّ نقص في الجملة الاسمية أو الفعلية، ولا يكون إلا لغرض في المعنى، وتبقى الجملة معه تحمل معنىً يحسن السكون عليه، ومثاله: إنْ سأل سائل قائلاً: مَنْ حضر؟ وأجيب: محمد، فإنّ كلمة (محمد) في سياقها المقامي تحمل معنىً يحسن السكوت عليه؛ أي أنه مفهوم، وقد حذف الفعل هنا لقصد الإيجاز، وهو من ثمّ أمرٌ متداول وشائع، وكثير.

وقد اهتم العرب بالحذف، لما له من دور في إغناء العربية، ولما عليه جرت عادة العرب من حذف الجملة، والمفردات، والحروف، والحركات، كما قرّر ذلك المتقدّمون، منهم ابن جني، وما أكّده سيبويه من حذفهم الكلم، واستغنائهم بالشيء عن الذي من حقّه أن يستعمل، وأنّه لكثرة الاستعمال صار مألوفاً في أساليبهم معروفاً عند عامتهم[87].

والحذف لا يكون إلا إذا كان المخاطب عالماً به، فيعتمد المتكلم على بديهة السامع في فهم المحذوف.

وإذا ذهبنا نتتبع الأثر الدلالي والتداولي، فإننا نجده كثيراً في كتاب الله تعالى، وحديث رسول الله ﷺ وما هو متداول وشائع بين الناس، ومنه:

كيف الامتحان؟ جيدٌ، وكلمة (جيد) في سياقها التداولي تحمل معنىً يحسن السكوت عليه.

---

(87) انظر: سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخـــانجي، ط3، 1988م،ج1 ص24، ص38، ص74، ص204، ج2، ص38، ص162، ج3، ص82، ص271.

- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، 1963م، ج3، ص112.
- ابن جني، الخصائص، ج2، ص360.

وكذلك عند زيارتنا لمريض، نقول له: كيف صحتك؟ أو كيف أصبحت؟ فيقول: بخير، أي أنا بخير، أو صحتي بخير، وكلمة (بخير) في سياقها تحمل معنىً يحسن السكوت عليه.

ويقول آخر: حفظت القرآن الكريم، فيقال له: نعم الحافظ والمحفوظ؛ أي نعم الحافظ أنت، ونعم المحفوظ القرآن.

فهذه الجمل وغيرها ممّا ورد له بعدٌ دلالي وتداولي، وله من الأسرار ما لا يخفى على الباحثين[88].

والترتيب في عناصر الجملة يعدّ من باب التداولية، فهو تغيير في تركيب الجملة، يعمد فيه المرسل إلى ما حقّه التأخير فيقدّمه، أو إلى ما حقّه التقديم فيؤخره كتقديم الفاعل على الفعل، أو المفعول على الفعل، أو تقديم الخبر على المبتدأ... إلخ، لإجراء تغيير في المعنى، وقد تناول القدماء هذا الأسلوب، ودرسوه بعناية، ويعدّ فنا من الفنون التي يأخذ بها أصحاب البيان في الأساليب يقول

الجرجاني: " هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية....، ثمّ تنظر فتجد سبب

أن راقك، ولطف عندك أن قدّم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان "[89]. وقال الزركشي: "...ويقع في الكلام في فصول من حيث المعنى " [90]. وهو عند سيبويه للعناية والاهتمام [91]. وقد وضع النحاة الشروط الناظمة له، وتحدثوا عمّا يجوز، وما لا يجوز، ووجوهه، وأضربه، نجد ذلك بالتفصيل في كتب النحو.

---

(88) لمزيد من التفصيل في موضوع الحذف انظر: فضل، عاطف، دراسات في الفكر اللغوي والنحوي، دار ابن الجوزي، عمان، الأردن، 2013م، الفصل السادس.

(89) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 83.

(90) الزركشي، بدر الدين بن محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط2، ج3ص233.

(91) انظر: سيبويه، الكتاب، ج1، ص34.

والتقديم والتأخير عند النحويين يتعلق بالبنية الداخلية المرتبطة بالمعنى في ذهن المتكلم، وهو الطرف الأول في العملية التداولية، فإذا ما نظرنا إلى الجمل الآتية:

احترم أبي عمي.

يكرم موسى عيسى.

ساعدت سلوى ليلى.

وهذه جمل متداولة هي وأمثالها، وهي جمل – ومن ثمَّ – تقدّم فيها الفاعل وجوباً عند النحويين؛ لعدم وجود قرينة لفظية (علامة إعرابية) تعيّن أحدهما من الآخر.

ويجعل عبد القاهر الجرجاني حصول الفائدة متوقفاً على مراعاة حال المخاطَب، وحال المخاطِب يعدّ ضابطاً مؤثراً في توجيه كلام المتكلم[92].

وتأسيساً على هذا التحليل التداولي، والفهم العميق لسياق المقام، يرى عبد القاهر الجرجاني "أنّه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم"[93]، فقولنا: الشعب يريد، غير قولنا يريد الشعب، فالشعب فاعل تقدّم على فعله للعناية والاهتمام، فأصل الجملة: فعل + فاعل / وبالتقديم أصبحت الجملة فاعلاً مقدّماً لغرض العناية والاهتمام + فعلا، ولا شيء فيها من الاسمية (م + خ).

والذي يبدو لي أن عبارة العناية والاهتمام التي جاءت على لسان القدماء تتسم بالعمومية، والأولى أن نقول: بأن التقديم والتأخير حصل لأسباب تداولية، إذ يركز المرسل على

– – ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1985م، ج2، ص22.

– ابن جني، الخصائص، ج2، ص382.

الفراء، أبو زكريا، يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل،عالم الكتب، ط2، 1920، ج2ص161، 191، 410.

(92) المصدر السابق، ص152.

تقديم الجزء المجهول من الكلام عند المرسل إليه. فإذا كان يعرف الفاعل ويجهل الفعل يقدم الفعل، وقد يحذف الفاعل؛ لأنه معلوم. وهنا يكمن الفرق بين التحليل التداولي والتحليل النحوي أو البلاغي القديم.

وتظهر التداولية في أسلوب الاختصاص الذي هو اسم ظاهر يأتي بعد ضمير المتكلم أو المخاطب، لبيان المراد منه، كقولهم في المثال المتداول الشائع: نحن العرب نكرم الضيف، هكذا دون ضبط لكلمة العرب، فلو نُطقت بـــ "العربَ أو العربُ" فإنّ المقصود منها هو الاختصاص في العرف اللغوي المتداول والشائع. وأزعم أن لا أحد يمكن أن يقول: نحن بنو الدنيا نتهافت عليها، ونحن محامو الدفاع، ونحن مبعوثو الجامعة إلى المؤتمر، فكل من ينطق بهذه الجمل سواء أراد الاختصاص أم لم يرد فهو يريد بها الاختصاص، ويقول: نحن محامي الدفاع؛ ونحن مبعوثي الجامعة، وهكذا، فهي جمل ملفوظة في مقام خطابي، وأنّ هذا الملفوظ يستلزم استعمالاً لغوياً خاصاً؛ أي قد تواضع عليه مستعملو اللغة، وأن هذا الاستعمال يؤدي دلالة معيّنة وفق سياق مقامي معيّن، وعليه يكون:

مرسل + ملفوظ (سقطت حركته الإعرابية) + مقام خطابي أو سياق مقامي + مرسل إليه مؤثَّر عليه ← معنًى

وفي النداء نجد جملة أو عبارة تقال أو تكتب على و في المؤسسات، هذه الجملة هي: "عاش أبا الحسين"، أصبحت هذه الجملة بصورتها تمثل بعداً تداولياً بين الناس، فعلى أية صورة إعرابية كانت رفعاً أو نصباً أو جراً تستعمل أبا الحسين. وفي كل ذلك، فإنّ معناها واضح ومعبّر لعالم اللغة وغيره، وأما النداء الشبيه بالمضاف، أو النكرة بقسميها فالمتداول منها على صورة واحدة هي: أداة نداء + منادى (شبيه بالمضاف أو نكرة مقصودة أو غير مقصودة) يأخذ حركة إعرابية مختلفة، ضمة أو فتحة أو سكون لا قيمة لها عند المتحدث + جملة الجواب، بل في حال جمع المذكر السالم، والمثنى، وجمع المؤنث السالم، يُقال: يا مزارعين، ويا طالبيْن، ويا مهندسات، وفي هذا كلّه تكون المعلومة أو المفهومة قد وصلت إلى السامع، وتمت عملية المحادثة أو التواصل.

وتتجلى التداولية في التحذير والإغراء كذلك، فالتحذير هو تنبيه المخاطب، وتخويفه من أمر مكروه أو قبيح ليجتنبه، والإغراء هو ترغيب المخاطب أو حثّه على أمر محمود ليفعله، فقول أحدهم لولده: الصلاةَ الصلاةَ، أو السيارةَ السيارةَ، وغيرها من التراكيب التي يقصد بها المتكلم تحذيراً أو إغراءً، دون أن يسمّي ذلك، لكن العُرف والاستعمال التداولي يجعله ينطق بهذه التراكيب، والسامع يفهم بُعدها الدلالي، فلا يعقل أن يحذر الوالد ولده من الصلاة أو الدراسة، أو يرغبه بالسيارة في موقف مقامي لا يدل على الترغيب، بل التحذير من سيارة قادمة مسرعة، ومن ثمَّ عليه أن لا يقطع الشارع.

ويظهر البعد التداولي في هذا الأسلوب في الأدوات اللسانية التي يلجأ إليها المرسل. فبالإضافة إلى حذف الفعل، وترك المفعول به، وإلى تكرار لفظ المفعول به، فإن هناك تنغيما خاصّاً يصاحب نطق الكلمتين، وهو الذي يفيد معنى التحذير أو الإغراء. وهو أمر لا نجده إلا في المستوى المنطوق من الخطاب.

وكذلك الحديث عن (كم) بقسميها: الاستفهامية والخبرية، فقد وضع النحاة لكل منهما شروطاً خاصة، أظهرها أن كم الاستفهامية يأتي الاسم بعدها منصوباً، نحو: كم كتاباً قرأت؟ والخبرية يكون الاسم بعدها مجروراً، نحو: كم كتابٍ قرأت؟ لكن المتكلم أو المتداول فيهما حذف الحركة الإعرابية، ومع هذا فإن المعنى مفهوم عند طرفي العملية التواصلية، لكن الأغلب أنّ كم الاستفهامية هي النمط الشائع في العرف الاستعمالي التداولي. والمحاورة تمت بنجاح تام، وبذلك تحقق التواصل.

والذي يبدو لي أنْ لا دور للحركة الإعرابية في الدرس التداولي، تلك الحركة التي بها يتم التفريق بين المعاني، قال ابن فارس: "من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميّز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا نعت من تأكيد"[94].

(94) ابن فارس، الصاحبي، ص76.

وقال أيضاً: "فإنّ الإعراب هو الفارق بين المعاني ألا ترى أنّ القائل إذا قال: "ما أحسن زيداً لم يفرق بين التعجب والاستفهام والذم إلا بالإعراب"[95].

ففي الإعراب تميّز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلمين، فلو قال قائل: "ما أحسن زيد" غير معرب، و "ضرب زيد عمر" غير معرب لم يوقف على مراده عند النحويين، لكنه يكون مفهوماً وواضح المعنى في المنظور التداولي. فالشائع أن الأول ضارب، والثاني مضروب، فزيد ضارب وعمرو مضروب، وكذلك قولهم: ما أحسن زيد، يقصد بها التعجب، كقولهم: ما شاء الله، فعدم ظهور الحركة الإعرابية ليس دليلاً على خطأ المتكلم أو المرسل، إنما هو مقصود ما دام المستقبل قد فهم المراد أو الرسالة.

فالإعراب، إذاً، هو الذي يكشف عن المعاني أو يفرّق بينها على حدّ تعبير عبد القاهر

الجرجاني[96]، ولكنه في المتداول لا يحمل هذه الأهمية في المنطوق الشائع؛ لأنّ السياق المقامي يعدّ مفهوماً تداولياً راسخاً، ومعياراً محكماً من معايير الحكم على العبارة بالمقبولية، فالعبارة غير المكتملة نحوياً من جهة التركيب، لكنها منسجمة مع المقام؛ وتكون مقبولة تداولياً.وأمّا التنغيم فهو: مصطلح يدل على ارتفاع الصوت، وانخفاضه أثناء الكلام، وهذا الارتفاع والانخفاض لا يكون إلا لمعنى[97]، ويكون مجاله في الجمل المنطوقة، ولا أثر له في كتب النحو العربي على مستوى التنظير؛ لأنّ النحاة العرب اعتمدوا اللغة المكتوبة عند التقعيد، ولم يعتمدوا النطق.

وتطبيقاً لما جاء في الدراسات اللغوية المعاصرة، وبخاصة في الغرب، فإن للتنغيم وظيفة نحوية ودلالية مهمّة، ولا يكون – كما أسلفت – إلا لمعنى، ومن ثمَّ يعدّ العنصر الرئيس في

---

(95) المصدر السابق، ص55. وانظر: ابن جني، الخصائص، ج1ص35.

(96) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 75.

(97)تمام حسّان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، بيروت، ط2، سنة 1974، ص164.

التمييز بين الجمل، فالجملة "حضر خالد" جملة تقريرية خبرية إذا نطقت بتنغيم مستوٍ، ولكنها جملة استفهامية إذا نطقت بتنغيم صاعد.

و في هذا الفصل سنركز على دراسة بعض الملامح التداولية في الخطاب البلاغي و النقدي العربي في التراث العربي الإسلامي؛ وذلك بحكم طبيعة هذا البحث و أيضا نظرا لاتساع و تشعب و تنوع الخطابات في التراث العربي الإسلامي.

المبحث الأول :

ملامح التداولية في الخطاب البلاغي و الخطاب النقدي

إن الحديث عن موضوع ملامح التداولية في التراث العربي الإسلامي يشمل ما يرتبط بالتواصل اللغوي من الاهتمام بالسامع واعتبار المخاطب، وبيان دور المتكلم في صياغة الخطاب و إنتاجه، والإلمام بكل العناصر الفاعلة في الإبلاغ، ومعيار الصدق و الكذب في الأساليب وفي الشعر، والمطابقة مع الواقع و عدمه، ذلك أن دراسة اللغة في التراث العربي، ميزتها بعض السمات التي هي من أهم المبادئ التداولية الحديثة، فقد تناول الدارسون القدماء مثلاً:[98]

- أن التكلم يتم لغايات أو لإشباع حاجات، أو الحصول على فائدة.
- تستعمل اللغة للأغراض والمآرب ذاتها.
- يضفي المتحاورون على الملفوظات دلالات أخرى غير ظاهرة.
- لم تغفل البلاغة ذلك، بل إنها اعتمدت مبدأ:" لكل مقام مقال".

وقد تعددت أشكال الاهتمام بدراسة الخطاب والإقناع. فتناولوا نص الخطاب في ذاته ودرسوا ما يرتبط بالمخاطب وطريقة أدائه، والمخاطب وطريقة تلقيه، ومطابقة الخطاب لمقتضى الظاهر و مخالفته إلى غير ذلك من المسائل التي يمكن أن يجمعها موضوع التداولية. والتي يمكن أن تمثل مبادئ للتفكير التداولي اللغوي عند العرب. و من أهم مصادر التفكير التداولي اللغوي عند العرب، علم البلاغة، علم النحو، والنقد، والخطابة إضافة إلى ما قدمه علماء الأصول الذين يمثلون- إلى جانب البلاغيين- اتجاها فريدا في التراث العربي، يربط بين الخصائص الصورية للموضوع وخصائصه التداولية[99].

ويذكر (أحمد المنوكل)[100] أهم المبادئ المنهجية في الفكر اللغوي العربي القديم

(98) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية، ص114.

(99) أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، ص35.

(100) م.نفسه، ص84.

وأهمها أن اللغة وسيلة تواصل للتعبير عن الأغراض، وكذلك عرفها ابن جني حين قال:"أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[101]. وهذا التعريف غني بالقيم التداولية، وأهمها أن اللغة ذات قيمة نفعية، تعبيرية.

ربط البلاغيون والأصوليون بين البنية والوظيفة في دراسة اللغة ودرسوا وظائف: التخصيص، التقييد، التوكيد...وميّزوا بين بنية جملة (في دار الرجل) وبنية (رجل في الدار) تمييزا وظيفيا [102]

يمكن استخلاص أن القدرة اللغوية لدى علماء العربية تحكمها ثلاث معارف:

- **معرفة لسانية** (تقتضي معرفة الدلالات والمعاني)
- **معرفة لغوية** تقتضي امتلاك المتكلم لقواعد لغته
- **معرفة خطابية** تقتضي أن يملك قواعد إنتاج الخطاب، وكل منها تقتضي الأخرى.

إذن فملامح التداولية تبدو واضحة في الدرس العربي القديم، و ندرس فيما يأتي من الصفحات، ملامحها في البلاغة العربية والنقد العربي.

من أهم العلوم المكتملة في الدرس العربي القديم. البلاغة، إذ تمثل علما للاتصال، يتناول كل ما يرتبط باستعمال اللغة وممارستها، من دون أن تستثني في ذلك شيْاً مما له علاقة بالتواصل. وتعد البلاغة أحسن ما يتناول إبراز العلاقات التداولية في اللغة، لأنها تهتم بدراسة التعبير على مختلف مستوياته: اللفظية والتركيبية و الدلالية، والعلاقات القائمة بينهما.

يذكر الدكتور (محمد العمري)[103] أن النظر في مجمل الإنجاز البلاغي العربي في ضوء الأسئلة البلاغية الحديثة يجعلنا نقتنع بأن هذا التراث مازال محاوراً يثير الدهشة، من جانبين: من حيث الشمول والعمق.

---

(101) ابن جني، الخصائص، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية سيدنا الحسين، 1418هـ ، ج1، ص44.

(102) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية، ص116

1- الشمول:

امتد مجال البلاغة العربية مغطياً البعدين الكبيرين للمجال البلاغي في معناه القديم والحديث على حد سواء: الغرابة والمناسبة. وبرغم تلازم هذين المكونين في الخطاب الأدبي فيمكن رصد مواطن هيمنة كل منهما.

1-1/ ارتبط سؤال الغرابة والانزياح والبديع في مبدأ الأمر، بنقد الشعر واختياره، ثم طرح في سياق وضع النحو بالنظر في توسع اللغة، يترجمه المجاز والضرورة، ثم عولج بعد ذلك، معالجة خاصة في إطار التنزيه من خلال تأويل المشكل، وذلك كله قبل محاولة البحث في صياغة تجمع أطرافه، تكشف نسقه، وتبرر آلياته، من خلال تأويل المحاكاة الأرسطية إلى" تخييل" و"تغيير" وتوظيفها في قراءة الشعر العربي .

1- 2 / ارتبط سؤال المناسبة المقامية التداولية في أجلى صوره. بالبحث عن فعالية علمية إقناعية خطابية من جهة (عند الجاحظ مثلاً)، كما ارتبط، من جهة أخرى، بملائمة العبارة للمقاصد ضمن نظرية النظم الإعجازية (أو ما يمكن أن ندعوه تداولية لسانية في مقام التداولية المنطقية الإقناعية النصية). و ارتبط من جهة ثالثة بالبحث عن بلاغة كلاسيكية ذوقية تقوم على الصحة والمناسبة (عند ابن سنان مثلاً).

لقد تنبه حازم القرطاجني إلى هذا التنوع والغنى فحاول أن يدمج المداخل المختلفة في بلاغة شعرية كلية يتداخل فيها المحاكي والمقنع. فامتد التخييل عنده ليحتوي المعرفة والاستدلال، و عن طريق التخييل خرج من دائرة الصدق والكذب التي شوشت مواقف كثير من البلاغيين

2-العُمق:

يذكر (العمري) أن عبد القاهر الجرجاني رغم ارتكازه على المعنى و إقصاء الأصوات في دراسته البلاغية، إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل كشوفاته الرائعة و تحليلاته العميقة و

---

(103) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص29ومابعدها.

تفسيراته الوجيهة التي يقرؤها الخبير اليوم دون الإحساس بأية مسافة زمنية بينه وبين المؤلف، نسجل منها:[104]

2-1/ بناء الشعر على المفارقة الدلالية. هذه المفارقات التي تصل قمتها حين تعتمد التخييل والبناء على الصورة التشبيهية والمجازية، بناء يخرج من الجملة إلى النص.

2-2/ إدخال عنصر النظم باعتباره مرافقاً للمزية الإنزياحية و مكملاً لسانيًا للبناء الدلالي مدمجاً في البناء التركيبي.

2-3/ تأويل قضية السرقة تأويلاً شعرياً يتصل بالتخييل يعتبر خروجاً من المنزلق الذي وقع فيه نقاد الخصومات بين الفحول . إنه تدخل بلاغي لحسم قضية نقدية مشبوهة . وإدخالها في المفهوم الحديث للتناص.

2-4/ الإلحاح على البعد الدلالي للموازنات الصوتية، يعد عملاً طليعياً بقطع النظر عن الموقف المذهبي الذي قاد إليه.

2-5/ تأويل الضرورات الشعرية و ربطها بالمقاصد، وإظهار مزاياها الخطابية خروجاً من الجدول العقيم حول شعريتها وعدمها، أو الموقف المعادي غير الممحص الذي تداوله نقاد الشعر.

2-6/ ومن المنجزات المهمة التي لم تلق عناية قضية البناء على الصور البلاغية الذي عمقه الجرجاني وفصله من خلال تناسي التشبيه والمجاز، والبناء عليها في الأسرار[105]، والبناء على الجمل في الدلائل[106]. فلو درست هذه القضية بعمق لتبين لنا أن البلاغة العربية لم تكن كما هو شائع، بلاغة جملة، على الإطلاق، بعضها على بعض، و يفهم النص بعضه من بعض.

---

(104) م. نفسه، ص31.

(105) يقصد كتاب دلائل الاعجاز للجرجاني.

(106) يقصد كتاب اسرار البلاغة للجرجاني.

يتكلم (العمري) عن تصور أبو هلال العسكري للبلاغة في كتابه(الصناعتين)، فميز مجموعة من ملامح التداولية، يذكر منها[107].

لقد انكب البلاغيين العرب على دراسة اللغة لا من ناحية المقاييس المفيدة، بل اتجهوا للبحث عن أسرار الإعجاز في الخطاب القرآني والخطابات، فتأسس عندهم مصطلح مقتضى الحال.

يقول الجاحظ في تأسيسه لعلم البيان"بعض البلغاء وصف اللسان فقال: اللسان أداة يظهر بها حسن البيان، و ظاهر يخبر به عن الضمير، وشاهد ينبئك عن غائب، وحاكم يفصل به الخطاب، وناطق يَرُد به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الحقائق، و معزّ ينفى به الحزن، ومؤنس تذهب به الوحشة، وواعظ ينهى عن القبيح، ومزين يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودَّة،وحاصد يستأصل الضغينة وملهم يوفق الأسماع "[108] ويقول أيضاً:"والمعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم و المختلّجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة فكَرهم، مستورةً خفية وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه لا معنى شريكة والمعاون له على أموره .... وإنما يحيى تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، و تجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرًا، والغائب شاهدًا والبعيد قريبًا.

وكلما كانت الدلالة أوضح وأفحص وكانت الإشارة أبين و أنور. كان أنفع و أنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه و يدعو إليه و بحث عليه"[109].

---

(107)محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص292

(108) الجاحظ، البيان و التبيين،تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة،مصر،ط7، 1998،ج1، ص75، ومابعدها.

(109) م. نفسه، ص75.

فالبيان عند الجاحظ هو "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغتَ الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الوضع"[110]

وهكذا يقلب الجاحظ مفهوم اللسان على وجوه مختلفة ليصل في الأخير إلى مفهوم عام وشامل، فهو يبدأ من المفهوم العام المرتبط بالبيان و حسنه ليتدرج بعد ذلك إلى الخاص.حين يتمثل الإجراءات والأدوات التي تحقق حسن البيان، ويمكن التمثيل لهذا

بالخطاطة التالية: [111]

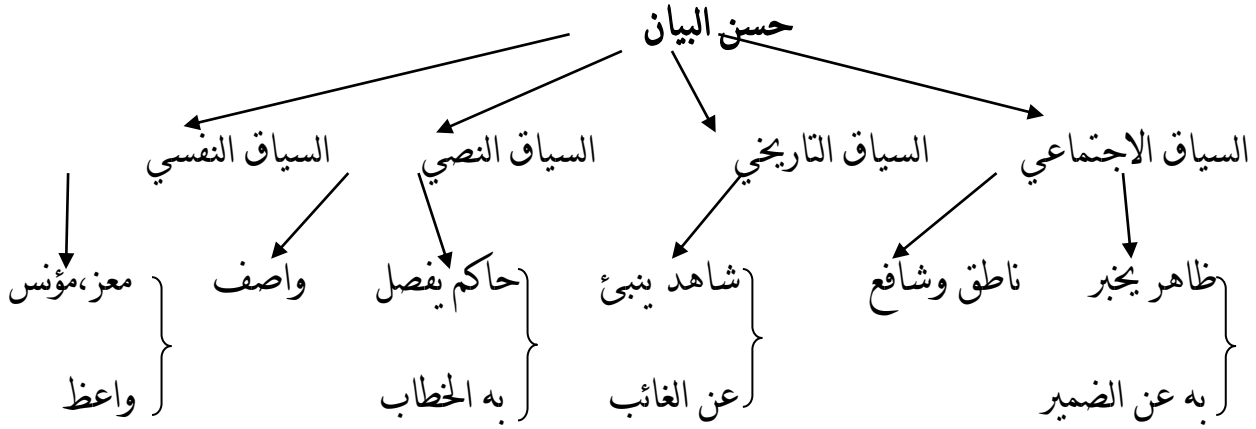

فعناصر البيان عند الجاحظ تمثل كما يلي :

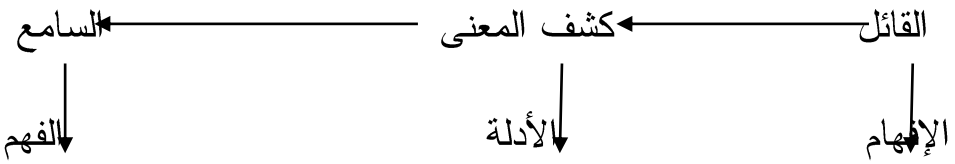

(110)م. نفسه، ص75.

(111) صلاح الدين زرال، إرهاصات التداولية في التراث اللغوي العربي، مجلة الأثر، العدد الخاص بأشغال الملتقى الدولي الرابع في تحليل الخطاب، جامعة ورقلة، ص70.

فعملية الإفهام – عند الجاحظ – التي يمارسها القائل هدفها تحقيق الفهم لدى السامع. بواسطة الأدلة التي تكشف المعنى. ولا يكون كشف المعنى إلا من خلال ثبات الدلالة لدى القائل والسامع. أي بتعبير آخر ترتكز الدلالة التي تحصل للمتلقي على سياق معين يمثل بدوره الدلالة الأولى للكلام. كما لا يكون الكلام محدداً إلا في سياق معين. وهو ما عبَّر عنه الجاحظ بعدم الدلالة على شيء بعينه. وهذه المقولة تحول ارتباطات الدلالة من المتكلم إلى الخطاب نفسه الذي يطوّع وفق احتياجات القارئ، وهذا ما تدعو له الاتجاهات اللسانية الحديثة.

يقول الجاحظ في هذا السياق "ومتى سمعت – حفظك الله – بنادرة من كلام

الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها. فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخرج المولدين و البلديين خرجت من تلك الحكاية و عليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام و مُلحة من مُلح الحشوة والطغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سوياً، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها و يخرجها من صورتها، ومن الذي أُريدت له ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها"(112)

فالجاحظ بهذا يولي عناية تامة للخطاب في حد ذاته، متجاهلاً بذلك كل معايير الفصاحة أو السلامة النحوية، بل المقدم في رأيه هو المحافظة على الصورة البكر للخطاب كما أنتجها المنتج الأصلي لها. ويبرر ذلك بأن التغيير هنا يذهب المتعة والملاحة عن الخطاب.

إذن فالجاحظ قد أعطى السلطة للخطاب. كما أنه أدخل المتلقي في فهم هذا الخطاب والدليل على ذلك أنه ركز كثيراً على ينحو المتكلم منحى السامع. ويعلق الباحث (حلمي خليل) قائلاً في هذا الشأن"على أن أهم ما يلفت النظر أن الجاحظ يتعامل مع الحدث الكلامي على أنه رسالة تُبلّغ إلى مخاطب، وهو ينطلق في ذلك من مفهوم الخطاب القرآني الذي يمثل النموذج المثالي لأنواع الخطاب عند العرب...ثم يتدرج من هذا المثال إلى ألوان الخطاب الأخرى بما لها من

(112) الجاحظ، البيان و التبيين، ص96.

صلة بفنون القول في العربية، أو الطبقات الاجتماعية وكلامها، مما أدى به الغوص في قضايا الاتصال وشروطه، وكذا الأداء وطرقه المختلفة من لفظ و إشارة وغير ذلك، وقد ساعد الجاحظ في كل هذا ثقافته الموسوعية، وانغماسه في البيئة البصرية التي قدمت له نماذج متنوعة من اللغة العربية المنطوقة، وكذا بعض اللغات الأخرى، مما هيأ له مجالاً واسعاً للملاحظة والاستقراء،

ورصد القوانين التي تحكم مثل هذه الاستعمالات اللغوية"[113]

وإذا انتقلنا إلى القرن الرابع الهجري، حيث تبلورت كل الثقافات والمعارف الأجنبية في الثقافة العربية الإسلامية. وخاصة الفلسفة اليونانية، نلاحظ ظهور منحى فلسفي في الخطاب النقدي والبلاغي، ويعدُّ قدامة بن جعفر (ت377ه) من أوائل ممثليه، وقد أظهر هذا التوجه في كتابه (نقد الشعر). حيث قسم فيه الشعر إلى أربعة أبواب وهي المدح والهجاء والحكمة واللهو، وتعرض خلال ذلك بالشرح لعدة آليات بلاغية منها:التشبيه والكناية والاستعارة وغيرها.

يعرف قدامة الكناية، تحت عنوان الإرداف على أنها"أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى وهو ردفه وتابع له"[114] ويستشهد على ذلك من الشعر الجاهلي بقول

امرؤ القيس.

و يُسخِي فَتِيتُ المِسك فوق فراشها نَؤُومَ الضُّحى لم تَنْتَطِق عن تَفَضُّلِ

فالشاعر استعمل عبارة "نَؤوم الضحى" ليعبِّر بها عن حياة البذخ والترف التي كانت تعيشها هذه المرأة، سعياً منه أن يستطيع المتلقي استعمال عمليات ذهنية يصل من خلالها إلى فهم مراده، والمتمثل في كون هذه المرأة لا تنتطق لتخدم، ولكنها في بيتها متفضلة، وأن فتيت

(113) حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص155.

(114) قدامة ابن جعفر، نقد الشعر،تحقيق عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص107

المسك يبقى إلى الضحى فوق فراشها، إلى أن يصل المتلقي إلى المقصدية التي بني من أجلها الكلام (البيت الشعري) وهي حياة البذخ والترف. ويمكن تبسيط و تمثيل هذه العملية الاستدلالية الذهنية التي تعتري فكر المُخَاطَب وهو في مقام فك شفرات الكناية

على الشكل التالي[115]:

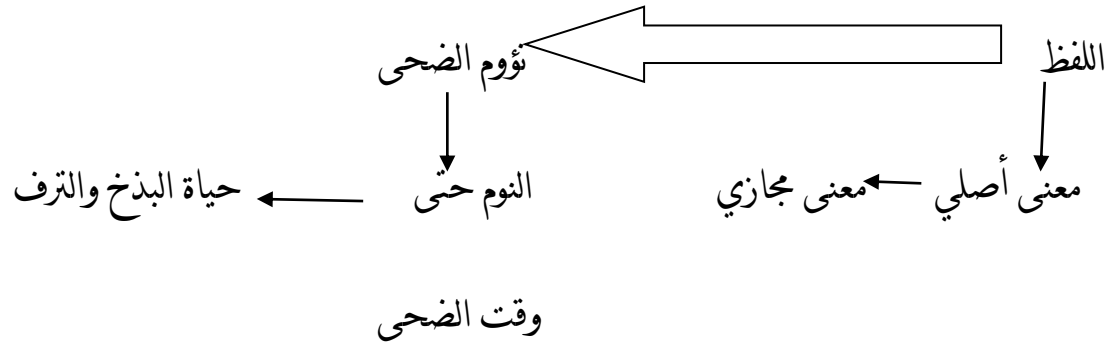

وتظهر ملامح التداولية في طرح قدامة ابن جعفر هذا ، من خلال دفع المتلقي إلى البحث عن المعنى المضمر وراء الخطاب المجازي (الكتابة) ومن هنا يساهم هذا التفاعل من طرف المتلقي مع الخطاب في إضفاء القيمة الابلاغية التأثيرية للكناية.

كما أن الكناية عند قدامة بوصفها استعمال لفظ آخر لا يدل على المعنى المراد يمكن أن تتماثل مع مفهوم الفعل الكلامي غير المباشر عند (سيرل) والذي يكون مناسبا للاستعمال في بعض المواقف على حساب الفعل الكلامي المباشر بسبب دوافع معينة.

قدامة ابن جعفر يقسم الشعر حسب أغراضه أو موضوعاته المعروفة، وهي المديح و الهجاء و المراثي و الشيب والوصف و التشبيه، ويمكن أن نستنبط صبغات تداولية مهمة من هذا التخريج ، يمكن أن نضعها في[116]:

أ- يمكن اعتبار أن أغراض الشعر التي حصرها قدامة تنتمي إلى التعبيريات، وهي من بين أصناف الأفعال الكلامية وفق تصور سيرل ، ويتمثل غرضها الانجازي في التعبير عن

(115) احمد واضح، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي، رسالة دكتوراة، جامعة وهران، غير مطبوعة،2012، ص185.

(116) م.نفسه ص186

الموقف النفسي تعبيرا يتوافر فيه شرط الإخلاص ... ويدخل فيها الشكر والتهنئة و الاعتذار و المواساة، فشرط الإخلاص و الصدق في المشاعر والتعبير عنها بصيغ وعبارات تطابقه ما في النفس من اختلاجات و أحاسيس هو الجوهر الذي أقام عليه الشعر العربي دعائمه الأصلية.

ب– إن هذا التصنيف الذي ارتضاه قدامة وهو يتعامل مع أغراضه، قائم على الاعتماد على أغراضه الانجازية، بحكم أنه أقام تصنيفه للأغراض الشعرية على أسس تداولية بالدرجة الأولى وهي الأغراض (المقاصد) والمعاني التي يؤول إليها الشعر.

في كتابه (نقد النثر) يتبنى قدامة منهج الجاحظ في تطبيق قاعدة (لكل مقام مقال) فالمقام عند قدامة بلعب الدور المركزي في توجيه شكل الخطاب و خصوصياته ،حيث يراعي البليغ موضوع الكلام من جهة، والمتلقي و الغايات و المقاصد التي يريدها من جهة أخرى، ويظهر من خلال طروحات قدامة في مسألة المقام أن هناك أبعادا تداولية، يمكن حصرها في جانبين[117]:

الجانب الأول: يلتقي الدرس البلاغي العرب بالدرس التداولي في اعتمادهما على مسائل خارجة عن النسق الداخلي، أي أطراف العملية التواصلية، و أفضل دليل على ذلك هو أن محلل الخطاب التداولي و هو يتعامل مع الخطابات لرصد معانيها، إنما يتجه في البدء إلى فحص بعض العناصر الخاصة بالموقف التواصلي، على أساس أن موقف التواصل بالنسبة للزاوية التداولية يتكون من مجموعة معقدة و متداخلة تتركب من عدة عناصر، من بينها مجموعة الظروف المادية و الاقتصادية و الاجتماعية والسياسية التي تحدد عملية إنتاج و استقبال الرسالة اللغوية .

الجانب الثاني: يمكن أن نلتمس من كلام قدامة المتعلق بالمقام والمقال و بالضبط في توصياته المتعلقة بالتحكم السليم بمواضع الإيجاز و الإطناب، وكذا مراعاة السامعين المتلقين و

(117) م .نفسه ص 189

مستوياتهم و نفسياتهم، أن الأخير يشير إلى مفهوم الكفاءة التداولية، و إن لم يشر إلى المصطلح و لكنه ارتقى بفكره أن يلامس جوهر هذا المفهوم إذ يتجه المتكلم ذو الكفاءة التداولية إلى انتقاء إستراتيجية مناسبة للمقام .

و إذا انتقلنا خلال القرن الرابع الهجري نجد أبو هلال العسكري (ت 395ه) يقدم إسهامات بلاغية متميزة وغنية بالآليات التداولية، فهو يعرف الاستعارة بأنها " نقل العبارة من موضوع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض"[118] فسبب الانحراف والعدول في توظيف المكونات اللغوية – عند العسكري – هو مقصدية المتكلم البليغ التي يعبر عنها ب"الغرض" فالاستعارة إذن آلية تداولية يوظفها المتكلم لتحقيق مجموعة من المقاصد التي يتوخاها، وهذه المقاصد يمكن أن تكون " شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بقليل من اللفظ"[119] ويقول العسكري أيضا في سياق حديثه عن الاستعارة أن " فضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل فيه الحقيقة"[120]

من هذه الأقوال للعسكري تتضح بعض الآليات التداولية يمكن إجمالها فيما يلي:

1- أن الاستعارة تعتمد في تحقيق مقاصد المتكلم على مبدأ الكمية فدلالة اللفظ القليل تختلف عن دلالة اللفظ الكثير.

2- أن الاستعارة تعد تمثيلا دقيقا لمصطلح الفعل غير المباشر في التداوليات الحديثة .

3- ينجلي البعد التأثيري الاقناعي بوضوح في وظيفة الاستعارة عند العسكري، هذا البعد الذي يرتكز على الطبيعة الحجاجية الموجهة للمتلقي بصفته طرف أساسي في العملية الخطابية.

---

(118) أبو هلال العسكري ، الصناعتين تحقيق على محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ط1 ،2006 ص 2004

(119) م.نفسه .ص 240

(120) م نفسه ص 240

4- إذن فهذه المقاربة التي يقترحها العسكري للاستعارة و الكناية و المجاز بصفة عامة . تستحضر تنظيرات (سورل) المتعلقة بالفعل الكلامي غير المباشر، فالقول الحقيقي ينبثق من التطابق بين معنى الجملة والمعنى الذي يقصده المتكلم، أما الاستعارة – في بعدها التداولي– فهي التي تجبر المستمع (المتلقي) على الانتقال من المعنى
الحقيقي إلى المعنى الذي يقصده المتكلم [121].

وينظر العسكري لمفهوم المقام في العملية التواصلية ، فيقول "فان البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل و الوصل كانت كالآتي بلا نظام ....قال الأحنف بن قيس : "ما رأيت رجلا تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ، و لا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص رضي الله عنه كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام، و أعطى حق المقام "[122] ويقول أيضا "والقول القصد أن الإيجاز و الإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام، وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال تدبير ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ"[123] فالعسكري ينصح المتكلم بالإيجاز والإطناب وفق ضوابط فيقول"عليكم بالإيجاز فان له إفهاما ، والإطالة استبهاما"[124] ويوضح أن الإيجاز يجب أن لا يؤدي إلى " قصور البلاغة على الحقيقة"[125] وأن الإطناب هو " ما
تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر و الخطل"[126]

---

(121)الجيلالي دلاش ، مدخل الى اللسانيات التداولية ص 29

(122)أبو الهلال العسكري ، الصناعتين ،ص 406

(123)م.نفسه ص 17

(124) أبو هلال العسكري الصناعتين ص 157

(125) م.نفسه ص157

(126) م.نفسه ص157

وهذا الانحراف من الايجابية إلى السلبية في المقام التخاطبي، بجعل كل من الإيجاز و الإطناب "من أعظم أدواء الكلام، فيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة "[127].

يظهر التقاطع بين هذا الذي يدعو اليه العسكري و يبين التداولية فيما يلي[128]:

1. اعتمادهما المشترك على مفهوم السلطة التي تتمثل في عدم توازن القوى نتيجة لعدة مصادر، من بينها الوضع الاجتماعي الذي يميز الفرد قياسا على الآخرين ، ويتمثل المجهود الشخصي ها هنا في إتيان المتكلم كلاما يراعي فيه هذه الفروق الاجتماعية الهرمية، بشكل يظهر فيه كفاءته التداولية، وهو ما لمسناه في كلام العسكري المتعلق بمواقع الإطناب.
2. أن للإطناب مواقع معينة و هذه الأخيرة مشدودة بقيم وظيفية تداولية منها الإقناع ، وبذا فان للإطناب أبعاد ايجابية ذات طابع تداولي حجاجي بالدرجة الأولى ، وهو ما يدفعنا إلى مد جسور معرفية متوازية بين هذا الطرح المبني على إظهار تقنيات الإقناع و النظرية الحجاجية التي سعت من خلال طروحاتها إلى تبيان الآليات و التقنيات التداولية التي من شأنها حمل مقومات الاستراتيجيات الحجاجية المفضية إلى الإقناع في أغلب الأحيان .

أما بالنسبة لكتابه "الفروق اللغوية " نجد مفهوم الأفعال الكلامية مطروحا بقوة متمثلا في تفريقه بين معاني الكلمات بحسب درجة الشدة فيها أي بحسب القوة الانجازية المتوافرة فيها فذكر مثلا أن الجور أقوى من الظلم لأن " الظلم نقصان الحق و الجور العدول عن الحق "[129] كما ذكر أن السب أقوى من الشتم لأن " السب هو الإطناب في الشتم و الإطالة فيه "[130]، وفي هذا دلالة واضحة على اعتماده مبادئ ومقاييس تداولية بامتياز في عملية تفريقه بين الألفاظ ، فالثنائيات(الجور /الظلم) و (السب/ الشتم) متقاربة من حيث الدلالة ، إلا أن القوة الانجازية

(127) م.نفسه ص157

(128) أحمد واضح ، الخطاب التداولي في التراث البلاغي العربي ص 207

(129) أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، تعليق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2000 ، ص259

(130) م.نفسه .ص 64

كفيلة بالتفريق الدلالي بينها ، وهو ما تنبه إليه العسكري ووظفه في توضيح الفروقات بين مثل هذه الثنائيات .

أما إذا انتقلنا إلى (حازم القرطاجني) فإننا نجده لا يعتبر الكلام الذي لا يدل على معنى كلاماً، وهو هنا يشير إلى فكرة القصد، إذ أنه يجعل الفائدة المتداولة بالقصد، يقول "حازم القرطاجني": "لما كان الكلام أولى الأشياء، بأن يجعل دليلاً على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها..."[131]. فالكلام الذي يكون دليلاً على المعنى، يشكل أساس الدراسات اللسانية الحديثة، والتفاهم الذي قصده حازم هنا هو تحقيق التواصل، وهذا يدخل في نطاق التداولية التواصلية، أي كلام مرسل يحمل قصداً ومعنى وفائدة، يريد المتكلم إيصالها إلى المتلقي.

فحازم هنا يركز على المنفعة، والخطاب الذي لا يحقق منفعة، فإنه لا يحقق أي تواصل انطلاقاً من قولـــه: "... المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها أي احتياجهم إلى تحصيل المنفعة". فحازم هنا يتفطن للبعد البراغماتي أو التداولي في العملية التواصلية، إن هذا التصور النقدي للتواصل الشعري متطور جداً، ويعكس عمقاً في النظرة ووعياً بعناصر التجربة الشعرية باعتبارها تجربة لغوية نفسية يكتنفها إطار اجتماعي ومقام خارجي تؤثر فيه وتتأثر به..."[132]. إضافة إلى القصد والمنفعة والإفهام، يشير حازم إلى قضية التأثير بين المتكلم والمتلقي، ويرى أنه ضروري في العملية التواصلية لقوله: "وجب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب أو الاستفادة منه أو بعضها بالقول"[133].

ويقسم حازم القرطاجني ردود الفعل التي يثيرها المتكلم في المخاطب إلى: عملية، وسلوكية، ووجدانية.

---

(131)محمد أديوان، نظرية المقاصد بين حازم ونظرية الأفعال اللغوية المعاصرة، مجلة الوصل، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة تلمسان، العدد الأول، جانفي 1994، جامعة الرباط، كلية الآداب، ص25.

(132) المرجع نفسه، ص26.

(133) المرجع نفسه، ص26.

يقرر حازم أن العلوم اللغوية ترتكز على مجموعة من القواعد المعيارية المرتبطة أساسًا بمفهومي الخطأ والصواب، دون أن تتجاوز هذين المفهومين إلى المفهومات المتعلقة بقضية القيمة الجمالية التي تميز اللغة الأدبية، في حين فإن البلاغة تنشغل أساسًا بقضية القيمة في النصوص الإبداعية، منطلقة في ذلك من الاستعمال الخاص للغة لتجعل منه موضوع درسها، باعتبار أن هذا الاستعمال، بحكم مقاصد منجزه والظروف العامة التي يتنزل فيها، ليس فعلاً عاديًا، ولكنه طريقة مخصوصة في التعبير، يروم المتكلم من خلالها تجاوز الإبلاغ إلى التأثير.

على هذا الأساس يميز حازم بين البلاغة بوصفها علمًا لسانيًا كليًا، يهتم بجانب القيمة التي يتوصل بها إلى معرفة الأحوال التي تتقوم بها صناعة الشعر على مستوى إبداعه وتلقيه، وعلوم اللغة التي تقوم على الرواية، وتهتم بجانب الصحة اللغوية بمعناه الضيق، ولذلك جعل حازم علوم اللغة علومًا جزئية "مبنية على شفا جرف هار"[134] لكونها لا تستطيع استخلاص القوانين الكلية التي يتوصل بها إلى "معرفة طرق التناسب بين المسموعات والمفهومات" بسبب إقصائها لمعيار القيمة الجمالية وتجاهلها طبيعة الشعر، وهما الشرطان الأساسان لإنتاج معرفة واعية بالعمل الشعري ووظيفته.

حازم يشترط في المقومات الشعرية شرطين لتكون لائقة بالشعر، وقادرة على أداء وظيفتها كعناصر فعالة ضمن الإستراتيجية التي يؤطرها تصور حازم لبلاغة النص الشعري:

- **الشرط الأول:** يتعلق بمادة الشعر، **(**معنوية ولفظية**)**، ويشترط فيها حازم أن تكون متصلة بالذات الإنسانية: "وكانت نفوس الخاصة والعامة قد اشتركت في الفطرة

على الميل إليها أو النفور عنها"[135].

- **والشرط الثاني:** متعلق بصورة التعبير التي يشترط فيها التخييل.

---

(134) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي ط3، 1986، ص 321.

(135) م.نفسه، ص 20.

لقد أصبح النص الشعري – في التصور البلاغي لحازم – قائمًا على المزج بين الإستراتيجية الشعرية والإستراتيجية الخطابية، ويمكن اعتبار ذلك المراجعة الأساس التي قدمها حازم لبلاغة أرسطو وشعريته، لقد طوعهما ليصبحا شكلاً من أشكال الخطابة.

ويمكن أن نلاحظ مجموعة من القضايا النقدية التي تفتح بلاغة حازم على المجال التداولي بشكل عام.منها:

أ – إلحاحه على وظيفية النص الشعري، بالنظر إلى مقاصد منجزه.

ب – اهتمامه بالمقام التواصلي الذي يدخل في سياق "التبليغ الخطابي.

ج – انشغاله بقضية التداخل بين الخطابات، من خلال المقارنة بين التخييل والتصديق.

د – عنايته بالغرض بوصفه معيارًا موجهًا في قراءة النص الشعري.

المبحث الثاني

ملامح التداولية في نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني

يبين عبد القاهر الجرجاني فضل العلم بالشعر الذي هو ميدان التصوير، وفضل العلم بالنحو الذي هو أساس البناء، ثمَّ يدلف إلى بيان جوهر البلاغة، فيقرر أنه منذ خدم العلم نظر في كلام أهل العلم في معنى البلاغة والفصاحة، فوجد كلامهم ضربين[136]:

الأول: نَهَجَ فيه أصحابه نهج الإيماء والرمز، فهو يدلك على المعنى دلالةَ إشارةٍ وإلاحة.

والآخر: نَهَجَ فيه أهله بيان الموطن دون دلالة على الشيء نفسه؛ حثاً على السعي إليه بنفسك: "ولم أزل منذ خدمت العلم، أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فـــأجد بعضَ ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، وبعضَه كالتنبيه على مكانِ الخبيء ليطلب، وموضعِ الدفين ليبحث عنه، فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها"[137]. فهم بين مشير يبعثك على إحالة التلميح تصريحاً، ودالٍ على مكان الشيء دون أن يبينه لك تصريحاً أو تلويحاً.

ثم بيّن أنه قد انتهى من النظر في إشارات من أشَار و أومأ وألاح، ومن النظر فيما دلَّ على المكان فبحث فيه، وانتهى من ذلك إلى أمر ذي شأن؛ انتهى إلى أنَّ المعول عليه في شأن معنى بلاغة الخطاب وفصاحته (أدبيّته) أنَّ ههنا: نظماً وترتيباً وتأليفاً وتركيباً، وأن ههنا صياغة وتصويراً ونسجاً وتحبيراً. وانتهى إلى أن هذه الخصال الثمانية في شأن الكلام سبيلها في شأن الصناعات، إلا أنها في الصناعات حقيقة، وفي الكلام مجاز. فهي قائمة في الصناعات اليدوية على سبيل الحقيقة الفعلية، ولكنها في الكلام على سبيل المجاز، وبرغـــم من ذلك فإنّ معيار المفاضلة بين هذه السمات الثمانية في الكلام هو عيارها في الصناعات[138].وإذا نظرنا في هذه الثمانية نرى أنها بدأت بالنظم وانتهت بالتحبير، وأن الإمام قد نسقها على نحو لم يقع منه في أي موطن من كتابه "دلائـــل الإعجاز" ولا غيره، وإذا نظرنا في نسقها رأينا في توقيعها النغمي

136(136)محمود توفيق محمد سعد،نظرية النظم و قراءة الشعر، جامعة الازهر، من شبكة الانترنت.

(137) عبد القاهر الجرجاني ،الدلائل: ص34.

(138) م.نفسه، ص 35.

توازناً؛ (نظم وترتيب)، (تأليف وتركيب)،(صياغة وتصوير)، (نسج وتحبير). وهذا النسق نرى فيه تصاعداً يشير إلى منازل هذه السمـــات من بلاغة الخطاب، فمبدأ بلاغته: النظم، ومنتهاها: التحبير. وهذه السمات الثمانية لبلاغة الكلام قسمان، كل قسم أربع سمات، وكل قسم ضربان:

القسم الأول: سمات البناء: النظم والترتيب، والتأليف والتركيب. فالأول والثاني يمثلان درجة الجوار بين عناصر الكلام البليـــغ: (علاقة ظاهرية)، والثالث والرابع يمثلان درجة الحوار بين عناصر الكلام البليغ: (علاقة باطنية)

القسم الثاني: سمات التصوير: الصياغة والتصوير، والنسج والتحبير. فالأول والثاني يمثلان درجة السبك (صناعة المعـــادن) والرسم، والثالث والرابع يمثلان درجة الحبك (صناعة النسيج) والنقش...البنـــاء مبدؤه: "نظم"، ومنتهاه: "تركيب". والتصوير مبدؤه: "صياغة"، ومنتهاه: "تحبير". فالتناسق التصاعدي ظاهر للعيان في جمع وتنفيذ هذه السمات على هذا النحو في ذلك الموضع الفريد، الذي لم يتكرر مثله في أي موطن من كتبه. وهذه السمات الثمانية جامعة لما يعرف بتمام بلاغة الخطاب، ولما به عمود بلاغته.

الأفعال الكلامية عند عبد القاهر الجرجاني

يقول الجرجاني في سياق حديثه عن الخبر:" فإنك تعلم أن قائلاً لو قال : الخبر مثل قولنا (زيد منطلق) ورضي به وقنع لو تطالبه نفسه بأن يعرف حدّاً للخبر إذا عرفه تميز في نفسه من سائر الكلام حتى يمكنه أن يعلم ههنا كلاماً لفظة لفظ الخبر وليس هو بخبر ولكنه دعاءٌ وكقولنا : رحمة الله عليه و غفر الله له ، ولم يجد في نفسه طلباً لأن يعرف أن الخبر هل ينقسم أو لا ينقسم وأن أول أمره في القسمة أنه ينقسم إلى جملةٍ من الفعل والفاعل وجملة من مبتدأ وخبر وأن ما عدا هذا من الكلام لا يأتلف ، نعم ولم يُحبّ أن يعلم أن هذه الجملة يدخل عليها حروفٌ بعضها يؤكد كونها خبراً وبعضها يُحدث فيها معاني تخرج بها عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب..... كان قد أساء الاختيار وأسرف في دعوى الاستغناء عما هو محتاج إليه أن أراد هذا النوع من العلم"[139] .

(139) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص173 ومابعدها.

ويميز بين الخبر و الإنشاء من حيث صفتي الصدق و الكذب مبرزا محورية المُخْبِر به في العملية التواصلية؛ فيقول:" كذلك لا يُتَصَوَّر أن يكونَ خَبرُ حتى يكون له ، مُخْبرٌ، يَصْدُر عنه ويَحْصُل من جهته ، ويكونَ له نسبةُ إليه ، وتعود التَّبعَةُ فيه عليه ، فيكون هو الموصوف بالصِّدق إن كان صِدْقاً ، وبالكذب إنْ كَان كذباً" [140]؛ ويوضح هذه الفكرة أكثر بقوله:"والدليلُ على أن اللَّفظ من قول الكاذب يدلُّ على نفس ما يدلُّ عليه من قولِ الصادق، أنهم جعلوا خاصَّ وَصْفِ الخَبرَ أنه يحتمل الصِّدْق و الكذبَ"[141]. ولأوستن أقوال في تقسيم أساليب الكلام تكاد تكون مطابقة لأقوال الجرجاني، حين يقول: "ومع ذلك نستطيع أن نتمكن ، من إقناع أنفسنا بأن هذا التمييز جازم نهائي . وخاصة إذا رجعنا إلى التصور القديم الذي ينص على أن الجملة الخبرية إما صادقة أو كاذبة ، وأن العبارة الإنشائية تكون إما مناسبة الاعتبار ومقبولة أو غير مناسبة الاعتبار .... وجملة (إني راكض I am running) وهي حال يتعلق الصدق فيها بكونه منشغلاً بالركض أو هو على هذه الهيأة أو الصفة من الركض.[142] أي أن قول أوستن مقارب جداً لقول الجرجاني وحتى المثال الذي ذكره أوستن (إني راكض) مقارب لمثال الجرجاني (زيد منطلق).

وفي كتاب (أسرار البلاغة) قسم الجرجاني المعاني إلى (عقليّ وتخييليّ). ويقصد بالعقليّ : هو كل ما وافق العقل الصحيح ، وجرى مجرى الأدلة التي يستنبطها العقلاء والفوائد التي تُثيرها الحكماء ، ومصادرها ، أوامر الله سبحانه وتعالى وما جرت عليه الأحكام الشرعية من سنة الرسول – صلى الله وعليه واله وسلم – وأقوال الصحابة ومنقولاً عنهم من آثار السلف

(140) م.نفسه، ص 528

(141) م. نفسه، ص 533

(142) ج أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الاشياء بالكلام ، ترجمة عبد القادر قنيني افريقيا الشرق 2008 ، الطبعة الثانية، ص75.

وأهل الحكمة [143]. وهذه المصادر لا تحتمل غير الصدق، أي أنها ما لا يحتمل الصدق والكذب وغير خاضعة لمعيار التصويب. أما التخييليّ: فهو الذي لا يمكن أن يقال أنه صدق وإن ما أثبته ثابت وما نفاه منفيّ وهو مفتنٌّ المذاهب ، كثير المسالك لا يكاد يُحصَر إلا تقريباً[144] ؛ أي أنه يحتمل الصدق والكذب. وأعتمد الجرجاني في تقسيم العقليّ والتخييليّ على أساس الصدق والكذب وهو كتقسيم اللّغويين العرب من قبله .

وهنا لابد من الإشارة إلى ذلك التقارب بين تقسيم عبد القاهر هذا بتسمياته (عقليّ وتخييليّ) التي تحمل معنى الخبر والإنشاء مع تقسيم سيرل (الأقوال). فقد قسم سيرل الأقوال وجعلها ضرباً من الأعمال اللغوية فقسمها إلى الخطاب الجاد (غير التخيليّ) والخطاب غير الجاد (التخيليّ)[145] فيرى سيرل" أن المتكلم في القول التخييليّ يدّعى الإخبار وهو يقصد ادّعاء القيام بإخبار ، لكنه لا يقصد مّغالطة مُخاطبيه ، وقد يدّعي الكاذب الإخبار ولكنه قد يُضْمر في الآن نفسه نيّة إدّعاء الإخبار وقصد مُغالطة مُخاطَبه . وبعبارة أخرى ، إن المتكلم في القول التخييليّ يدّعي الإخبار دون أن يسعى إلى حمل مُخاطَبِه على الاعتقاد بأنه إخبار خالص في حين يدّعي الكاذب أنه يقوم بعمل إخبار حمل مُخَاطَبه على الاعتقاد بأنه إزاء أخبار خالص ."[146]

فتقسيم سيرل مطابق لتقسيم عبد القاهر حتى من ناحية المصطلحات فالجاد عند سيرل (غيرالتخييليّ) أي ما يقابل (العقليّ)عند عبد القاهر أما الخطاب غير الجاد (التخييليّ) ما يقابل أيضا ما يسمى بـــ(التخييليّ) عند عبد القاهر.

والبحث عن مكونات (الفعل الكلامي) في نظرية النظم الجرجانية في ضوء تسميات أوستن وسيرل يحيلنا على الكثير من النصوص في (دلائل الإعجاز)و(أسرار البلاغة) تحمل ملامح بارزة جداً من نظرية أفعال الكلام الحديثة والتي تقسم على ثلاثة أنواع :

---

(143) ينظر : عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 168 – 171

(144) المصدر نفسه :ص 171

(145) آن روبول – جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة : دكتور سيف الدين دغفوس – دكتور محمد الشيباني ، الطبعة الاولى 2003 .ص196

(146) م.نفسه، ص37 – 38

1- فعل القول (الفعل اللغوي أو اللفظي) .

2- الفعل المتضمن (الفعل الإنجازي)

3- الفعل التأثيري .

ومن هذه النصوص مايأتي:

- "وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضىً عن معنى، ولا الناظم لها بُمقْتفٍ في ذلك رسْماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحرَّاهُ. فلوأنّ واضع اللغة كان قد قال:(ربضَ) مكان(ضربَ)، لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد"[147].
- "وأما نَظْمُ الكَلِم، فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نَظْمها آثار المعاني، وتُرَتبها على حسب تَرتُّب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو (النَّظم) الذي معناه ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتَّفق. ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصيَّاغة والبناء والوشي والتَّحبير وما أشبه ذلك"[148].
- "مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كلّ حيث وُضِع، عِلَّة تقتضي كوَنهُ هناك، وحتى لو وُضِع في مكانٍ غيره لم يصلح"[149].

ما يمكن استنتاجه من هذه النصوص أن الجرجاني "يتناول قضية الاعتباط في الحدث اللسانيّ من زَاوية اختيارية وصفيّة ملحّاً على أن اقتران أيّ لفظ بمعناه لمّا كان في منشئه تواطؤ محض فإنه لا يقوم بين الدّال والمدلول من الاقتضاء ما يمنع تصوّر أي دال آخر لنفس المدلول كان يمكن أن يقوم مقام الدال الأول ، وبنفس الانتهاج الاستدلالي لا يمتنع تصوُّر أي مدلول آخر لأي دال من دوال اللغة كان يمكن أن يكون كامناً وراءَه بَدَلاً عنه ، ويعمم

---

(147) الجرجاني. دلائل الاعجاز، ص 49

(148) م.نفسه، ص49

(149) م.نفسه، ص49

الجرجاني مبدأ الاعتباط على حدّيْه الأقصى والأدنى وذلك في الدلالة والنظم"[150]؛ أي أن الجرجاني يصر على أن الارتباط بين الدال والمدلول ارتباط ذهني سيكولوجي أتحدت أصواته عشوائياً ثم ارتبط بمدلوله بالرابطة نفسها، وهذه المبادئ في "دلالة المفردة والعلاقة بينها وبين مدلولها هي من أهم الأسس البنيوية التي تشبّثَ بها الالسنيون المحدثون"[151].

وفي سياق تأصيل الجرجاني لنظرية النظم يورد نصوصا طلائعية ثمينة تطابق ما توصل إليه أوستن فيه نظريته عن أفعال الكلام؛ فيقول:"ومعلومُ أنك، أيُّها المتكلم، لستَ تَقْصِدِ أن تُعْلم السامع معاني الكَلِم المفردة التي تُكَلّمه بها، فلا تقول: خرج زيد لتعلمه معنى، خرج، في اللغة، ومعنى (زيد). كيف؟ ومُحالُ أن تكلّمه بألفاظٍ لا يعرفُ هو معانِيهَا كما تعرف. ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم، ولا الاسْمُ وحده من دون اسمٍ آخر أو فِعْلٍ، كلاماً وكنت لو قلتُ: خَرَج، ولم تأت بأسم، ولا قدَّرت فيه ضميرَ الشئ، أو قلت: زيد، ولم تأت بفعل ولا اسم آخر ولم تُضْمِره في نفسك، كان ذلك وصَوْتاً تُصَوِّتُه سواء، فاعرفه"[152]. ويوضح ذلك بالأمثلة؛ فيقول:"وإن أردت أن ترى ذلك عياناً فاعمد إلى أيَّ كلام شئت، وأزِلْ أجزاءه عن مواضعها، وضعها وضعاً يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل في: **"قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ ومَنْزِل"**؛ من نبك قفا حبيب ذكرى منزل ثم انظرهل يتعلَّق منك فكر بمعنى كلمة منها؟"[153] .

إذن فعند الجرجاني:

الكلام ــ نظم = الفعل الصوتي

ويذكر أيضا: "لو كان القَصْدُ بالنظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغَرَضُ ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حَذْوِها، لكان يَنْبغي أن لا يختلف حالُ اثنين في العلم

---

(150)عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، دار الكتاب الجديد ، الطبعة الثانية 2009 م . ص 137 – 138

(151)رشيد عبد الرحمن العبيدي، الألسنية بين عبد القاهر والمحدثين، المورد ، المجلد 18 خريف 1989 ، العدد الثالث،ص 9

(152) الجرجاني. دلائل الاعجاز، ص412

(153)الجرجاني. دلائل الإعجاز، ص410

بحُسْن النظم أو غير الحُسْنِ فيه، لأنهما يُحِسّان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهله الآخر"[154]..."وأنَّ الكَلِم تترتَّب في النطق بسبب ترتُّب معانيها في النفس، وأنها لو خَلَت من معانيها حتى تتجرَّد أصواتاً وأصداء حروفٍ، لما وقع في ضمير ولا هَجَس في خاطر، أن يجبَ ترتيبُ ونظم"[155].

إذن فعند الجرجاني:

الكلام + النظم = الفعل الدلالي

مع العلم أن: **النظم= المعاني النفسية + الدوال الصوتية + قواعد النحو**

فإذا تأملنا كلام أوستن عن الأفعال الكلامية نجده مقاربا ان لم نقل مطابقا لما قاله الجرجاني، فأوستن يقول: "ولقد كنا أتينا على ضروب من تمييز الوجوه الدقيقة على نحو مقتضب بين الفعل الصوتي، والفعل الكلامي (Phatis act) والفعل الخطابي(Rhetic act). فأما الفعل الفونطيقي فهو مجرد فعل التلفظ ببعض الأصوات المقروعة المحمولة في الهواء. وأما الفعل الكلامي، فهو النطق ببعض الألفاظ أو الكلمات إي إحداث أصوات على أنحاء مخصوصة متصلة على نحو ما بمعجم معين، ومرتبطة به، ومتمشية معه، وخاضعة لنظامهِ. أما الفعل الخطابي فهو طريق تأدية الإنجاز، وكيفيته باستعمال تلك الالفاظ"[156] و يوضح ذلك بأمثلة مشابهة لما أورد الجرجاني فيقول: "ههنا الفاظ مستعملة، ومألوفة لدينا، ولكن ينقصها التركيب النحوي، وعلى ذلك في العبارات المشهورة في (قصة الفتاة أليس Alice وراء المرآة)، نجد تركيباً نحوياً صحيحاً وألفاظه غريبة والعبارة هي: ضرب من الحيوان المسمى بالغرير بصحن الهواء the slithy toves did grre"[157].

---

(154) المصدر نفسه، ص51

(155) المصدر نفسه، ص 56

(156) ج اوستن ، نظرية أفعال الكلام ، ص124

(157) م.نفسه، ص 125

أما النوع الثاني من هذه الأفعال وهو (الفعل الإنجازي) أو (الفعل الكلامي). فقد استعمل أوستن تعبير (الفعل الكلامي) Locutionarg act للدلالة على تنفيذ تلك المقاصد[158] "أي الدلالة على المعاني الثواني على حدّ تعبير البلاغيين العرب وهما وجهان لعملة واحدة وكثيراً ما يعاملان كشيء واحد"[159] وهنا يجب أن نقف وقفه تأمل بسيطة لنتعرف على مفهوم (معنى المعنى) عند عبد القاهر ونرى علاقتها بنظرية أوستن ثم نتوسع بهذا الموضوع (معنى المعنى) فيما بعد من خلال الأفعال الإنجازية غير المباشرة.

وقد ورد مصطلح (معنى المعنى) في كتابه دلائل الإعجاز، إذ يقول:"وإذ قد عرفت هذه الجملة، فهنا عبارة مختصرةٌ وهي أن تقول: المعنى، و معنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة و معنـــى المعنـــى، أن تعقل من اللَّفظ معنىً ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخـــر، كالـــــذي فسّـــَرت لك"[160]وقال أيضا "وإذ قد عرفت ذلك، فإذا رأيتهم يجعلون الألفاظ زينةً للمعاني وحِلْيةً عليها، أو يجعلون المعاني كالجواري ... فاعلم أنهم يصفون كلاماً قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى"[161]. فمفهوم المعنى الثاني:"هو الذي يطلبه السامع بعد مروره بالمعنى الأول، والسبب في ذلك كونه الأشد تأثيراً فيه، وهذه الدرجة من التأثير لا يستطيع تأديتها المعنى الأول وجملة الأمر أنه إنما يتصور أن يكون لمعنى أسرع فهماً منه لمعنى آخر."[162]

وفي مقاربته للمعنى الأولي و معنى المعنى يوضح أن هذا الأخير إنما يتخذ بعدا سيكولوجيا بالدرجة الأولى؛ فيقول:"فإن تصوَّرت الأوّل، فقل ما شئت، واعلم أن كل ما ذكرناه باطل وإن لم تتصور إلا الثاني، فلا تخدعنَّ نفسك بالأضاليل، ودع النظر إلى ظواهر الأمور،

---

(158) م.نفسه، ص 128

(159) م.نفسه، ص 88

(160) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الأعجاز، ص 263

(161) المصدر نفسه،ص 263

(162)عطية أحمد أبو الهيجاء، معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني بين التنظير والتطبيق، الثقافة – دار الخليج ، الطبعة الاولى 1431هـ – 2010 م ، ص36

واعلم أن ما ترى أنه لا بُدَّ منه تَرَتُب الألفاظ وتواليها على النظِم الخاص، ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأوّل ضَرُورةً من حيث أن الألفاظ إذ كانت أوعيةً للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنىً أن يكون أوَّلاً في النفس، وجب للَّفْظ الدالّ عليه أن يكون مثلَه أوَّلاً في النطق"[163]

من خلال أقوال الجرجاني يمكن أن نلاحظ أن مفهوم معنى المعنى يقوم على أركان هي:

- أن معنى المعنى ينبثق من بعد نفسي سيكولوجي.
- أن معنى المعنى لا يتوصل إليه إلا من خلال عمليات ذهنية أي بطريقة غير مباشرة.
- أن تأثير معنى المعنى أكبر و أبلغ من المعنى الأولي الظاهر.

أوستن في مفهومه للمعنى الثاني من خلال نظرية الأفعال الكلام يعيد كلام الجرجاني فيقول:"حينما تتنازع في فائدة أية عبارة متلفظ بها كيفما كان نوعها، وعلى ذلك يجب ألا أكون مثلاً مازحاً، هازلاً أو في حال كتابة قصيدة ولكن أحياناً قد ينتابنا شعور بأن ،جدية العبارة، إنما جاءت من كونها قد تلفظ بها فقط لاعتبارات خارجية ولقرائن الأحوال وأمارة ظاهرة تعرب كلها عن قصد باطني".[164] وقال أيضا "إن التلفظ بكلمات معينة أكثر مما يمكن أن يكون أداء لأمر باطني نفسي مغاير، وهو الكلام النفسي المغاير لما تدل عليه في الخارج الألفاظ الموسوعة الدالة. ويكاد يكون من الصعب البرهنة على ذلك إلا أنه يجب أن أدعي أن هذا أمر واقعي يشهد له العيان"[165].

فأوستن يؤكد على المعنى الباطن أو ما سمّاه بالكلام النفسي ويكون هذا الكلام مغلفاً داخل النفس ولا يستطيع المسُتْقبل أن يفهم كلام الباث إلا من خلال القرائن والأحوال والألفاظ الدالة عليه. وهو بهذا يلتقي بما جاء به عبد القاهر من ناحية المفهوم ومن ناحية التسميات أيضاً.

---

(163)عبد القاهر الجرجاني، دلائل الأعجاز، ص 52

(164) ج أوستن ، نظرية أفعال الكلام ، ص 20

(165) المصدر نفسه، ص 24

و يلتقي الجرجاني في هذا أيضا مع سيرل حين يقول:"عندما أتكلم، فأنا أحاول إيصال بعض الأشياء إلى مخاطبي بدعوته إلى التعرف على مقصدي من توصيل تلك الأشياء، وأحصل على الأثر المنتظر عندما أدعوه الى معرفة غرضي، وما أن يتعرف مخاطبي على غرضي، حتى تتحقق النتيجة عموماً"[166].

يفرّق أوستن بين الفعل اللفظي أو فعل القول،والفعل الإنجازي أو الفعل الكلامي ويذكر"أن فعل القول متعلّق بالمعنى الحرفي أو الوضعي ويشمل ما يسمّيه هو بالدلالة والاشارة أي الإحالة Senseand Reference مثل تحديد المقصود بالمفردات المعجمية وأسماء الإشارة والضمائر الواردة في المقولة، وذلك باختصار المعنى الأول أو أصل المعنى بتعبير البلاغيين العرب. أما (الفعل الكلامي) فارتباطه يكون مع المغزى الكلامي أو الداعي إلى الكلام (Force) مثال ذلك تحديد هدف المقولة على أنه تحذير أو نصيحة أو تهديد أو وعد أو إخبار أو استفهام ...الخ، والفعل الكلامي يتحقق عادةً بمجرد إدراك أو استيعاب المخاطب (Uptake) للقصد الانعكاسي للمتكلم"[167]

ويحدد الجرجاني ثلاثة مقومات في"تحليله للمعنى **(أوّلها)** الألفاظ، وهي أصل المعنى الحرفي والوضعي و **(ثانيها)** المعاني أو معاني النحو وهي مستتبعات التراكيب، أي دلالات النظم والأسلوب لأنها نتيجة لاختيار ألفاظ أو تراكيب دون غيرها، و**(ثالثها)** المعاني الثواني أو معنى المعنى."[168]

مما سبق نستنتج أن مقاربات الجرجاني و تأصيلاته لنظرية النظم؛ خاصة في مناقشته لقضايا اللفظ والمعنى؛ تعد جذرا طبيعيا لنظرية الفعل الكلامي التي جاء بها أوستن في أهم عناصرها المكونة: الفعل اللفظي (فعل القول)، والفعل الإنجازي (الفعل الكلامي).

الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة عند عبد القاهر الجرجاني

---

(166) فيليب بلانشيه ،التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشه، دار الحوار للنشر، الطبعة الأولى، 2007 ،ص 139

(167)عبد الله الخليفة ، نظرية الفعل الكلامي، مكتبة لبنان – الشركة المصرية العالمية للنشر – الطبعة الأولى ،2007 ، ص88–89

(168) م.نفسه، ص424

يبدو أن الجرجاني أثناء محاولاته التأصيلية و التطبيقية لنظرية النظم؛ كان ينطلق من فكر متفرد ومتميز، يغوص في أعماق الأبنية الخطابية مستكشفا خباياها، فقد كان يدرك إدراكا تاما لمفهوم الأفعال الانجازية المباشرة و غير المباشرة التي لم يتفطن لها الفكر الغربي إلا في القرن الماضي؛ وهذا ما سنوضحه باختصار فيما يأتي من صفحات.

أولاً: الأفعال الإنجازية المباشرة:

يقول الجرجاني:"الكلام على ضَرْبين: ضَرْبٌ أنت تصِل منه إلى الغرض بدلالة اللَّفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تُخْبِر عن زيد؛مَثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق، وعلى هذا القياس. وضربٌ آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يَدُلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة"[169]. ويواصل كلامه بقوله:" وأعلم أنه إذَا كان بيِّناً في الشيء أنه لا يَحْتمِل إلاّ الوجهَ الذي هو عليه حتى لا يُشْكل، وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقُّه وأنه الصوابُ، إلى فكر وروية، فلا مزيَّةَ. وإنّما تكون المزيّة ويجبُ الفصلُ إذا احتمل في ظاهر الحال غيرالوجه الذي جاءَ عليه وجهاً آخر،ثم رأيت النَّفْسَ تنبوُ عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حُسْناً وقبولاً تعْدَمهما إذَا أنت تركته إلى الثاني"[170]

فالجرجاني يعتبر أن اللفظ إذا كان بيّناً لا يحتاج إلى توضيح أو تأويل و يمكن أن يوصل إلى الغرض من الكلام بدلالة اللفظ وحده؛ فإنه الصواب، وهذا ما يسمى بالمصطلحات الحديثة (الفعل المباشر). ويحدد شروط لوصول الكلام المباشر هي:

- دلالة اللفظ.
- والقصد من اللفظ.
- وصول هذا القصد إلى المخاطب بلا توضيح.

---

(169) الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص 262

(170)المصدر نفسه، ص 286

ونجد هذا التصنيف عند (سيرل) فيما يسميه الانجاز الصريح والأولي، وحدد الأفعال الإنجازية و صنفها إلى: الفعل الإنجازي المباشر، والفعل الإنجازي غير المباشر.

والفعل المباشر عند (سيرل) هو الفعل الذي تطابق قوته الإنجازية مراد المتكلم، أي أن يكون القول مطابقاً للقصد حرفياً، ويتمثل في معاني الكلمات التي تتكون منها الجملة، وقواعد التأليف التي تنتظم بها الكلمات في الجملة، ويستطيع المتلقي أن يصل إلى مراد المتكلم بإدراكه لهذين العنصرين معاً[171]. أي" يفترض في الفعل الإنجازي المباشر أن لا تكون به حاجة إلى تبيين لأي معنى زائد فهو يقدم منطوقاً محدودّاً واضحّاً لا يحمل التأويل ولا يقصده، وهذه الخصيصة تنبع من المباشرة التي سُمّي الفعل في ضوئها بالإنجازي المباشر."[172] ويحدد (سيرل) شروط لوصول الكلام المباشر هي:

- معاني الكلمات التي تتكون منها الجملة.
- قواعد التأليف في نظم الكلمات.
- وصول المراد إلى المخاطب.

و هي شروط تطابق الشروط التي وضعها الجرجاني.والأمثلة عن الأفعال الإنجازية المباشرة كثيرة و متعددة نذكر منها:

1. **القَسَم** : وعرّف بـــأنه "الحلف واليمين"[173]

وقد عقد الشيخ عبد القاهر الجرجاني باباً للقسم في كتابه (المقتصد) وقد عدَّ القسم من أنواع التأكيدات فقال:"أعلم أنّ الَقسم لمّا كان موضوعُهُ على أن يُؤكَّدَ به كلام لم يَجْز السكوتُ عليه فلا تقولُ: أحْلِفُ بالله، وتَسْكُتُ بَلْ يجبُ أن تَأْتي بالمقسَمَ عليه فتقول: أحْلِفُ بالله

(171)علي محمود حجي الصراف،الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة،دراسة دلالية و معجم سياقي، مكتبة الآداب،1431هـــ-2010 م،ص 98

(172) المصدر نفسه ، ص 98

(173) عبد السلام محمد هارون، الأساليب الانشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي القاهرة مصر، الطبعة الثانية، 1399 هـــ - 1979 م، ص 162

لأفْعَلَنَّ"[174]. كما ذكر من أغراضه تأكيد الخبر"القَسَمُ جملةُ يُؤَكَّدُ بها الخَبَرُ"[175] أو الإلحاح في الطلب مثل الاستعطاف "كأنه قَالَ: بِحَقّ نِعْمَةِ الله عليكَ افْعَلْ".[176] ويندرج (القسم) عند أوستن ضمن الالتزاميات،ويقول عنها أوستن أن النقطة الأساسية فيه هي أن يلتزم المتكلم من خلال الفعل الذي ينطقه بتصرف أو نشاط معين وذكر مثالاً من هذه الأفعال (الوعد والقسم و التعهد ...)[177].أما سيرل فيندرج عنده القسم بمعاييره ضمن "درجة الشدة للغرض المتضمن في القول."[178]

2. **الاستفهام:**"هو طلب المتكلم من مخاطبه أن يحصل في ذهنه ما لم يكن حاصلاً مما سأله عنه"[179] .ومن ضمن أنواع الاستفهام التي ذكرها عبد القاهر.

- **الاستفهام بـــ(هل)** وتستفهم بها عن الشيء لا يكون ثبوته عند المتكلم أولى من عدمه فإذا قلت هل خرج زيد؟ لم يكن لك في وجود الخروج ظنٌ .
- **الهمزة:** فيستفهم بها عن الشيء قد ثبت له أصل. وذلك قولك: أزيدٌ عندك أم عمرو؟ تريد: أيّهما عندك؟
- **استفهام التقرير:** أي تكون همزة الاستفهام للتقرير. ومعنى التقرير أن تلجئ المخاطب إلى الإقرار بأمر قد كان: فإذا قلت: أضربت زيداً؟ لم
- يكن غرضك إلاّ أنْ يُعْلِمَكَ أمراً لم تعلمه، ولكن أن تقرّره، أي تحمله على الإقرار بفعلٍ قد فعله.[180]

---

(174) عبد القاهر الجرجاني،المقتصد (في شرح الايضاح)، تحقيق كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ،الجمهورية العراقية، 1982، ج 2 /ص 862

(175) المصدر نفسه ، ج 2 / 862

(176) المصدر نفسه ، ج2 /ص 863

(177) ج.اوستن،نظرية أفعال الكلام العامة، ص194

(178) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب ، ص209

(179)جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، وضع حواشيه غريب الشيخ . دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط 2، 1428 ه، 2007 م :ج4/ص 54

ويندرج الاستفهام عند سيرل ضمن التوجييهات (التوجيهات الطلبية)[181]

ثانياً: الأفعال الإنجازية غير المباشرة:

في معرض كلامه عن المجاز و الاستعارة و الكناية "قررّ الجرجاني في نظرية النظم أن ما خالف الأصل، يستلزم غير الظاهر كما عرض للأفعال غير المباشرة على مستوى معنى الخطاب، وذلك عند التعبير بالمفهوم عن القصد."[182] فيقول:"إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كَلِمٌ مفردةٌ، وإن الفضيلةَ وخِلاَفَها، في ملائمة معنى اللَّفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلُّق له بصريح اللفظ"[183]

فالمعنى ومعنى المعنى عند الجرجاني يخرج لأغراض معينة مثل الاستعارة والمجاز والكناية وهذه الأغراض عند عبد القاهر ؛ هي التي تعدّ من الأفعال الإنجازية غير المباشرة عند المحدثين، فيتضح بأن (الأفعال الإنجازية غير المباشرة) في تسميتها الحديثة هي ما ذكرها عبد القاهر قبل هذه التسميات بقرون وتناولها من جميع الجوانب النحوية والفنية والذوقية.

أولاً: الاستعارة

تدخل الاستعارة ضمن الأفعال الإنجازية غير المباشرة التي تعتمد على معنى المعنى، واستنباطه من الجملة الالتزامية (القصدية) وضمن سياقات محددة. يعرفها الجرجاني بقوله:"فالاستعارة أن تُريد تشبيه الشيء بالشيء، فَتَدعَ أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيءَ إلى اسم المشبَّه به فتعيرَهُ المشبَّه وتُجْرِيَهُ عليه تريد أن تقول رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بَطْشه سواءً فتدع ذلك وتقول: رأيت أسدا"[184]و يعرفها أيضا بأن"حدّها أن يكون

---

(180)عبد القاهر الجرجاني، شرح الجمل في النحو، تحقيق: خليل عبد القادر عيسى، الدار العثمانية – عمان، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة العاشرة، 1432 – 2011 م:ص 235

(181)علي محمود حجي الصراف،الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة،دراسة دلالية و معجم سياقي، ص 216

(182)علي محمود حجي الصراف، الأفعال الأنجازية : 137

(183) الجرجاني، دلائل الاعجاز : 46

(184) الجرجاني، دلائل الأعجاز : 67

للفظ اللغوي أصلٌ ثم يُنقَل عن ذلك الأصل"[185]ويقول أيضا:"ليست الاستعارة نقل الاسم، ولكن ادَّعاء معنى الاسم، وكُنَّا إذا عَقَلْنا من قول الرجال رأيت أسداً، أنه أرادَ به المبالغة في وصفه بالشجاعة وأن يقول: إنه من قوة القَلْبِ، ومن فَرْطِ البسالة وشِدَّة البَطْشِ".[186]

ونجد سيرل قد ضرب مثالاً مقارباً تماماً لمثال الجرجاني فنراه يقول: إذا قال لك احدهم، "جون خنزير" فإن المتلقي سيعرف أن هذا الملفوظ لا يمكن أن يكون صادقاً في صورته اللفظية الحرفية المباشرة، وأنه إذا تلقّاه حرفيًّاً فسيكون مختلاً ظاهريًّاً. وهذا الاختلال خاصية مشتركة بين جُلّ المنطوقات والعبارات البيانية أي أن هذا المثال كان على سبيل الاستعارة.[187] فيوضح أن"مجموعة من المعاني الثانوية تكون مثيرة للاهتمام."[188]

و إذا قارنا بين قول الجرجاني و قول سيرل فيما يلي:

قال الجرجاني:"فإن قلت: كيف تكون الاستعارة من أجل التشبيه... وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غَرضٌ فيها وعلّة كذلك الاختصار والإيجاز غَرَضٌ من أغراضها... لأنك تفيد بقولك: رأيت أسداً، إنك رأيت شجاعاً شبيهاً بالأسد وإن شَبَهه به في الشجاعة على أتمّ ما يكون وأبلغه".[189]و يقول سيرل:أن "معنى الجملة هو معنى المتكلم، أي أن سمة معنى المتكلم في العبارة البيانية ينبغي أن تكون سمة بارزة أو معروفة في مكونات معنى الجملة من المبادئ المهمة في تميز المعنى الحرفي من غير الحرفي أي (الاستعارة) كما في المثال (جون خنزير)[190].

---

(185) الجرجاني، أسرار البلاغة : 154

(186) الجرجاني، دلائل الأعجاز : 439

(187) ينظر : فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان :72

(188) وليم كري ، الاستعارة والمعنى ، ترجمة صفاء عيسى حسن ، مجلة الثقافة الأجنبية العدد 4 ، 2009 :ص 42

(189) الجرجاني، أسرار البلاغة :ص 155

(190) ينظر: علي محمود حجي الصراف، الأفعال الانجازية : ص147

قال الجرجاني:" وأعلم أن من شأن الاستعارة، أنك كلما زِدْت إرادتك التشبيه إخْفاءً ازدادت الاستعارة حسناً، حتى إنكَ تَراَها أغرب ما تكون إذا كان الكلام قد ألف تأليفاً إن أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت إلى شيء تَعَافُه النفس ويَلْفَظهُ السمع"[191].

يقول سيرل:"أن الاستعارات لا تشتغل بالضرورة وفق التشابه، خلافاً لما يزعمه فهم شائع للظاهرة فجملة (جون دب لم تلحسه أمّه جيداً) لا تعني أن جون والدببة التي لم تلحسها أمهاتها جيداً، لها نقطة تشابه، الغلظة والرعونة"[192]، هذا تعبير عن سوء التربية حتى لا يفقد تحليل الاستعارة جدواه، أي ليس لها معنى حرفي فمثل هذا القول لا ينطبق إلا استعارياً وشروط نجاح إخبار حصول التشابه بين، جون والدببة لم يقع تحقيقها [193].

بالمقارنة بين هذه الأقوال نجد أن سيرل يشترك مع الجرجاني في مقاربتهما للاستعارة في النقاط الآتية:

- أنها تعبر عن علاقات بين الأفكار وعمليات تبادل النصوص، أو ما يعبر عنه الجرجاني بادعاء معنى الاسم لشيء.
- هي تشبيه على وجه المبالغة مع الاختصار ليكون المعنى أقوى وأبلغ.
- كلما ازداد أخفاء المكون التشبيهي في الاستعارة كلما ازدادت الاستعارة حسناً.

فالاستعارة نَشاط تَداولي أساسًا تُلح في تَركيبها على حُضور مُ تزامن لِلنّاص والمؤول، ويتفاعَل المؤول معَ مقَاصد النَاص، فَتتجلَى تَمثيلَية الاستعَارة وشموليتها في أسْبقية متعددة لِلدلالات ، فالمبدع يُنجز نصًا ويُنظم تَراكيبه ، والمتلقي يُوظف خِبرته اللغوية مستكشفًا العلاقات بينَ الدوال ومَد لُولاتها للتوصلَ إلى مقَاصد الناظم.

---

(191) الجرجاني، دلائل الاعجاز :ص 450

(192)فيليب بلانشيه ، التداولية من أوستن إلى غوفمان :73

(193) ينظر: المصدر نفسه : 73 – 74

وقد أكدَ الجرجاني في دلائله على حُضور سُلطة المتَكلم و قَصديته، فهو الذي يُحدد معاني كلامِه سلفا، و يَترتب على ذلك أن المتلقي ليس له دور في إضفاء المعنى، و يَبقى عليه أنْ يبحثَ عنها، من خلال اللفظ ذاته . فَتأويل الاستعارة يَتعلق بِطبيعة العلاقة بينَ معنى الكلمة أو الجملة من جِهة ، ومعنىَ الناص أو التلفظ من جِهة أخرَى ، والتَميز بين المعنَيين

يُوضح المقصدية التي تُبنى عليها الاستعارة.

و رَغم أن **الجرجاني** حَدد آليات التأويل وخَطواته، إلا أنه رآه يَتفاوتُ تفاوتًا شديدًا تبعًا لِمستويات الاستعارة وأنواعها، " فهناك ما يَقرب مَأخذُه و يَسهل الوصُول إليهِ و يُعطى المقادة طوعًا حتى إنه يَكاد يُداخل الضرْب الأول الذي ليس من التأول في شيء، ومنه ما يَحتاج إلى قَدرٍ من التأمل ومنه ما يدقّ و يُغمض حتى يحتاج في استخراجهِ إلى فضل روية ولطفِ فكرَة . ,,[194]ففِي النص تَصور لمستويات النَظم الذي يَختلف فيه نَشاط التأول إذ نَجد **الجرجاني** في سياق حَديثه عن الاستعارة أوضَح ذلك عندمَا قسمهَا إلى مُفيدة وغَير مُفيدة، حيثُ لم يُولي أهمية تذُكر لِغير المفيدة لأنها لا تفِيد معنىً زائدا، وهي "تَدخُل ضِمن ما تسمى الاستعارات الاضْطرَارَية والعلمِية[195] "؛ أما المفيدة فهي التي خَصها بدراسة مُعمقة خُصوصًا فيما يَتعلق بِدلالتها إذْ قسمها ثَلاثة أقسام وفقًا لِلصفَة المشتَركة بينَ طرفَيها.

<u>النَوع الأول</u>: "الاشتراكُ في صِفَة عامة : تُعتَبرُ نواة لِلمعاني المتجَسدة في الطرفين ، بِحيث تعتبر النواة جنِسًا والمعاني المجسدة لها أنواعًا[196] وهي: أن يُرى معنى الكلمة المستعارة مَوجوداً في المستعار له من حيثُ عموم جِنسه على الحقيقَة، فأنتَ تستعير لفظ الأفضَل لما دونه ، ومثاله استعارة الطيران لِغير ذِي الجناح إذاَ أردت السرعة [197].وهذا النوع من الاستعارة " يُمثل

(194) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، ص 76

(195) محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص 336

(196) المرجع نفسه ، ص 336

(197) عبد القاهر الجرجاني ، المصدر نفسه ، ص50

مُستوى التعبير المباشر، يَتم فيه النَقل من أجْلِ التملك، حيثُ تنقطع العلاقة مع الأصل، وهذا يَدخل ضِمنَ عَمل اللغة[198].

النوع الثّاني: الاشْتراك في صِفة مُجسدة في الطرفين بِمستويين مُختلفين لا نوعًا بلَ قُوة وضُعفًا مع اختلافِ جنس الطرفين يقُول **الجرجاني:**"هذا الضرب يُشبه الضرب الّذي مضَى وإن لم يَكن إياه وذلك أن يَكون الشبه مأخوذا من صِفة هي مَوجودة في كُل واحد من المستَعار له، والمستعار مِنه على الحقيقة وذلك قولك:"رأيت شمسًا " تريدُ إنسانًا يَتهلل وجَهه كالشمس، فهذا له شبه باستعارة طار لِغير الجناح، وكذلك إذا قلتَ: "رأيت أسدًا " تُريد رجلا، فالوصف الجامع بَينهما هو الشجاعة، وهي على حقيقتها مَوجودة في الإنسان، وإنما يَقع الفَرق بينه وبينَ السبع الذي استْعرت اسمه له فيها من جِهة القوة والضعف والزيادة والنقصان"[199]، "فَنُلاحظ أن هذه الاستعَارة أقَرب لِلحقيقة لِشدة الشبه وهو المستوى الذي يستعمل المعاني الحسية و يتفرع عن جنس مشترك"[200].

النوع الثالث : أخذُ الشّبه من الصُور العقلية كَما في تَشبيه الوَحي بالنور في قوله تَعالى :﴿ **و ا تبعُوا النورَ الذِي أنْزِ ل معَه** ﴾[201] ، "فالعلاقة بين الهدَى والنور لَيست في نَواة دلالية مُجسدة فيهمَا، وليست صِفة مُدركة بِالحس ومُشتركة بين الطرفين، وإنما هي في الأثرَ الذي يُحدثانه، والنتيجة الّتي يُوصلان إليهَا، وهي مُدركة بالعقل"[202] ، " و هذا كمَا تَعلم شَبَه لستَ تَحصل منه على جِنس، ولا طبيعة وغَريزة ، ولا عَلى هيئَة وصُورة تَدخل في الخلقةِ، وإنما هو صُورة عَقلية"[203]. وهذا الضرب يَراه الصميم الخالص من الاستعارة ، وهو المنزلَة ا لّتي تَبلغ عندَ ها الاستعارة غَاية شَرفهَا ، فلا يُبصرها إلا ذوو الأذهانِ الصافيةِ ، والعقولِ النافذة ، والطباعِ السليمةِ

(198) محمد العمري ، المرجع نفسه ، ص339

(199) عبد القاهر الجرجاني ، المصدر السابق ، ص55

(200) محمد العمري ، المرجع السابق ، ص339

(201) سورة الأعراف ، الآية157

(202) محمد العمري ، المرجع نفسه ، ص337

(203) عبد القاهر الجرجاني ، المرجع السابق ، ص57

، والنفوسِ المستعدة لأن تَعِي الحكمة ، وتعرفَ فصلَ الخطابِ ، لذلك تَحتاجُ إلى أعمال الفِكر لاستخراج المعنى[204].

ورغم أنه رأى مُستوى هذه الاستعارة هو المستوى التأويلي، إلا أنه جعلها أيضًا مَراتب و دَرجات بِقوله:"ولها هَاهنا أسَاليب كَثيرة ، ومسالك دقيقة ، وهي ثلاثة:

الأول: أنْ يُؤخَذُ الشبه من الأشْياء المشَاهدة والمدرَكة بالحوَاس على الجملةِ للمعاني المعقُولة.

والثاني: أنْ يُؤخَذ الشبه من الأشْياء المحسُوسة لمثلها إلا أن الشبه مع ذلك عقلي.

والثالث: أ ن يُؤخذَ الشبه من المعْقُول للمعقُولِ"[205]

إذن مُستويات الاستعارة مُختلفة لاختلاف مستويات نظمها ، وبالتالي مِنها مَا يَتوصل إليه بيُسْر وسُهولةٍ ومنهَا ما تَحتاج لجِهدٍ ومشقَةٍ. فهذا التَقسيم الّذي قَدمه الجرجاني حَاول **مُحمد العمري** أن يُلخصه في خَطاطة بَسيطة لِيوضحَ الاستعارة ا لّتي تَتطلب التَأويل من غَيرِها[206].

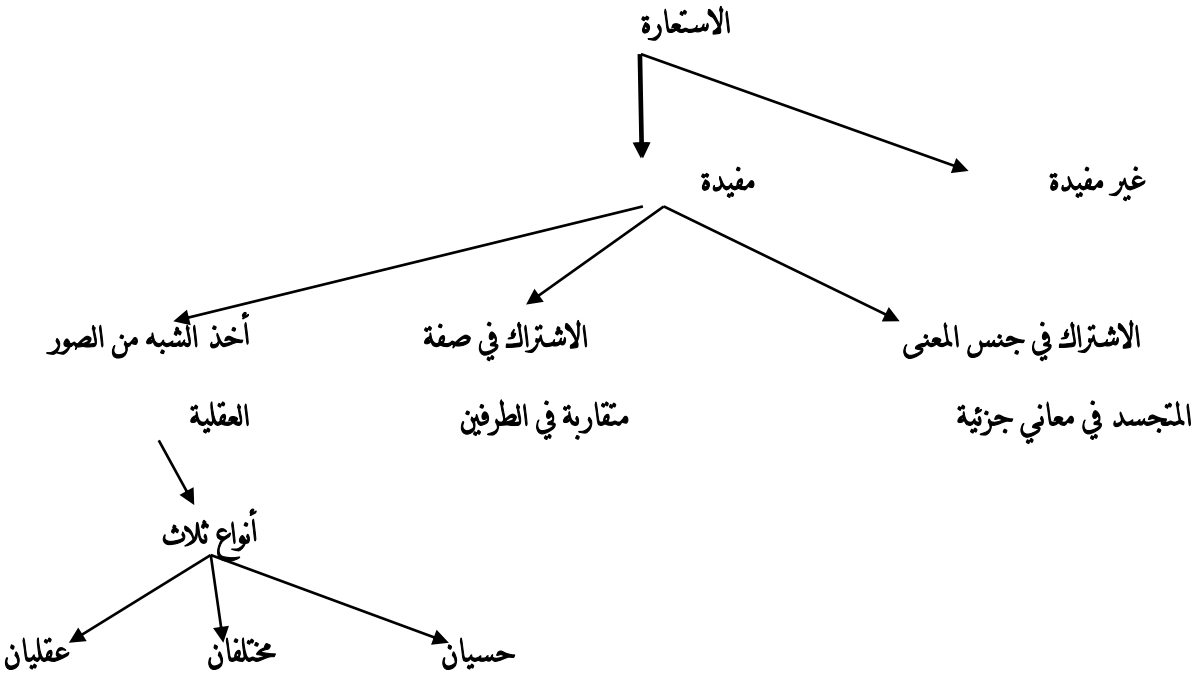

(204) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، ص57

(205) المصدر نفسه ، ص58

(206) محمد العمري ، المرجع السابق ، ص338

ولعل **الجرجاني** بدراستهِ للصورة الاستعارية قد قَدم لنَا نظرية تداولية مُتكاملة الجوانب: المبدِع، المتلقي، والنص، وكان بِإمكان لأفكارهِ هذه أن تُخرج لِلوجُود نَظرية في تَداولِ الصُورة المجازية لَوْ أن المتَأخرينَ اهتمُوا بهذَا الجانبِ و أولَو هُ نصيباً من البَحثِ والدراسة.

مما سبق يمكن القول إن نظرية أفعال الكلام التي جاء بها أوستن ومن بعده سيرل، وتقسيمها للأفعال بكل أنواعها (فعل القول، والفعل المتضمن في القول، والفعل التأثري) والأفعال المباشرة وغير المباشرة . لها جذور في كتب الجرجاني وأن نصوص هذه الكتب تحتوي على عناصر أساسية ومهمة في نظرية أفعال الكلام وان اختلفت العناوين و التسميات.

المبحث الثالث:

السياق بين البلاغة العربية والتداولية

تعريف السياق

السّياق إطار عامّ تنتظم فيه عناصر النّصّ ووحداته اللّغويّة، ومقياس تتّصل بوَساطَتِه الجُمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداوليّة ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النّصّ للقارئ. ويضبط السّياقُ حركاتِ الإحالة بين عناصر النّصّ، فلا يُفهَم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلِها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السّياق"[207].

فالسّياق هو الصّورة الكلّيّة التي تنتظم بداخلها الصّورَ الجزئيّةَ، ولا يُفهَم كلّ جزء إلا في موقعه من «الكلّ»، فالصّورةَ الكلّيّة تتكوّن من مجموعة كبيرة من النّقاط الصغيرة أو المتشابهة أو المتباينة، التي تدخل كلها في تركيب الصورة .

وتشير المعاجم المتخصصة في علوم اللغة واللسانيات إلى مفهوم محدّد للسياق كما نجد ذلك في قاموس السيميائيات لغريماس وكورتيس إذ عرّفاه بأنه "مجموع النصوص التي تسبق أو تواكب وحدة تركيبية معيّنة، وتتعلّق بها الدلالة، حيث يمكن أن يكون السياق صريحاً أو لسانياً، ويمكن أين يكون ضمنياً، وفي هذه الحالة يتميّز بأنه سياق خارج لساني أو مقامي"[208].

أما قاموس اللسانيات لجون دي بوا فيحدد معنى السياق بأنه "المحيط؛ أي الوحدات التي تسبق أو تلحق وحدة محدّدة، ويسمى بالسياق الشفوي. أو هو مجموع الشروط الاجتماعية التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات القائمة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني. وغالباً ما تُحدّد هذه العلاقات بالسياق الاجتماعي لاستعمال اللغة، ونحدّده أيضاً بقولنا:(المقام)، وهو مجموع المعطيات المشتركة بين المتكلّم والمستمع في مقام ثقافي ونفسي لتجارب كلّ منهما"[209] .

وقد تناول جانب المعنى المفسرون والبلاغيون والأصوليون، لكن الأصوليين كانوا أكثر

---

(207)عبد الرحمن بودرع ، منهج السياق في فهم النص ،ص 43

(208) A.J GRIMAS , J. COURTES : SEMIOTIQUE RAISONNE DE LA LANGUE , HACHTTE UNIVERSITE ; PARIS , 1965 , P:66 .

(209) JEAN DUBOIS , DICTIONNAIRE DE LINGUISTIQUE , LIBRAIRIE LARROUSSE , 1973 , P: 121 .

وضوحاً في تناوله، وأكثر تفصيلاً لدقائقه- كما سيأتي- وقد تناثرت أجزاء من بحث السياق في كتب النقد والبلاغة أيضاً، إذ اهتم أصحابها بأطوار اللفظة ومادتها اللغوية عامة، تمهيداً لتوجيه دلالتها في النص أو الموقف، وكذلك هناك تعليلات لإفادة المعنى من خلال نظم خاص للألفاظ لم تكن تفهم لولا استعمالها في نص معين[210].

السياق عند البلاغيين و النقاد العرب:

انصب اهتمام البلاغيين في دراستهم للسياق على فكرة (مقتضى الحال) والعلاقة بين المقال والمقام. فالدراسات القديمة بنيت أساساً على مسألة السياق والموقف الكلامي الذي يتطلب – كلما تغير – نمطاً معيناً من التركيب،ويدخل ضمن الموقف الكلامي بكل ما يتصل بظروف عملية الإبلاغ من مخاطِب، ومخاطَب، وخطاب، فالتداولية تتجاوز محددات الدلالة إلى إمكانية الوصول إلى قصدية المتكلم بإحالتها للجملة على السياق التداولي.

فأما مصطلح (مقتضى الحال) فقد اهتم به علماء (علم المعاني)، و (الحال) في اصطلاحهم يعدل (مقتضى الحال). يقول التهانوي: "والحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى المتكلم على وجه مخصوص؛ أي الداعي إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدى به أصل المعنى خصوصية ما هي المسماة بمقتضى الحال، مثلا كون المخاطب منكرا للحكم حال يقتضى تأكيد الحكم والتأكيد مقتضاها... وعلى هذا النحو قولهم (علم المعاني) علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال – أي يطابق صفة اللفظ مقتضى الحال، وهذا هو المطابق بعبارات القوم حيث يجعلون الحذف والذكر إلى غير ذلك معلَّلةً بالأحوال".[211] فمن الواضح أن أهل علم المعاني اهتموا بأحوال المتكلم والمستمع، والتعريف يقتضى أن يكون

(210) ينظر، الزركشي بدر الدين محمد بن بهادر ، البرهان في علوم القرآن ، ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، دار التراث ، القاهرة ، .197، ج2/ص172

(1) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج1/616-617.

المتكلم على علم بأحوال السامع قبل أن يتكلم؛ حتى يأتي بالكلام على صفة مخصوصة تتطابق مع حال المستمع.[212]

وإذا ما نظرنا إلى "المقال" على أنه يمثل "السياق اللغوي" فإننا نجد أن البلاغيين قد أولوه عناية كبيرة. وليس أدلّ على ذلك من ربط العلاّمة عبد القاهر الجرجاني فصاحة الكلمة بسياقها اللغوي والتركيب الذي قيلت فيه، حيث يقول: "وجملة الأمر أناّ لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنّا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلَّقا معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا في لفظة (اشتعل) من قوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)[213]؛ إنها في أعلى المرتبة من الفصاحة، لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولاً بها الرأس معرفا بالألف واللام ومقرونا إليها الشيبُ منكرّاً منصوبا".[214]

وإذا ما نظرنا إلى "المقام" على أنه يمثل "سياق الموقف" وجدنا ذلك أيضا واضحا عند البلاغيين، فهذا عبد القاهر الجرجاني يربط الكلام بمقام استعماله، ومراعاة مقتضى حاله وهو لب دراسة المعنى اللغوي عنده، ومنبثق من نظريته للنظم، وثار على اللغويين العرب؛ لأنهم لم يستفيدوا من مبدأ جيد وضعه سيبويه، مؤداه ربط الكلام بمقام استعماله، بل وقع في ظنهم أن كل تقديم أو تأخير أو حذف.. إنما هو للعناية والاهتمام كما قال صاحب الكتاب.[215]. ومن النماذج التي تؤكد اهتمام "عبد القاهر" بشقّي السياق في دراسته للتراكيب وما يعتروها من حذف، قوله: "ومما يجب ضبطه هنا أيضا: أنّ الكلام إذا امتنع حمله على ظاهره حتى يدعو إلى تقدير حذف، أو إسقاط مذكور، كان على وجهين:

---

(2) محمد سالم صالح،أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، ص:7.

(213) سورة مريم:الآية4.

(1)عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه و علق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة–مصر، الطبعة 2004/5، ص:402.

(2) محمد سالم صالح،أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، ص:8.

أحدهما: أن يكون امتناع تركه على ظاهره، لأمر يرجع إلى غرض المتكلم، ومثاله الآيتان المتقدم تلاوتهما[216]...

والوجه الثاني: أن يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره، ولزوم الحكم بحذفٍ أو زيادةٍ، من أجل الكلام نفسه، لا من حيث غرض المتكلم به، وذلك مثل أن يكون المحذوف أحد جزأي الجملة".[217] وهكذا يربط الجرجاني جميع القرائن النحوية – من تضام أو رتبة أو مطابقة– بمراعاة السياق اللغوي وسياق المقام،وما يتصل بالموقف من ظروف، وبكل ما له علاقة بحال المتكلمين وموضوع الكلام و المخاطبين وما يتصل بمشاعرهم على نحو ما مرّ في مثال "الخارجي. ومثال آخر يورده الجرجاني ليوضح أهمية السياق في دراسة كلمة (جسر) التي نجدها عدة في قول أبي تمام[218].

أن لا يطمعُ المرءُ يجتابَ لجته بالقْولِ ما لم يَكنْ جَسْراً لهُ العَمَلُ

وقوله: [219].

بَصُرْتُ بالرُّاحةِ العظمى فلمْ أرهَا. تُنالُ الاّ على جَسْرِ من التعَّب.

يقول الجرجاني " ترى لها في الثاني حسناً لاتراه في الأول، وترى لها ملاحة لاتجدها في غيره" [220].

كما في قول ربيعة الرقي:

---

(3) يقصد قوله تعالى (واسأل القرية) يوسف 82، وقوله تعالى (ليس كمثله شيءٌ) الشورى11.

(1)عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه و علق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة–مصر، الطبعة 1991/1، ص:421.

(2) ابو تمام، ديوانه، شرحه زكريا الخطيب البتريزي–مطبعة السلسبيل مصر .د.ت.ص113.

(3)المصدر نفسة:ص7.

(4) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز: 78ص–79.

قولي نَعمْ ونِعْم إن قلتِ واجبةٌ. قالت:عسى وعسىَ جسرٌ إلى نعمِ.

فالتداول في هذه الأشعار شمل الفكرة العامة المشتركة بين هؤلاء الشعراء، و الجرجاني يجعل المزية و الأفضلية لمن أحسن توظيف السياق.

يعلق الدكتور تمام حسان على مقولة "لكل مقام مقال" بقوله:"حين قال البلاغيون: "لكل مقام مقال" لأن صورة المقال تختلف في نظر البلاغين بحسب المقام، وما إذا كان يتطلب هذه الكلمة، أو تلك وهذا الأسلوب، أو ذاك من أساليب الحقيقة، أو المجاز والأخبار،أو الاستفهام وهلم جرا، ومن عبارتهم الشهيرة في هذه الصورة قولهم: "لكل كلمة مع صاحبتها مقام". وبهذا المعنى يصبح العلم الجديد الذي يأتي من امتزاج النحو والمعاني "مضمونا"، لأنه يصبح شديد الارتباط بمعاني الجمل ومواطن استعمالها،وما يناط بكل جملة منها من"معنى"، ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة "المقام" متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي "المقام، والمقال" باعتبارهما أساسيين متميزين من أسس تحليل المعنى..." [221].وقد عرفت البلاغة "بأنها مطابقة الكلام لما يقتضيه حال الخطاب- ويسمى بالمقام – مع فصاحة ألفاظه"[222] وما المطابقة إلا مراعاة أحوال المتلقين[223]،وربما كانت البلاغة في الاستماع، فان الخاطَب إذا لم يحسن الاستماع لم يقف على المعنى المؤدي إليه الخطاب والاستماع الحسن عون للبليغ على إفهام المعنى)[224].

يقول أبو هلال العسكري"إن المعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجديد للسوقي والنبطي والزنجي...وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها، وقد يقع للمتأخر

---

(1) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط4 ،1325ه،2004م 337.

(2) احمد الهاشمي، جواهر البلاغة،المكتبة التجارية الكبرى مصر ،ط12،1379هـ1960م، ص32-33.

(3) محمد بركات حمدي ابو علي، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، دار وائل ،بيروت ط2003م،ص15..

(4) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين،ص25.

معنى سبقه إليه المتقدم من غير أن يلم به، ولكن كما وقع للأول، وقع للأخر"[225]؛ ووفقا لهذا المعنى يعرف السياق بأنه مجموع شروط إنتاج القول، وهي الشروط الخارجية عن القول ذاته، والقول هو وليد قصد معين، يستمد وجوده من شخصية المتكلم ومستمعه.

وكذلك يقول أبو هلال العسكري في حسن الأخذ: "ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حليتها الأولى ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها، وكمال حليتها ومعرضها فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها."[226] فتداول المعاني يقع في الصناعة الشعرية وتجاوز المألوف إلى ما هو جديدة مبتكر؛لا في المعاني المجردة ذاتها، لأن المعنى المبتكر هو غاية تداول المعاني، وهو يتحقق في الانسجام الذي ينبع من السياق الذي هو"تفاعل المتلقي بالملفوظ الكلامي"[227].

ويقسم الباحث صابر محمود الحباشة، السياق على قسمين هما:السياق المقامي؛وهو الذي يوجب خصوصية العمل اللغوي، وهو ذو بعد دلالي تركيبي، والسياق الحالي؛وهو الأمر الداعي إلى الكلام مكيف بكيفية مخصوصة مناسبة، ومن أمثلته: حال خلو الذهن، وحال التردد، وحال الإنكار[228]،وهذه الأمور تتعلق بالمخاطب إذا كان خالي الذهن يتوجه له القول خاليا من المؤكدات نحو: **محمدٌ ذاهبٌ** أما إذا كان متردداً بين تصديق الذهاب من عدمه، فنستعمل مؤكداً واحداً نحو: **إن محمداً ذاهبٌ**. وأما إذا كان المخاطب منكراً تماماً لمسألة الذهاب، فعند ذلك يحتاج إلى مؤكدين أو أكثر لإزالة حال الإنكار العالق بذهنه نحو: **إنّ محمداً لذاهبٌ** .

---

(5) م. نفسه، ص217 .

(1)م.نفسه، ص217.

(2) إبراهيم خليل، في نظرية الأدب وعلم النص، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1331هـ -2010م.ص304.

(3) صابر محمود الحباشة ،مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية قراءة في شرح التلخيص للخطيب القزويني: ص149 .

فالتداولية تتمركز حول البعد العملي للمعنى،لأنها تميز بين معنيين في كل ملفوظ الأول: هو معنى الجملة أو ما يعرف بالقصد الإخباري، والثاني: هو القصد التواصلي، وهو ما يعرف بمعنى المتكلم، وهذا ما نجده واضحا في البلاغة العربية في علم البيان،
والبديع، والمعاني، فالسياق وأثره في تحديد المعنى واضح في المباحث البلاغية.

وإذا رجعنا إلى عبد القاهر الجرجاني فالسياق عنده "لا يعدّ الكلمة نقطة بدْء... وإنّما العكس هو الصحيح فالسياق هو نقطة بدْء، بحيث لا يمكن وجود كيان للتعبير إلا من خلاله، وحينئذ من الواجب رصد السياق ثم البحث عن الألفاظ وعلاقاتها فيه ثانياً؛ وهذا يؤكد أن حديث عبد القاهر عن النظم هو حديثة عن السياق لأنه أراد من النظم جلاء المعنى في كل مستوياته اللغوية والمقامية، أي أن السياق قد يعطي المدلولات التي لا يمكن أن تعزى بشكل مباشر بسيط إلى وحدة معينة أو وحدات مضمومة إليه"[229].

الجرجاني أثناء تأصيله لنظرية النظم يتكلم عن عدة أنواع للسياق هي:

1. **السياق النحوي** : يقول:"اعلم أن ليس النَّظْمُ، إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه،علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمِت لك"[230]فهو عنده "يدرس العلاقات المتبادلة بين الأشكال في النظم النحوية القائمة في اللغة."[231]

فالأحكام النحوية ضرورية لصلاح النظم "فلستَ بواجدٍ شيئاً يرجع صوابه إنْ كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأ، إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم، إلاّ وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه أو عُومِل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن

---

(229) عواطف كنوش مصطفى ، الدلالة السياقية عند اللغويين ، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى 2007، ص 147

(230) الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص 81

(231)عواطف كنوش مصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين : ص152

موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وُصِف بصحَّةِ نَظْمٍ أو فساده، أو وصف بمزيَّةٍ و فضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه"[232]

ويتفق أوستن مع الجرجاني في هذا التوجه؛ حين يقول:" إن كانت الصياغة اللفظية متعينة لتأدية الألفاظ على خير وجه وبالوقت نفسه لم تكن متوخية قصد النظم Misfires ستكون مخالفة للقواعد، وعدم صحة الاستعمال هذه يصح أن يطلق عليها (مصطلح القدح)[233].ومعنى القدح عند أوستن هو الفساد[234]. وإذا تأملنا نصوص الجرجاني عن السياق النحوي سنصل " إلى نتيجتين مهمتين هما:

1- مراعاة القواعد النحوية .

2- تعلق أجزاء الكلام بعضها ببعض وارتباطها الداخلي بين صيغ التراكيب"[235] .

ومن أهم ما عالجه الجرجاني في السياق النحوي ما يسميه "التعليق"؛ يقول الدكتور (تمام حسان) بأن أخطر شيء تكلم عنه الجرجاني على الإطلاق هو (التعليق) وعرفه الدكتور بأنه أنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة ما يسمى بالقرائن اللفظية والمعنوية والحالية.[236] "ومن أهم مبادئ نظريات العلاقات الحديثة هو مبدأ التعلق والارتباط بين أجزاء الكلم."[237] والجرجاني وضع حداً لهذا المبدأ بقوله:"معلومٌ أنْ ليس النَّظْمُ سوى تعليق الكَلِمَ بعضها ببعض،

---

(232)الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص 82 – 83

(233)ج أوستين ، نظرية افعال الكلام العامة، ص27

(234) المصدر نفسه :ص 29 – 30

(235)عواطف كنوش مصطفى ، الدلالة السياقية عن اللغويين ، ص 153

(236)تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب الطبعة الخامسة 1427 هـ - 2006 م ،ص188

(237)هدى محمد صالح الحديثي ، جوانب من النظرية اللغوية العربية في ضوء الدراسات الحديثة ،مجلة المجمع العلمي ، المجلد 48 ، 1421 هـ - 2001 م ،ص49

وجَعْل بعضهِا بسبب بعض. والَكِلم ثلاثُ: اسم، وفعلُ، وحرفُ. وللتعليق فيما بينها طُرق معلومة، وهو لا يَعْدُو ثلاثة أقسام: تعلَّقَ اسم

باسم وتعلق اسم بفعل وتعلّقُ حرفٍ بهما"[238]؛ أي لخص علاقات الكلم في قانون نحوي هو توالد الجمل في داخل هذه الأقسام في نهايتها[239].وهذا ما يسمى بمفهوم (القدرة) comperence، وعبد القاهر كان سباقاً في إدراك هذا المفهوم على وجه الدقة؛ كما تبنته النظريات التداولية و التوليدية التحويلية التي تعتبر "إن القدرة اللغوية التي تمثلها الكفاية الذاتية الكامنة، التي يمتلكها كل متكلم أو مستمع جيد للغته، والتي من شأنها أن تسمح لصاحبها بتوليد عبارات وجمل لا نهاية والتي تعد من أساسيات النظرية التوليدية التحويلية."[240]

إن مصطلح **التعليق** الذي استعمله عبد القاهر على أساس العلاقات السياقية، هو الأساس الذي سار عليه المحدثون في تفسير كثير من العلاقات السياقية، ومن خلال هذا المصطلح يتضح لنا أن عبد القاهر كان يشير إلى ما يسميه المحدثون **(الجانب الرصفي)**، بمعنى أن اللفظة لا بدَّ لها من علاقة أو حالة لارتباطها مع ما قبلها وما بعدها في السياق[241]،وبهذا يقول عبد القاهر:"ومعلوم علمَ الضرورة أن لنْ يُتَصوَّر أن يكون للفْظةٍ تعلق بلفظة أخرى من غير أن يُعْتَبر حالُ معنى هذه مع معنى تلك، ويُرَاعى هناك أمرُ يَصِل إحداهما بالأخرى "[242]؛ و مفهوم الرصف في النظرية السياقية الحديثة هو: مراعاة وقوع الكلمات مجاورة بعضها بعضاً، إذ يعد هذا الوقوع أحد معايير تحديد دلالة الكلمة، إذ أن وضع الصيغة في سياق معين يعدّ

---

(238) الجرجاني، دلائل الاعجاز ، ص 4

(239)محمد عبد المطلب ، قضايا الحداثة عند عبد القاهر ، مكتب لبنان ناشرون – الشركة المصرية العالمية للنشر ، الطبعة الاولى 1995،ص 73 – 74

(240) حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي واشكالاته، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى 2009،ص180

(241) عواطف كنوش مصطفى ،الدلالة السياقية عند اللغويين :ص 157 – 158

(242) الجرجاني، دلائل الاعجاز : 406

المنفذ المهم لتحديد مجالها الدلالي، فلا يمكن أن ترد الصيغة اللغوية بمعزل عن السياق النفسي أو الاجتماعي الثقافي.[243]

2. السياق الصرفي:

تحدّث الجرجاني عن بنية الكلمة واثر الوحدات الصرفية وقيمتها في الجمل وان أي زيادة في مبنى الصيغة تلحقها زيادة أو تأثير في المعاني النحوية؛ ومن ذلك قوله:" من هذا النوع حروف الإلحاق لأجل أن تؤدي الغرض هو أن تجعل لفظاً يليه آخر أو يزيله آخر، فهو يشير إلى زيادة الحروف تؤدي الغرض الذي من اجله زيدت أو حذفت في السياق أو أن التركيب فمن الزيادات التي تلحق المباني وتغير معناها ، ألف ضارب لأنه يدل على الفاعلية ، وكذا ميم مضروب لأنه يدل على المفعولية"[244] كما ذكر أن أي زيادة أو حذف في الحروف اللفظة الواحدة يغير من معناها وضرب المثل في الاختلاف بين كلمة (عوارف) و (وارف) في قول البحتري :

وكــم سبقــَتْ منــه إلــيَّ عــوارفُ ثنــائــي مــن تــلك العــوارف وارفُ

"وذاك أنَ زيادة (عوارف) على (وارف) بحرف اختلاف من مبدأ الكلمة في الجملة"[245] وذكر أيضا في "الأسرار" بأن اللفظة لا تستعمل حسب التوهم أو العرف وإنما يجب أن تخضع للأحكام الإعرابية والصرفية فإن لم تخضع لتلك الأحكام أصبحت عامية لا فضل فيها للعربي على الأعجمي يقول:"لا تُستعملَ لفظةٌ تُوهُم انه مِن عُرْفِ هذه اللغة وطُرُقها الخاصة بها، كما تقول مثلاً فيما يختصُّ باللغة العربية من الأحكام نحو الإعراب بالحركات والصرف ومنع الصرف ووضع المصدر مثلاً موضع اسم الفاعل نحو (رجلُ صَوْمُ) و (ضيف) وجمع الاسم على ضروب نحو جمع السلامة والتكسير وجمع الجمع وإعطاء الاسم الواحد في التكسير عدة

---

(243) تراث حاكم الزيادي ،الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني ، مؤسسة دار الصادق الثقافية، الطبعة الأولى 2011 م – 1432 هـ ، دار الصفاء للنشر والتوزيع، ص 146

(244) الجرجاني ، المقتصد ج 1 /ص 83 وما بعدها و ص132 وما بعدها

(245) الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص16

أمثلة نحو (فَرخ) و (أفرخ) و (فراخ) و(فروخ) وكالفروق بين المذكر والمؤنث في الخطاب وجملة الضمائر وما شاكل ذلك."[246]

فالجرجاني يعطى الجانب الصرفي اهتماماً كبيراً ويعدّهُ من الجوانب المهمة في تحديد المعنى داخل السياق، أي أن تغيير المبنى يؤدي إلى تغيير المعنى المقصود داخل السياق الذي يحتويه. والدرس اللساني الحديث أعطى السياق الصرفي أهمية في"دراسة المورفيمات واتساقها في تكوين الكلم، والوظيفة الأساسية له دراسة المتغيرات المنتظمة في الشكل المرتبط بتغيرات في المعنى. لكنه وفي المفهوم اللساني الحديث يتسع ليشمل دراسة القوانين المفترضة من لدن اللسانين لتفسير التغييرات في أشكال الكلم."[247]

3. **السياق الصوتي:** يقول الجرجاني عن هذا:"وذلك أن، نظم الحروف، هو تواليها في النطق، وليس نظُمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم بمقتفٍ في ذلك رسْماً من العقل اقتضى أن يتحرَّى في نظمه لها ما تحرَّاهُ . فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال ربض مكان ضرب، لما كان في ذلك ما يؤديّ إلى فساد"[248]. ويقول أيضا:"لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظّي، وتعديل مَزِاج الحروف حتى لا يتلاقى في النطق حروف تَثْقُل على اللسان كالذي أنشده الجاحظ من قول الشاعر.

وَقَــبْــرُ حــربٍ بمــكانٍ قــَفــْرِ ولــيس قــُرْبَ قــَبْرِ حَــرْب قــَبْرُ.

قال الجاحظ: فتفقّد النصف الأخير من هذا البيت، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرَّأ من بعض، ويزُعَمَ أن الكلام في ذلك على طبقات، فمنه المتناهي في الثّقل المُفْرِط فيه، كالذي مَضَى، ومنه ما هو أخفُّ كقول أبي تمام:

كرِيمٌ متى أمْــدَحْه أَمْــدحْهُ والــوَرَى جميعاً، ومَهْمَا لُمْــتهُ لُمتُهُ وَحْــدِي.

---

(246) المصدر نفسه، ص 24–25

(247) عاطف فضل محمد ، مقدمة في اللسانيات : دار المسيرة ، الطبعة الأولى 2011 م – 1432 هـ، ص 111

(248) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 49

ومنه ما يكون فيه بعض الكُلْفةَ على اللسان .. ويَزْعُمَ أن الكلام إذا سلم من ذلك وصَفَا من شَوْبه، كان الفصيح االمُشَادَ به والمشار إليه."[249]

مما سبق يتضح إدراك عبد القاهر لأهمية الصوت "في سياقه وان لا معنى للحرف أو الصوت منعزلاً عن السياق فهو يربط الصوت بمقام استعماله، ولأنه يتناول التركيب العام للسياق اللغوي فليس هناك معنى إلا من خلال السياق، كما انه لا علاقة بين صوت الكلمة ومفهومها، لان المفهوم يتحدد في ذهن الإنسان وهذا يتأتى من العلاقات القائمة بين الكلمات في السياق."[250] كما أنه فقد يفرق بين (نظم الحروف) أي تنظيم أصوات الكلمة الواحدة وبين نظم الكلام، أي: بناء الجمل والتراكيب من المفردات.بل ان عبد القاهر يذهب الى ابعد من هذا في توضيح اهمية السياق الصوتي؛ حيث ان هذا السياق يحدد مدى ملاءمة الكلمة الواحدة في السياقات المختلفة؛ ويمثل لذلك بقوله: "ومما يَشْهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتُؤنِسك في موضع، ثم تراها بعينها تَثْقل عليك وتُوحِشك في موضع آخر، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة:

تلَفَّتُ نحو الحَيَّ حَتى وَجَدْتنِي وَجعْتُ مِن الاصْغَاء ليتــاً واخدَعا

فكلمة (أخدع) في هذا البيت لا يخفي منها الحسن.أما في بيت أبي تمام :

يا دَهْرُ قَوِّم مِنْ أخْدَعَيْكَ ، فَقَدْ أضْجَجْتَ هَذا الأنام مِنْ خُرُقِك

فتجد لها من الثّقَل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الرَّوْح والخِفَّة، ومن الإيناس والبهجة".[251] فاللفظة يتحدد معناها في ضوء مستواها الصوتي (فكلمة) (الأخدع) توافقت في البيت الأول وليس كذلك في بيت أبي تمام. وهكذا يفاضل عبد القاهر بين لفظة ولفظة على أساس السياق في ضوء المستوى الصوتي وارتباط هذه الألفاظ مع بعضها البعض في النظم" وبهذا الإدراك يتجاوز الجرجاني حدود اللفظة المنفردة، بل يكاد لا

---

(249) المصدر نفسه :ص 57 – 58

(250)عواطف كنوش مصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين :ص 147

(251)ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز :ص 46 – 47

يعطيها الأهمية إلا بمقدار أثرها في خلق النظم، ذلك أن اللفظة لا تتميز بحسن ذاتي، وإنما يتحقق لها ذلك من خلال التركيب."[252]

فالجرجاني يضع قاعدة أساسية هي أن الكلمة لا توصف بأنها حسنة في موسيقاها إلا إذا وُضعت في مكانها اللائق بها من السياق، كما إنها لا تكتسب قدرتها التناسقية من ذاتها فقط وإنما من جملة اعتبارات أخرى بعضها يتصل بالسياق نفسه وما يزيدهُ على الكلمات من موسيقى.

يتفق عبد القاهر في كل هذا مع (فيرث) فيما سماه (احتمالية الوقوع أو التلازم) وما جاء به هذا المنهج لأنه" لا يهتم إلا بالسياق اللفظي أو اللغوي Verbalcontext أي بيان مجموعة الكلمات التي تنتظم معها الكلمة موضوع الدراسة، وقد ادخل (فيرث) هذا المفهوم (مفهوم اللازمة collcation) في نظرية المعنى."[253] فقد جعل (فيرث) النظام الصوتي للغة يتألف من عدة أنظمة Palysystemic، وليس من نظام أحادي Monosxstemic تمثّل في سر الوحدات الصوتية (الفونيمات على أساس توزيعها الخطي) ولذلك فالتحليل ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار التشكيلات الصوتية أو التطويرات الصوتية Prosadic features التي تبرز في أماكن مختلفة من المقطع أثناء الاستعمال.وتحدث (فيرث) أيضا عن مفهوم التساوي colloction الذي يعكس فكرة البناء والتساوي في

صياغاته المبكرة والذي قصد به الترابط الأفقي الطبيعي ما بين الكلمات.[254]

4. **السياق الدلالي:** "ويسميه عبد القاهر الإبانة عما في النفس أو البيان أو تمام الدلالة."[255] والدلالة السياقية عند عبد القاهر، هي التي تدرس المعنى الذي من أجله

---

(252)عطية أحمد أبو الهيجاء ، معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني بين التنظير والتطبيق، الثقافة – دار الخليج ، الطبعة الأولى 1431هـ – 2010 م،ص 137

(253)عواطف كنوش مصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين ،ص 198

(254) ينظر : يحيى احمد ، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون ، ع3، 1989، ص 87

(255)عواطف كنوش مصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين ، ص 158

أقام النظم ويتم بمراعاة أحكام النحو، فالنظم عنده ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيه.[256]ويقول:"لا يكون لإحدى العبارتين مزيَّة على الأخرى، حَتَّى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها"[257].

فعبد القاهر في حديثه عن السياق الدلالي "يراعي الجانب الشكلي دون أن ينظر إليه قانوناً مجرداً بل وسيلة الفهم والاتصال ويتحقق ذلك عن طريق فهم دلالة الجملة أو النص التي تنتج من علاقة المفردات بعضاً ببعض وتتفاعل مع الوظائف النحوية تفاعلاً يكسبها معناها المناسب من خلال تعانق السياق النحوي والدلالة."[258]فعبد القاهر يربط النحو بالدلالة، وبين أهمية هذا الربط، وضرورة اعتماد المكون الدلالي، تلك العلاقة التي تأخرت النظرية التوليدية التحويلية في إدراكها، ومعرفة أهميتها.

"وإنَّ عبد القاهر بهذا الربط بين النحو والدلالة يقترب من (مدرسة المعاني المولدة) (Generative Semantice)، وهي مدرسة تجعل صفاتها البارزة،(الاهتمام بالمعنى إلى جانب النحو في التحليل اللغوي) مما مهد إلى قيام بعض اللغويين مؤخراً من أمثال ماكولي (Macwalay) وغريدي(Grady) بتوجيه الدعوة نفسها التي وجهها الجرجاني."[259]

5. **السياق الأسلوبي:** أهتم عبد القاهر بقضايا السياق الأسلوبي،"وبيّنَ أن استعمال القواعد النحوية في الصيغ والأساليب التعبيرية وما يصطحبها من تغير في دلالة الكلمة تبعاً لتغير في النظم والأسلوب يعطي لنا خصائص تعبيرية أخرى وفقاً لأسلوب منشئها أو طريقته في التعبير، فالقيم التعبيرية لها طبيعة جمالية من الناحية الأسلوبية ومن هنا تخصص كل فرد بلغته، أي ينفرد في أسلوبه عن المجموعة التي ينتمي إليها."[260] ويوضح الجرجاني ذلك بقوله: "واعلم أن (الاحتذاء) عند الشعراء وأهل العلم بالشّعرِ

---

(256) ينظر: دلائل الاعجاز، ص 370

(257) المصدر نفسه، ص 258

(258)عواطف كنوش مصطفى، الدلالة السياقية عن اللغويين ، ص 159

(259) حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته،ص 183

(260)عواطف كنوش مصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين ، ص159

وتقديره وتمييزه، أن يبتدئ الشاعر في معنىً له وغَرضِ أسلوباً و (الأسْلوب) الضّرْبُ من النَّظم والطريقةُ فيه، فَيَعْمِد شاعُر آخر إلى ذلك (الأسلوب) فيجيء به في شعره، فُيشَبّهَ بمن يَقْطع من أدِيمه نَعْلاً على مثال قد قطعها صاحبها".[261] ونجد أن جورج بوفون (1707 – 1788) يذهب إلى ما ذهب إليه الجرجاني"أن كل فرد يتميز بأسلوبه حيث ذكر جورج في عمله المشهور (مقال الأسلوب) الذي انتهى فيه إلى أن (الأسلوب هو الرجل)."[262] كما نلحظ أيضاً أن عبد القاهر يربط الأسلوب بطريقة أداء المعنى على وجه مُعَّين عن طريق التَّمثيل، قال:"وان كان مما مضى إلا أن الأسلوب غيره، وهو أن المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يُحوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمّة في طلبه. وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر، وآباؤه أظهر، واحتجابه أشدّ."[263]

شبه الجرجاني طريقة النظم والأسلوب بعمل لوحة فنية تحتاج إلى التمعن والتفتن في كيفية مزج الأصباغ مع بعضها حتى تكون هذه اللوحة بأروع صورة قال:"ليس من فضل ومزيّة إلا بحسب الموضع، وبحَسَب المعنى الذي تريد والغَرَض الذي تؤمُّ. وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعْمَلُ منها الصور والنقوش، فكما أنك ترى الرجل قد تَهَدَّى في الأصباغ التي عمل منها الصُّورة والنقش في ثوبه الذي نَسَج، إلى ضرب من التخيرُّ والتدبُّر في أنفُس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها، إلى ما لم يَتَهدَّ إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجبَ وصورتهُ أغرب ".[264]

6. السياق النفسي: "ويقصد به ربط الأثر الذي تتركه عملية التلاحم بين القيم اللفظية والمعنوية في البناء التركيبي للنصوص، وآثاره النفسية في كل من المبدع والمتلقي، إذ

---

(261) الجرجاني، دلائل الاعجاز ، ص 468 – 469

(262)محمد عبد المنعم خفاجي ،محمد السعدي فرهود ،عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية ،1412هـ –1992م .ص 12

(263) الجرجاني، أسرار البلاغة ، ص 87

(264) الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص 87 – 88

لا بدّ منه لتأثير الأسلوب في المتلقي وانفعاله به، لاسيما الانفعال الذي يثيره فيه النص، إذا جاء على أسلوب خاص من أساليب القول ومن غيره."[265] قال الجرجاني:"وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكْراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتَّب لك بحُكْم أنَها خدَمٌ للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علمٌ بمواقع الألفاظ الدالَّة عليها في النطق."[266]فالقصد من النظم يُعزا إلى ترتيب المعاني في النفس لا إلى اللفظ، لا يتم الوصول إلى فهم الكلام إلا عن طريق القلب والاستعانة بالفكر وهذه من أهم العوامل النفسية للمخاطب وآثر الكلام فيه. فالجرجاني يؤكد على أهمية العوامل الحسية النفسية وتأثيرها في المخاطب وهذه العوامل النفسية هي التي تحدد تقبل النص من لدن المخاطب ونجاحه .

ويلاحظ "من ذلك أن الذي يهم هو مدى استيعاب القارئ أو المتلقي للمعاني، ومدى تأثير تلك المعاني في نفسه، والذي يلفت النظر في هذا (الملحظ النفسي) تفسير الجرجاني لبعض الظواهر اللغوية النحوية في ضوء حقائق ومبادئ نفسية استرشد بها الجرجاني لتفسير هذه الظواهر."[267]وفي علم اللغة الحديث "ظهر ما يعرف بـــ(علم اللغة النفسي) الذي يمثل (مجموعة تلحق بعلم اللغة وتركز عملها في البحث عن العلاقة بين المتكلم والكلام الذي يرسله) إذ ينبثق من العلاقة التي تجمع بين علم اللغة وعلم النفس، ويستند في أصله إلى تفسير الحقائق اللغوية على أسس عقلية أو نفسية."[268] ويتكلم عن هذا (بيير غيرو) فيقول:"أخذ مصطلح المدلول هنا بمعناه الايجابي، أي من الفعل (Signi – Fiction) وهذه قضية نفسية في حين المصطلح (معنى – Sens) يحتوي على قيمة سكونية (Statique)، وهي الصورة الذهنية التي

---

(265) تراث حاكم الزيادي ، الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني، مؤسسة دار الصادق الثقافية، الطبعة الأولى 2011 م – 1432 هـــ ، دار الصفاء للنشر والتوزيع، ص 104

(266) الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص 54

(267)تراث حاكم الزيادي ، الدرس الدلالي عند عبد القاهر ، ص 105

(268)تراث حاكم الزيادي ، الدرس الدلالي عند عبد القاهر ، ص 104

تنتج عن القضية. وسنتجنب الخلط بين المصطلحين خلافاً لما تفعله اللغة العادية التي تستعمل المدلول أو الكلمة بلا مبالاة ."[269]و يقول ايضا:"يتعلق المدلول بعلم النفس، بينما يتعلق موضوع الدلالة اللسانية بدراسة معنى الكلمات.ولكن المعنى يتصل اتصالاً وثيقاً بآلية تشكيل الدال (Singnification). ويجب أن تلقي نظرة على مجموع المدلول التي يشكل الكلام جزءاً خاصاً منها، وذلك قبل أن تدخل في التحليل أو قبل أن نعطي تعريفاً ولو بسيطاً للمعنى الدلالي."[270]

آراء الجرجاني هذه تعكس رؤيتهِ الدقيقة لأهمية السياق النفسي في تغيير معنى النَظْم .

(269)محمد عبد المنعم خفاجي ،محمد السعدي فرهود ،عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية ،1412هـ -1992م ، ص22

(270) المصدر نفسه، ص22 – 23

المبحث الرابع:

المقصدية في الخطاب البلاغي و النقدي العربي القديم

أولا : مفهوم المقَصْديَّة

1. المقصدية لغة: "استقامة الطريق: قصد، يقصد، قصدا، فهو قاصد"[271]

وفرَّقَ أبو هلال العسكريُّ (ت 395هـ) بينَ القصْدِ والإرادةِ، إذ يرى "أنَّ قصْدَ القاصدِ مختصٌّ بفعلِهِ دونَ فعلِ غيرِهِ، والإرادةُ غيرُ مختصَّةٍ بأحدِ الفعلينِ دونَ الآخَرِ، والقَصْدُ أَيضًا إرادةُ الفعلِ في حالِ إيجادِهِ فقط، وإذا تقدَّمَتْهُ بأَوقاتٍ لم يُسمَّ قَصْدًا، ألا ترى أنَّه لا يصحُّ أنْ تقولَ: (قصدْتُ أَنْ أَزورَكَ غدًا) ..."[272]. فالقَصْدُ يختصُّ بفعلِ الإنسانِ نفسِهِ. ولكنَّ الإرادةَ أَوْسعُ، إذ تَشملُ فعــلَ الإنسانِ نفسِهِ وفعلَ غيرِهِ، والقصْدُ يكونُ في حالِ إيجادِ الفعلِ، فإذا تقدَّمَ على الفعلِ زمنيًّا سُمِّي إرادةً وليسَ قَصْدًا.

وفرَّقَ أبو هلالٍ أَيضًا بينَ الهمِّ والقَصْدِ، إذ يرى "أَنَّهُ قد يهمُّ الإنسانُ بالأمرِ قبلَ القصدِ إليهِ، وذلك أَنَّهُ يبلغُ آخرَ عزمِهِ ثُمَّ يَقصدُهُ"[273]. فالهمُّ يَسبقُ القَصْدَ؛ لأَنَّ الإنسانَ يهِمُّ بفعلِ شيءٍ ما قبلَ قَصْدِهِ، أَي : يُرجِّحُهُ على تركِهِ ، فَيَعزمُ على فعلِهِ ، ثُمَّ يقصِدُهُ .

ويقتربُ القَصْدُ من المعنى اللُّغويِّ للنيَّةِ، إذ إِنَّ النيَّةَ هي ما يَنوي الإنسانُ بقلبِهِ فعلَ شيءٍ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ مِنْ غير تردُّدٍ.فالقَصْدُ ــ وإنْ كانَ مُفَسِّرًا لفعلِ الإنسانِ بعدَ صدورِهِ ــ يكونُ مُتَّصلا بالفعلِ ومُلازمًا لهُ؛ إذ لا قَصْدَ مِنْ دونِ صدورِ فعلٍ لغويٍّ أو غيرِ لغويٍّ، ولكنَّ النيَّةَ قد تكونُ مُصاحبةً للفعلِ أو مِنْ دونِ فعلٍ؛ لأنَّ الإنسانَ قد ينوي فعلَ شيءٍ ما ولا يصدرُ منهُ هــذا الفعلُ .

ويتبيَّنُ مِمَّا تقدَّمَ أنَّ القَصْدَ تتجاذبُهُ معانٍ مُتنوِّعةٌ، فهو الاستقامةُ وإتيانُ الشَّيء والعزمُ والتَّوجُّهُ، وهو في المجازِ ضدُّ الإفراط أي بمعنى التَّوسُّطِ، بيدَ أَنَّ الأَصلَ له هو التَّوجُّهُ إلى

---

(271)ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1 ، .199. مج3، مادة(ق ص د)

(272) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية ، ص 126 .

(273) المصدر نــفــســه :ص 127 .

عملِ شيءٍ ما، فهو مرحلةٌ أَخيرةٌ مِنَ الإرادةِ قريبةٌ مِنَ العملِ.

2. المقصدية اصطلاحا:

توالت تعريفات المقصدية من الناحية الإصطلاحية، فقد عرفها الطاهر بن عاشور بأنها "المعاني والحكم الملحوظ للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغاياتها العامة، والمعاني التي لا يخل التشريع من ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم، ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة"[274].

ويرى"طه عبد الرحمان" أن القصد هو ذاته المعنى وهو قائم عليه في أنواع المعاملات والعقود الشرعية وهو يحيلنا على ذلك المبدأ التداولي والذي سماه بمبدأ التصديق كما صاغه بقوله: "لا تقل لغيرك قولًا لا يصدقه فعلك"[275]وهو مبدأ تتفرع منه عدة قواعد، أهمها قاعدة القصد،ومقتضاه ضرورة الكلام، بالاعتماد على كفاءة المخاطِب والمخاطَب، الذي ركزت عليه البلاغة العربية، في ميدان الدراسات التداولية، باعتباره أحد فروعها.

وتشكل ظهور نظرية أفعال اللّغة، صلة جديدة بين المقصدية والتدولية "فبدون معرفة المقاصد، لا يمكن أن يستدل بكلام المتكلم على ما يريد، لأن المواضعة وإن كانت ضرورية لجعل الكلام مفيدا فهي غير كافية، إذ لابد من اعتبار المتكلم أي قصده"[276] فللمتكلم دور بارز في نظرية المقاصد تربطه بالمخاطب، عن طريق علاقة تأثير وتأثر أثناء تأدية الكلام.

كما قدم السيوطي في كتابه" الإتقان في علوم القرآن "،بالحديث عن المعاني الضمنية غير المباشرة، المجسدة في المقاصد الإجمالية "... الهمزة وتأتي على، وجهتين :أحدهما الاستفهام وحقيقته طلب الإفهام، وهي أصل أدواته ومن ثم اختصت بأمور ... أحدهما جواز حذفها...

---

(274) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون للنشر والتوزيع، ،تونس ، ط2، 2007، ص51

(275) طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص250

(276)المرجع نفسه، ص199

ثانيهما :أنها تدخل على إحداهما التنكير والتشبيه والآخر التعجب في الأمر العظيم..."[277]وعليه فإن الكلمات التي تنفرد بمعاني جديدة عن استعمالها يمكن أن تحمل أكثر من معنى ضمني، والمجسد في القصد التواصلي؛ و المفعلة بعناصر السياق، والمحيطة بالخطاب من المتلقي والمخاطب ،مما يستدعي ضرورة الكفاءة اللّغوية والتداولية، لإبلاغ المقاصد وتوظيفها داخل الخطاب، وكيفية توصيلها من طرف المتكلم في تجسيد تلك المعاني الضمنية واستيعابها وبلورتها في ذهن المتلقي.

وينص" التهانوي "على أن أهل العربية يشترطون القصد في الدلالة فما يفهم من غير المتكلم لا يكون مدلولا للفظ عندهم فإن الدلالة عندهم هي فهم المقصود،لا فهم المعنى مطلقا بخلاف المنطقيين، فإنها عندهم فهم المعنى مطلقًا سواء إرادة المتكلم أم لا، فظهر أن الدلالة تتوقف على الإرادة مطلقا مطابقة كانت أم تضمنًا[278]؛ فظهور المعنى مرتبط بمعرفة قصد المتكلم وارتباط القصد في الكلام .وهو أساس عملية الإبلاغ والتواصل .فما يميز التداولية عنصر المتكلم وارتباطه بمواضيع القصد في المعنى لفرض تحقيق التواصل والإبلاغ في الكلام، على شرط توفر عنصر المخاطِب والمخاطَب في الخطاب، وتوافق المواضيع المرتبطة بالمقاصد المحققة في الواقع.

ويمكن تتبع دلالات هذا المفهوم عند الغرب إلى، فهو منبثق من المصدر(intentio) وبذلك تأسست في معناها على كيفية، ارتباط العقل بمفاد الأشياء في الطبيعة فالقصدية أساسها العقل وارتباطها بمقاصد الأشياء وتعتبر القصدية من وجهة نظر"جون سيرل"JOHN SEARLE (Intentienality) ظاهرة بيولوجية طبيعية مثل كل الظواهر الطبيعية الأخرى تخضع للتحليل والملاحظة. و يعد سيرل من بين الذين تحدثوا عن القصدية ،وبينها بطرحه للأسئلة من قبيل:

(277) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح :فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، ،بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص357-358.

(278) إدريس مقبول، الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في ممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث للنشر .والتوزيع، ،الأردن ،ط1، 2011، ص24

ما القصدية؟ ما الاعتقاد؟ وما الرغبة؟[279]

كما تبنى غرايس(GRICE) ومدرسته مفهوم المقصدية كأولية غير قابلة للتحديد، ولكنه وضح الإطار الذي يقع فيه، وأنواعه وقد انطلق من أن كل حدث سواء كان لغويا أو غير لغوي إما يكون محتويا على بنية الدلالة وإما لا يكون محتويا عليها، فمثلا: تراكم السحاب يدل على أن السماء ستمطر فهذه دلالة وراءها قصد، ومعنى هذا أن العملية التواصلية القصدية تفترض طرفين إنسانيين :مرسل ومتلقي، بيد أن المقاصد أنواع:

أولي: يتجلى في المعتقدات والرغبات التي تكون لدى المتكلم.

ثانوي: يكون فيما يعرفه المتلقي من مقاصد المتكلم.

ثلاثي: ينعكس في هدف المتكلم الذي يريد أن يجعل المتلقي يعترف بأنه يريد منه جوابًا ملائمًا[280]، أي أن هناك حالات لحدوث التواصل سواء كان لغويًا أو غير ذلك في أي أن هناك حالات لحدوث التواصل سواء كان لغويًا أو غير ذلك في إطار الدلالة التي تجعل معنى القصد، وتفترض هذه العملية عنصرين أساسين (المتلقي والمرسل) من أجل حصول العملية التواصلية وتناسق عناصر السياق وفق المقام المعين.

ونستنتج أَنْ مفهومِ المقَصْدِيَّةِ يُحيطَ بالعناصرِ الآتيةِ [281] :

1. يملكُ العقلُ قُدرةً على توجيهِ ذاتِهِ نحو الأشياءِ.
2. الأحداثُ الواعيةُ تكونُ مُوجَّهةً نحو الأشياءِ أو تَملكُ إشارةً إليها.
3. نحنُ لا نعتقدُ فحسب أو نَرغَبُ فحسب أو نَرى فحسب، وإنَّما نَعتقدُ في شيءٍ ما ونَرغَبُ في شيءٍ ما ونَرى شيئًا ما .
4. نَستطيعُ الاعتقادَ فيما لا يكونُ واقعيًّا، ونَرغَبُ فيما لا يُوجدُ ، وهَلُمَّ جرًّا .

---

(279)ينظر، صلاح إسماعيل، جون سيرل في القصدية، دراسة في فلسفة العقل، مجلس النشر العلمي، الكويت،2007، ص109.

(280)عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ط1 ، ص183

(281) ينظر : نظرية جون سيرل في القَصْدِيَّة دراسة في فلسفة العقل ، د. صلاح إسماعيل (بحث) : 55 ، والقصديَّة في النصِّ القرآنيِّ ، زهــراء جياد عباس البرقعاوي (رسالة ماجستير) : 3 .

واتَّخذَ مفهومُ القَصْدِ في الدِّراساتِ اللِّسانيَّةِ الحديثةِ ــ ولا سيَّما التَّداوليَّة ــ دلالاتٍ مُتنوِّعةً يُمكنُ حصرُها في مفهومينِ:

الأوَّل : القصد بمفهوم الإرادة :

لا يستطيعُ المُتكلِّمُ أَنْ يقصدَ شيئًا ما إذا لم يكن يملكُ الإرادةَ والاختيارَ، إذ " يُؤثِّرُ القَصْدُ بمعنى إرادةِ فعلِ الشَّيءِ في الحكمِ على الفعلِ نفسِهِ؛ فَتُصبحُ الأَفعالُ تابعةً للمقاصدِ الباطنةِ لدى فاعِلِها،لا تابعةً لشكلِها الظَّاهريِّ فقط ...وإذا كانَ الأمرُ كذلك فإنَّ قَصْدَ المُرسِلِ ــ بوصفِهِ إرادتَهُ ــ لَيُؤثِّرُ في خطابهِ بدرجةٍ أَقوى في إنجازِ الفعلِ اللُّغويِّ لاعتمادِهِ على توفُّرِ الإرادةِ مِنْ عدمها، وكذلك في ترتيبِ الخِطابِ للتَّدليلِ عليهِ"[282]. فقد يتلفَّظُ المرءُ بمفرداتٍ ذاتِ دلالاتٍ معجميَّةٍ مُلتزِمًا بقواعدِ الصَّرفِ والنَّحو إلَّا أنَّها لا تَعني شيئًا ما لم يُصاحبْها قَصْدُ المُتكلِّمِ وإرادتُهُ، وعندئذٍ لا بُدَّ من إرادتين: إرادةِ التَّكلُّمِ باللَّفظِ اختيارًا، وإرادةِ ما يوجبُهُ ويقتضيهِ مِنْ معنى [283] .

يرى أبو حامدٍ الغزاليُّ (ت 505 هــ) أَنَّ فعلَ الأمرِ "ليس أمرًا لصيغتِهِ وذاتِهِ، ولا لكونِهِ مُجرَّدًا عَنِ القرائنِ معَ الصِّيغةِ، بل يصيرُ أَمرًا بثلاث إراداتٍ: إرادة المأمورِ بِهِ، وإرادةِ إحداثِ الصِّيغةِ، وإرادةِ الدَّلالةِ بالصِّيغةِ على الأمرِ دونَ الإباحةِ والتَّهديدِ"[284]. ويرى أَبو إسحاقِ الشَّاطبيُّ (ت 790 هــ) أَنَّ "الأمر والنَّهي يستلزمُ طلبًا وإرادةً مِنَ الآمِرِ؛ فالأَمْرُ يَتضمَّنُ طلبَ المأمورِ بهِ وإرادةَ إيقاعِهِ، والنَّهيُ يَتضمَّنُ طلبًا لتركِ المنهيِّ عنهُ وإرادةً لعدمِ إيقاعِهِ "[285].فهذهِ الصِّيغُ تختلفُ دلالاتُها باختلافِ المعاني التي يُريدُ المُتكلِّمُ التَّعبيرَ عنها، ولا يُمكِنُ الأَخذُ بالدَّلالةِ

---

(282)عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ،ص 189 .

(283) ينظر : م.نفسه، ص 191

(284)أبو حامد محمد بن محمد الغزاليّ ، المستصفى في علم الأصول : تحقيق الشيخ محب الله بن عبد الشكور ، المطبعة الأميرية ، بولاق ــ مصر ، الطبعة الأولى ، 1322 ، منشورات دار الذخائر ، قم المقدسة – إيران ، 1368 ج1 /ص 414 .

(285)أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبيّ ، الموافقات في أصول الشريعة : تحقيق الشيخ عبد الله درّاز، دار الفكر العربي،

الظَّاهرةِ لأيَّةِ عبارةٍ لغويَّةٍ إلا عندَ وجودِ القرائنِ الدَّالَّةِ على ذلك .

الثاني : القصد بمفهوم المعنى :

لا نستطيعُ الوصولَ إلى مقاصدِ المُتكلِّمِ مِنَ الألفاظِ التي ينطقُها في سياقٍ ما إلَّا بمعرفةِ المعنى الذي يُريدُهُ منها، وعندئذٍ لا يُمكنُ الاعتمادُ على معرفةِ معاني الألفاظِ الموضوعةِ في اللُّغةِ فحسب للوصولِ إلى مقاصدِ المُتكلِّمِ، بل لا بُدَّ من معرفةِ ماذا يعني بها؛ "لأَنَّ مدارَ الأمرِ ينصبُّ على ماذا يعني المُرسِلُ بخطابِهِ لا ماذا تعنيهِ اللُّغــةُ، حتَّى لو كانَ الخِطابُ واضحًا في لغتِهِ؛ لأَنَّ معرفةَ قَصْدِ المُرسِلِ هو الفيصلُ في بيانِ معناه"[286]. ويتجسَّدُ قَصْدُ المُتكلِّمِ بوسائلَ متنوِّعةٍ، لكنَّ أبرزَها ألفاظُ اللُّغةِ، إذ جُعِلَتْ عليهِ دليلًا؛ وفي ذلك يقولُ ابنُ قيِّم الجوزيَّةُ (ت 651 هــ) : "إنَّ الله تعالى وضعَ الألفاظَ بينَ عبادِهِ تعريفًا ودلالةً على ما في نفوسِهِم، فإذا أَرادَ أحدُهم مِنَ الآخَرِ شيئًا عرَّفَهُ بمُرادِهِ وما في نفسِهِ بلفظِهِ، ورتَّبَ على تلك الإراداتِ والمقاصدِ أَحكامَها بواسطةِ الألفاظِ، ولم يرتِّبْ تلك الأَحكامَ على مُجرَّدِ ما في النُّفوسِ مِنْ غيرِ دلالةِ فعلٍ أَو قولٍ ولا على مُجرَّدِ أَلفاظٍ معَ العلمِ بأَنَّ المُتكلِّمَ بها لم يُرِدْ معانيَها ولم يُحِطْ بها علمًا..."[287]. فاللهُ سبحانَهُ وتعالى لا يُحاسِــبُ الإنسانَ على أَلفاظِهِ إذا لم يكُنْ قاصدًا بها معانيَ مُحدَّدةً أو لم يكُنْ مُدركًا معانيَها.

ولذلكَ لا بُدَّ مِنْ معرفةِ القَصْدِ في الخِطابِ الذي يُساعِدُ السِّياقُ في بيانِهِ؛ لأَنَّ "دلالة العبارة هي استلزامُ القولِ للمعنى المقصودِ مِنْ سياقِهِ، وقد يُطابقُ هذا المعنى المقصودُ المعنى المُستفادَ مِنْ ظاهرِ القولِ وقد يَتفاوتُ مَعَهُ؛ فإذا طابَقَهُ كُلًّا قيلَ إنَّهُ المعنى المطابقيُّ للقولِ، وإنْ

القاهرة ــ مصر ، د.ت ج3 /ص 119 .

(286)عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب :ص 196 .

(287)أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيُّوب المعروف بابن قــيِّــم الجوزيَّة، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمَّام ــ السعودية، الطبعة الأولى، 1423 ه. ج4 /ص 514

تفاوتَ معهُ فأَحدُ الأَمرينِ: إمَّا أَنَّهُ يُطابقُ جزءًا مِنْ هذا المعنى الظَّاهرِ، وإمَّا أَنَّهُ يُلازمُ هذا المعنى مِنْ غيرِ أَنْ يُطابقَهُ لا كُلًّا ولا جُزءًا، فإنْ كانَ الأوَّلَ فمقصودُ القولِ هو بالذَّاتِ معناهُ التَّضمُّنيُّ، وإنْ كانَ الثانيَ فهذا المقصودُ هو معناهُ الالتزاميُّ" [288] .

فاللَّفظُ يدل على المعنى من ثلاثة أوجهٍ متباينةٍ : **الوجه الأول: (المطابقة)**، وذلك بأنْ يدلَّ اللفظُّ على تمامِ معناه الموضوع له ويُطابقُهُ، مثل دلالة لفظ (الكتاب) على تمام معناه، فيدخل فيه جميعُ أوراقه وما فيهِ من نقوش وغلاف. **والوجه الثاني: (التضمُّن)**، وذلك بأنْ يدلَّ اللَّفظُ على جزءِ معناه الموضوع له الدَّاخل ذلك الجزء في ضمنِهِ، مثل دلالة لفظ (الكتاب) على الورق وحدَهُ أو الغلاف وحدَهُ. **والوجه الثالث: (الالـــتـــزام)**، وذلك بأنْ يدلَّ اللَّفظُ على معنى خارجٍ عن معناه الموضوع له لازمٍ لهُ يستَتْبعُهُ استتباعَ الرَّفيق اللازمِ الخارجِ عَنْ ذاتِهِ، مثل دلالة لفظ (الدواة) على القلم [289].

فالخِطابُ تختلفُ معانيهِ باختلافِ مُتكلِّميهِ والظُّروفِ المُلابِسةِ لهُ، فإذا أدْرَكْنا "هويَّةَ المُتكلِّمِ ومَقْصدَهُ والوضعيَّةَ التي هو عليها نرى بأَنَّ المعنى يَتعدَّلُ ويَتدفَّقُ ويَغتَني. مِنْ هنا نتجاوزُ المعنى الحرفيَّ إلى معنًى أكثرَ اكتماليَّةً يسمحُ بإمكانيَّةِ تحديدِ الحقيقةِ "[290].

ثانيا: المقَصْدِيَّةُ في البلاغةِ العربيَّةِ و النقد العربي:

تُعَدُّ المقَصْدِيَّةُ مِنْ أظهرِ مبادئِ البلاغةِ العربيَّةِ التي رَسَمتْ بها البلاغةُ قوانينَ صناعةِ الخِطابِ وتفسيرِهِ رسمًا يُبرهِنُ على أَنَّ البلاغةَ العربيَّةَ نظرَتْ إلى تحقُّقِ العمليَّةِ الإبلاغيَّةِ مِنْ ثلاثِ زوايا: زاويةِ المُبدِعِ أو المُتكلِّمِ، وزاويةِ المُتلقِّي أو المُخاطَبِ، وزاويةِ النَّصِّ البلاغيِّ الذي ينبغي أَنْ يتطابَقَ فيهِ قَصْدُ المُتكلِّمِ معَ اللَّفظِ المُختارِ أَو التَّركيبِ لأَداءِ العمليَّةِ الإبلاغيَّةِ.

---

(288) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. ص 103 .

(289)يـــنظر : الشيخ محمد رضا المظفر: المنطق، مطبعة سرور، انتشارات إسماعيليان، قم المقدَّسة ــ إيران، الطبعة العاشرة ، 1424ه.ص32 .

(290)فرانسواز أرمينكو : المقاربة التداولية ،ص 19 .

ووظيفةُ البلاغةِ هي وصفُ الأساليبِ الخاصَّةِ في استعمالِ اللُّغةِ وتصنيفُها بحسبِ تمكُّنِها في التَّعبيرِ عَــنْ أَغراضِ المُتكلِّمِ ومقاصِدِهِ الفنيَّةِ تعبيرًا يتجاوزُ الإبلاغَ إلى التَّأثيرِ في المُخاطَبِ أَو إقناعِهِ بما نقولُ أَو إشراكِهِ في ما نحسُّ بهِ[291]، ولذلك وصفَ بعضُ الباحثينَ علمَ البلاغة بــ(علم المقاصد)؛ لأَنَّنا نتكلَّــمُ في الأغلبِ مِنْ أَجلِ أَنْ نبلغَ قَصْدًا مُعــيَّنًا[292].

وتتجلَّى علاقةُ اللَّفظِ بالمعنى الذي يريدُهُ المُتكلِّمُ في الدَّرس البلاغيِّ؛ " لأَنَّ البلاغةَ تقومُ في أصلِ وضعِها على إرادةِ المُتكلِّمِ إيصالَ معنًى مِنَ المعاني أَو فكرةً مِنَ الأَفكارِ إلى الشَّخصِ المقصودِ بالكلامِ حسبَ كيفيَّاتٍ مُعيَّنةٍ تَتحدَّدُ بنوعِ العلاقةِ القائمةِ بينَ الدالِّ ومدلولِهِ"[293]. وقــد تجلَّت عنايةُ البلاغيِّينَ بقَصْدِ المُتكلِّمِ في كثيرٍ من مباحثهم البلاغيَّةِ؛ فقد كشفَ الجاحظُ (ت 255 هــ) في مشروعِ البيانِ العربيِّ عَنِ المعاني التي يقصدُها المُتكلِّمُ، فعرَّفَ البيانَ بأَنَّهُ: "اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشَفَ لك قِناعَ المعنى وهتَكَ الحجابَ دونَ الضَّميرِ ... لأَنَّ مدارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجري القائلُ والسَّامعُ إنَّما هو الفهمُ والإفهامُ ، فبأيِّ شيءٍ بَلغْتَ الإفهامَ وأَوضحْتَ عَنِ المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك المَوْضعِ "[294] .

ويَرى الجاحظُ أَنَّهُ:"لا خيرَ في كلامٍ لا يدلُّ على معناك، ولا يُشير إلى مغزاك، وإلى العمودِ الذي إليه قَصَدْتَ، والغرضِ الذي إليه نَزَعْتَ"[295]، فربطَ بينَ المقَصْدِيَّةِ والوظيفةِ الجماليَّةِ للبلاغةِ العربيَّةِ، وأَكَّدَ مُراعاةَ الأَغراضِ والمقاصدِ المرجوَّةِ مِنَ الكلامِ؛ لأَنَّ الكلامَ المُجرَّدَ منها لا خيرَ فيه ولا فائدةَ منهُ. وأَكَّدَ الجاحظُ أَنَّ طرفَي الخِطابِ يُتَمِّمُ أَحدُهما الآخَرَ،

---

(291) حمادي صمود ،التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ــ لبنان ، الطبعة الثالثة ، 2010 م ، ص45

(292) مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة ــ المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، الكويت، 1415 ه ــ 1995 م، ص11 ـــــ 12 .

(293) حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب، 245 ـــــ 246 .

(294) الجاحظ، البيان والتبيين : ج1 /ص 76 .

(295) المصدر نفسه : ج1 /ص 116 .

ولذا نجدُهُ يجمعُ هذينِ الطَّرفينِ ويُوكِلُ لكلٍّ منهما وظيفةً خاصَّةً بهِ إلَّا أَنَّهُ يَعتني بالمُفْهِمِ (المُتكلِّم) أكثرَ مِنَ المُتفَهِّم (المُخاطَب)، إذ يقول:"والمُفهِمُ لكَ والمُتفهِّمُ عنك شريكانِ في الفَضْلِ، إلاَّ أَنَّ المُفهِمَ

أَفضلُ مِنَ المُتفهِّمِ، وكذلك المُعلِّمُ والمُتعلِّمُ..."[296].

للمُتكلِّمِ المنزلةَ الكُبرى في نظريَّةِ الجاحظِ البلاغيَّةِ، وأَنَّهُ لا يُعطي القارئَ وظيفةً إبداعيَّةً تقومُ على إعادةِ خلقِ النَّصِّ واكتشافِهِ، بل عليه أَنْ يجدَهُ بحسبِ ما وضَعَهُ مُــؤلِّفُهُ، فالبيانُ لا يَقتضي مِنَ المُؤلِّفِ إرسالَ رسالةٍ مُشفَّرةٍ يقومُ القارئُ بتحليلها، وإنَّما على المُؤلِّفِ أَنْ يعرِفَ كيف يُوصِلُ ما يُريدُ بطريقةٍ تجعلُ عمليَّةَ التَّوصيلِ واضحةً ومُمكِنَةً [297].

وجعلَ عبدُ القاهر الجُرجانيُّ (ت471 هــ) المُتكلِّمَ محلَّ عنايتِهِ الفائقةِ، فقد أَولتْ نظريَّةُ النَّظمِ عندَهُ عِنايةً كَبيرةً بالمعاني التي يَقصدُها، وجعلَها الأساسَ الذي تُبنَى عليهِ التَّراكيبُ اللُّغويَّةُ، فالمعاني القائمةُ في النَّفسِ أَسبقُ مِنَ الألفاظِ؛ لأَنَّ الألفاظَ عندَهُ "خدمٌ للمعاني والمُصرَّفةُ في حكمِها، وكانت المعاني هي المالكةَ سياستَها المُستَحَقَّةَ طاعتُها، فمَنْ نصرَ اللَّفظَ على المعنى كان كمَنْ أَزالَ الشَّيءَ عَنْ جهتِهِ وأَحالَهُ عَنْ طبيعتِهِ، وذلك مظنَّةُ الاستِكراهِ، وفيهِ فَتْحُ أَبوابِ الغيبِ والتَّعرُّضُ للشَّينِ"[298]، وقد جاءَ تصوُّرهُ هذا متأثِّرًا بنظريَّةِ الأَشاعرةِ في الكلامِ النَّفسيِّ التي يَرَوْنَ فيها أَنَّ المعانيَ القائمةَ في النَّفسِ سابقةٌ للألفاظِ[299]. ويرى أَنَّ معرفةَ الأَغراضِ تكونُ مِنَ المعاني لا مِنَ الألفاظِ، إذ يقولُ:"لا يَخفى على مَنْ له أدنى تمييزٍ أَنَّ الأغراضَ التي

---

(296) المصدر نفسه :ج 1 /ص 11ــ 12 .

(297) ينظر : مهند حمد شبيب الفهداوي، القصد في الخطاب النقدي والبلاغي العربي القديم ، (أطروحة دكتوراه)غير مطبوعة : 84 .

(298) الجرجاني، أسرار البلاغة : 8 .

(299) أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحــقــيـــق محمـــــد محـــــــــــــيي الدين عبد الحميـــــد ، المكتبة العصرية ، بيروت ـــ لبنان ، 1411 ه ـــ 1990 م، ج2 /ص 110 .

تكونُ للنَّاسِ في ذلك لا تُعرَفُ مِنَ الألفاظِ، ولكنْ تكونُ المعاني الحاصلةُ مِنْ مجموعِ الكلامِ أَدلَّــةً على الأغراضِ والمقاصدِ"[300] . وربَطَ معانيَ الكلامِ بمقاصدِ صاحبِهِ قائلًا: "وإذ قد ثبَتَ أَنَّ الخبرَ وسائرَ معاني الكلام معانٍ يُنشئها الإنسانُ في نفسِهِ، ويُصرِّفُها في فكرِهِ، ويُناجي بها قلبَهُ، ويُراجعُ فيها لُبَّهُ، فاعلمْ أنَّ الفائدةَ في العلم بها واقعةٌ مِنَ المُنشئ لها، وصادرةٌ عَنِ القاصدِ إليها"[301].

إنَّ تأكيدَ الجرجانيِّ فكرةَ ترتيبِ المعاني في النَّفسِ، وأَنَّ الألفاظَ تأتي تبعًا لها يدلُّ دلالةً واضحةً على تأثيرِ العناصرِ غــيرِ اللُّغويَّةِ المُتعلِّقةِ بقَصْدِ المُتكلِّمِ في صناعــةِ نمطٍ مُعيَّنٍ مِنْ أنماطِ الكلامِ ونظْمِهِ بطريقةٍ تتناسبُ معَ تلكَ المقاصدِ والأَغراضِ، وهكذا تُقدِّمُ النَّظريَّةُ جانبينِ وجهينِ لعملةٍ واحدةٍ:الأوَّلُ نفسيٌّ يضمُّ الدَّلالةَ أو المعنى النَّفسيَّ ويُشكِّلُ قَصْدَ المُتكلِّمِ أو غرضَ الكلامِ، والثاني لغويٌّ يضمُّ الألفاظَ المنطوقةَ حيثُ تتلاءمُ الدَّلالاتُ المعجميَّةُ بالدَّلالاتِ السِّياقــيَّةِ على مستوى التَّأليفِ.

وهــذا يُؤكِّدُ أَنَّ الكشفَ عَنِ الأَغراضِ الكامنةِ في نفسِ المُتكلِّمِ التي يُعبَّرُ عنها بأَساليبَ مخصوصةٍ ينبغي معرفتُها مِنْ أَجلِ الوصولِ إلى فهمٍ صحيحٍ، إذ يقولُ الجرجانيُّ: "وقد أَجْمَعَ العقلاءُ على أَنَّ العِلْمَ بمقاصدِ النَّاسِ في محاوراتِهم علمُ ضرورةٍ"[302]؛ ذلك "أَنَّ النَّاسَ إنَّما يُكلِّمُ بعضُهم بعضًا لِيَعرِفَ السَّامعُ غرضَ المُتكلِّمِ ومقصُودَهُ"[303].

فالتشكُّل الظاهري للألفاظ –عند الجرجاني– يكونَ وفقَ المعاني المُرتَّبةِ في النَّفسِ والأَغراضِ المقصُودةِ، فلكلِّ تقديمٍ أوْ تأخيرٍ موجبٌ معنويٌّ، إذ"لا يكونُ الإتيانُ بالأشياءِ بعضِها في إثرِ بعضٍ على التَّوالي نسقًا وترتيبًا، حتَّى تكونَ الأشياءُ مختلفةً في أنفسِها، ثُــمَّ يكونُ للذي

(300) الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص 441 .

(301) المصدر نفسه : ص545 .

(302) المصدر نفسه : ص530 .

(303) المصدر نفسه : ص530 .

يجيءُ بها مضمومًا بعضُها إلى بعضٍ غرضٌ فيها ومقصودٌ،لا يتمُّ ذلك الغرضُ وذاك المقصودُ إلا بأنْ يتخيَّر لها مواضعَ فيجعلَ هذا أوّلا وذاك ثانيًا، فإنَّ هذا ما لا شُبهةَ فيه على عاقلٍ"[304].

فالتَّقديمُ يتعلَّقُ بالمعنى والقَصْدِ في كثيرٍ من التَّراكيبِ، وليس لغرضٍ يتعلَّقُ بالبنيةِ الشَّكليَّةِ أوْ موسيقى الكلامِ؛ لذا نجدُ الجرجانيَّ يعمَدُ إلى تقليبِ الجملةِ على أَكثرَ مِنْ وجهٍ ليرى التَّغيُّراتِ الدِّلاليَّةَ التي يمكنُ أَنْ يُحدِثَها هذا التَّغيُّرُ الشَّكليُّ؛ ثُمَّ يصلُ إلى القَصْدِ الحقيقيِّ للمُتكلِّمِ مِنَ النَّصِّ نفسِهِ، فعندما يذكرُ تقلباتِ الجملةِ مِنْ حيثُ تقدُّمُ الفعلِ والفاعلِ يقولُ: "فإذا قُلْتَ: (أَتــفعــلُ؟) كان المعنى على أَنَّك أَردْتَ أَنْ تُقرِّرَهُ بفعلٍ هو يفعلُهُ، وكُنْتَ كمَنْ يُوهِمُ أَنَّهُ لا يعلمُ بالحقيقةِ أَنَّ الفعلَ كائنٌ. وإذا قُلْتَ: (أأنتَ تفعلُ؟) كانَ المعنى على أَنَّك تريدُ أَنْ تُقرِّرَهُ بأَنَّهُ الفاعلُ، وكانَ أَمرُ الفعلِ في وجودِهِ ظاهرًا، وبحيثُ لا يُحتَاجُ إلى الإقرارِ بأَنَّهُ كائنٌ"[305].فالمعنى في هاتينِ الجملتينِ عامٌّ وهو التَّقريرُ، ولكنَّ الاختلافَ يقعُ في العنايةِ بالفعلِ نفسِهِ في حالِ تقديمِهِ، أَوْ العنايةِ بذاتِ مَنْ قامَ بالفعلِ في حالِ تقديمِ الاسمِ، فقَصْدُ المُتكلِّمِ في المثالِ الأوَّلِ إثباتُ صدورِ الفعلِ منكَ والفاعلُ معلومٌ لديهِ، وقَصْدُهُ في المثالِ الثاني إثباتُ أَنَّكَ أَنتَ الفاعلُ والفعلُ معلومٌ لديهِ.

ويوضح"الجرجاني المقصدية المتعلقة بظاهرة الحذف والذكر؛ فكان تحليله لهذه الظاهرة مرتبطا بقصده الواضح ومنهجه الرفيع الذي يخدم السامع، وهو ما يظهر في قوله عن الحذف،"هو باب دقيق المسلك، لطيف المأْخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تِبن"[306].وقد حلل" عبد القاهر الجرجاني "نصوصا شعرية كثيرة في غرض حذف المبتدأ وإضماره، أبرزها قول الشاعر بكر بن النطَّاح:

---

(304) المصدر نفسه : 473 .

(305) المصدر نفسه : 116 .

(306)عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص16

العين تبدي الحب والبغضا وُتظهر الإبرام و النَّقضا

درة، ما أنصَفْتني في الهوى ولارحمت الجسد المُنضى

غضبي ولا والله يا أهلها لا أطْعم البارد أو َترضى

يعلق "عبد القاهر الجرجاني "على هذه الأبيات[307] التي تظهر مقاصد المتكلم "إذ يقول في جارية

كان يحبها، وسعي به إلى أهلها، فمنعوها منه، والمقصودة قوله : غضبي، وذلك أن تقدير :هي غضبي، أو غضبي هي لا محالة، ألا ّانك ترى النفس كيف تتفادى من إظهار هذا المحذوف وكيف تأنس إلى إضماره؟ ونرى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به"[308] القصد من الحذف هو إحداث الأنس لأنه إذا ذكر المحذوف تغير القصد، فتكمن مقصديه هذا القول بجعل المتكلم هو المحور الأول في تحليل نصوصه.

كما يمكن أن نلمح اهتمام الجرجاني بالمقصدية في دراسته للمجاز و الاستعارة و الكناية؛ وهي تعد من الأفعال غير المباشرة عدد المحدثين، حيث عرف" عبد القاهر "الكناية بقوله: "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللّفظ الموضوع له في اللّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه"[309]، مثال ذلك قوله:" (طويل النجاد) والقصد طويل القامة، و (زيد كثير الرماد القدر) والقصد (كثير القرى)... فقد قصدوا هذا كله معنى لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود"[310]. وقصد الجرجاني في كلامه ارتباط الكناية بحالة الاستعمال التي ينبني وقعهاعلى أغراض المتكلم، وغرض الجرجاني يكمن في مستويين من المعنى وهما: المعنى الأول وهو المباشر والمعنى الآخر بالاستدلال، ما دام معنى المعنى مضمرا في القول،

---

(307)القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص124

(308)القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص124

(309) م. نفسه، ص465

(310) م.نفسه، ص465

وهي التي تساعد المتلقي في فهمها من خلال التأويل للوصول إلى معنى المعنى.

من خلال التتبع لمقاربات الجرجاني للأفعال اللغوية غير المباشرة، نجد أن الجرجاني يقرر أن التوصل إلى هذا الفن يكون عن طريق المعنى الثاني وليس عن طريق المعنى الحرفي وذلك من خلال الدلالة والتأويل ما بين (المتكلم والسامع) من خلال السياق، وهذا يحيلنا إلى "سيرل" الذي وضع كذلك ثلاث مبادئ (مواصفات) تأويل مشتركة بين المتكلم والسامع في إنشاء الأقوال وهي:

1. ثمة أمور مشتركة يعرف السامع أن القول لا يؤخذ بمعناه الحرفي أما الأمر الأكثر تداولا إن لم يكن الوحيد فيقوم على أساس أن حدث التلفظ يظل ناقصا.

2. يجب أن يكون ثمة مبادئ مشتركة تتعلق باللّفظ ويشترط صحته أو دلالته الصريحة إن كانت له دلالة صريحة.

3. هناك أمور مشتركة تسمح للمتكلم والسامع أن ينطلق من معرفتها باللّفظ لحصر مجال قيم الممكنة في قيمة الحقيقة[311].

فهذه المبادئ الثلاثة التي جاء بها"سيرل" تتطابق مع ما جاء به" عبد القاهر" ولكنها بتسميات مختلفة سواء من الاستعارة أو المجاز وخاصة الكناية، مما يدل على عمل الجرجاني المتميز، الذي أصبح دليلا وأداة للاستدلال عند العرب من المنظور التداولي المعاصر.

و الجرجاني يميز في المجاز بين نوعين: المجاز اللغوي، و المجاز العقلي، فأما المجاز اللغوي"يلتقي هذا النوع بالدراسات الواصفة حيث انه يستند إلى المواضعة دون تجاوز اللفظ المفرد، و المجاز العقلي يؤسس هذا النوع على الجانب التركيبي للألفاظ في علاقتها الإحالية أو الإسنادية بالقصد النفسي و القصد العقلي للمتكلم"[312]

---

(311)فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص58

(312) بوطاجين السعيد، الترجمة والمصطلح، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، و منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2009،ص156.

يقر الجرجاني بإمكانية الاتفاق بين المنشئين للغة في غرض القول (قصدية الخطاب – وظيفته) أو وجه الدلالة عليه (أداة الخطاب – القوة الانجازية له) قائلا "اعلم أن الشاعرين إذا اتفقا لم يخل ذلك من أن يكون في الغرض على الجملة و العموم أو في وجه الدلالة على الغرض"[313] و صورة ذلك في الدرس اللساني الحديث أن الغرض الواحد يمكن انجازه بعدد كبير من القوى الانجازية المختلفة.

أما في الخطاب النقدي فالمُتأمِّلُ يرى أَنَّ النُّصوصَ الواردةَ عَنِ النُّقَّادِ العربِ القدماءِ تُؤيِّدُ إدراكهم هذه العلاقةَ بينَ النَّصِّ الأَدبيِّ والمُؤلِّفِ (المُبدِع)، فالنَّاقِدُ يُحاولُ ــ باذلًا ما يستطيعُ من جُهدٍ ــ أنْ يصلَ إلى المعنى الموضوعيِّ للنَّصِّ الأدبيِّ بما يتلاءمُ وقَصدَ مُؤلِّفِهِ بوسائِلَ مختلفةٍ بحسبِ المنهجِ الذي يتبنَّاهُ لتحليل النَّصِّ الأدبيِّ، فعمليَّةُ الإبداعِ الأَدبيِّ تقومُ على مجموعةٍ مِنَ القواعدِ والأسسِ التي تُحدِّدُ طبيعةَ العلاقةِ بينَ المعنى المقصودِ والشَّكلِ الأَدبيِّ التَّعبيريِّ .

فقد عُنِيَ النُّقَّادُ العربُ بإدراكِ معنى النَّصِّ الأَدبيِّ المُوافقِ لأغراضِ المُبدعِ، إذ يرى قدامةُ بنُ جعفــرٍ (ت 337 هــ): "أَنْ يكونَ المعنى مواجهًا للغرضِ المقصودِ غيرَ عادلٍ عَنِ الأمرِ المطلوبِ"[314]، ويرى في المعاني "أَنَّ الواجبَ فيها قَصْدُ الغرضِ المطلوبِ على حقِّهِ وتركُ العدولِ عنه إلى ما لا يُشْبِهُهُ"[315]،وعندئذٍ يُصبحُ القَصْدُ مُتحدِّدًا وفقَ الوسائلِ التي يَتَّبعُها الشَّاعرُ في الكتابةِ، ولذا نراهُ يضعُ لكُلِّ غرضٍ مِنْ أغراضِ الشِّعرِ[316] طريقةً خاصَّةً في الكتابةِ تعملُ على استيفاءِ أَقسامِ ذلك الغرضِ .

وأكَّدَ ابنُ رشيقٍ القيروانيُّ (ت 456 هــ) في حديثِهِ عَنْ آدابِ الشَّاعرِ أَنَّ العلمَ بالمقاصدِ مِنْ جملةِ ما يحتاجُ إليهِ الشَّاعرُ في صناعةِ الشِّعرِ، إذ يقول : "فأوَّلُ ما يحتاجُ إليه الشَّاعرُ – بعد الجدِّ الذي هو الغايةُ، وفيهِ وحدَهُ الكفايةُ – حُسْنُ التَّأتِّي والسِّياسةِ، وعلمُ مقاصدِ القولِ، فإذا

---

(313) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص293.

(314)قدامةُ بنُ جعفـــر،نقد الشعـر : 58 .

(315) المصدر نــفــســه : 65 .

(316) ينظر : المصدر نــفــســه : 65 ـــــ 66 (غرض المديح) ، 123 ـــــ 124 (غرض النَّسيب) .

نَسَبَ ذلَّ وخَضَعَ، وإنْ مَدَحَ أَطرى وأَسمَعَ، وإنْ هجا أَخلَّ وأَوجعَ، وإنْ فخَرَ خَبَّ ووضَعَ، وإنْ عاتَبَ خفَضَ ورفَعَ ، وإنْ استعطفَ حنَّ ورجَعَ ..."[317].

وأوْلَى ابنُ الأثير (ت 637 ه) قضيَّةَ القصدية في الكتابةِ عنايةً كبيرةً، فجعلَ شروطًا لاختيارِ اللَّفظِ وملاءمتِهِ للغرضِ المقصودِ، إذ يقول: "اعلمْ أنَّهُ يحتاجُ صاحبُ هذه الصِّناعةِ في تأليفِهِ إلى ثلاثةِ أَشياءَ، الأوَّلُ منها: اختيارُ الأَلفاظِ المفردةِ ... الثَّاني: نظْمُ كلِّ كلمةٍ معَ أُختها المُشاكِلةِ لها...الثَّالثُ: الغرضُ المقصودُ مِنْ ذلك الكلامِ على اختلافِ أَنواعِهِ "[318] .

فالنُّقَّادُ العربُ يَرَوْنَ ضرورةَ الاختيارِ المُلائِمِ للألفاظِ المُعبِّرةِ عَنِ الغرضِ، وهذا ينبعُ مِنْ طبيعةِ التَّصوُّرِ النَّقديِّ للكتابةِ في أَنْ تقومَ على العفويَّةِ في التَّعبيرِ، وليس المقصودُ بالعفويَّةِ هنا الكتابةَ مِنْ دونِ ضوابطَ، بل تعني الابتعادَ عَنْ كلِّ ما يُؤدِّي إلى التّكلُّفِ والتَّعقيدِ. ولمَّا كانت قضيَّةُ الاختيارِ محكومةً بمقَصْدِية المُؤلِّف ومرونةِ اللُّغةِ وقدرتِها على التَّعبيرِ وجَبَ على المُؤلِّفِ أَنْ يختارَ الأَلفاظَ المناسبةَ والمُهذَّبةَ التي تَستطيعُ أَنْ تُعبِّرَ عَنْ قَصْدِهِ، إلَّا أَنَّ هذا محكومٌ أَيضًا بقُدرةِ القارئِ على التَّحليلِ والرَّبطِ والاستنباطِ في فكِّ شفراتِهِ.

و في ختام كلامنا عن المقصدية لابد من الإشارة أن هناك تداخل بين القصدية و النية و الإرادة و العزم و المفهوم و الماصدق، في حين أن مصطلحات الغرض و المعنى تعد من ألصق المصطلحات بمصطلح المقصدية، و يرتبط الغرض في العملية التواصلية بالمخاطِب (الباث، المتكلم، الملقي)، و يرتبط المعنى بالمخاطَب (المتلقي، السامع، القارئ). و يظهر تلازم مصطلح المقصدية مع الغرض خاصة في التراث اللغوي العربي الإسلامي بسبب محاولة

---

(317) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونـــقـــده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ـــــ لبنان ، الطبعة الخامسة ، 1401 ه ـــــ 1981 م: ج1 /ص 199 .

(318) نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الملقّب بضياء الدين بن الأثير المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ـــــ مصر ، الطبعة الثانية ، د . ت . ج1 /ص 163 .

العلماء المسلمين فهم النص الديني و تفسيره للوصول إلى الغرض منه. وفي الدرس اللساني الحديث يميز (سيرل) بين القوة الإنجازية و الغرض والمعنى، فعنده أن القوة الإنجازية جزء من البنية الدلالية للمنطوق، فيمكن للمنطوق الواحد أن يمتلك قوة إنجازية مختلفة في ملابسات استعمال مختلفة؛ فالقوة الإنجازية ترتبط بالقصد لذلك تتغير القوة الإنجازية لمنطوق ما بتغير القصد المرتبط بها فيظهر القصد عبرها مؤديا الغرض منها. أما المعنى فيرتبط عند (سيرل) بالمخاطَب أكثر، فالمعنى هو ما ظهر من القصد عبر ردة فعل أو تعبير عن فهم.

و خلاصة القول أن تعامل البلاغيون و النقاد العرب – خاصة عبد القاهر الجرجاني – مع

المقصدية يتجلى من خلال عدة محددات؛ إذ يؤكد على دور العقل في الاستدلال على القصدية من جهة، يلمع إلى أهمية المعرفة السابقة بالحال عامة و حال الخطاب بشكل خاص في الاستدلال على قصد القصد و التحديد الدقيق لقصدية الخطاب المنجز، ويمكن أن تسجل أفكار الجرجاني حول القصد وبنائه و انتظام المعاني على غرار الألفاظ في ما يأتي[319]:

- القول هو عبارة عن القصد.
- القول هو كلمة مع مساعدات لها (خطاب).
- المتكلم فاعل في إنتاج القصد، يتفق مع رأي (أوستن).
- إمكان الاتفاق بين القائلين في وظيفة قول ما.
- إمكان الاتفاق بين القائلين في القوة الانجازية بشروط صارمة.
- الاتفاق بين القائلين في القوة الانجازية للأقوال يشكك في نزاهة القائل اللاحق و يجعله أقرب للناقل أو السارق.
- تعدد أوجه الدلالة عن الغرض الواحد (قوى إنجازية كثيرة تؤدي غرضا واحدا).
- إعمال العقل في الاستدلال على القصدية الخطابية.
- استعمال المعرفة السابقة لتحديد قصدية خطابية مبتغاة.

(319) علا بوخبوز، القصدية و تعدد الخطابات، رسالة دكتوراة غير مطبوعة، جامعة قسنطينة، ص71ومابعدها

خلاصة القول :

و يلخص الدكتور طه عبد الرحمان أهم النتائج التي توصلت إليها المقاربات التداولية للتراث العربي الإسلامي؛ فيقول[320]:"و تظهر جدة النتائج التي تتوصل إليها المقاربة التداولية من جهتين: جهة الشكل و جهة المضمون.

1. **من جهة الشكل:** تولّدت هذه النتائج بطريق مضبوط و منسق، إذ أُنشئت نمادج خطابية مبنية بناء نظريا متكاملا و موفية بشرط الكفايتين: الأخس (وهي الكفاية الوصفية)، والأقوى(وهي الكفاية التفسيرية). بمعنى أن الأحكام و الدعاوى البلاغية و الأصولية في سياق التداوليات تخرج عن وصف الانعزال و التفكك و التعسف الذي كانت عليه قبل هذا السياق إلى وصف الترتيب و التعليل و التنسيق.
2. **من جهة المضمون:** تتصف هذه النتائج بصفات ثلاث هي:

أ. **التحصيل:** ساهمت النماذج التداولية في الكشف عن حقائق لم يُسبق إليها في ميدان البلاغة و الحجاج.

ب. **التقويم:** مكنت هذه النماذج من تجديد النظر في الأبحاث البلاغية و الأصولية السابقة، وذلك بالوقوف عند مسائلها التي تستحق الدمج و الصوغ، و بمراجعة بعض مسائلها الأخرى التي تحتاج إلى مزيد من إحكام الوصف أو إحكام البناء.

ج. **التوسيع:** تعدّت فائدة هذه النتائج الإطار التقليدي للبلاغة و الحجاج إلى قطاع أوسع من الخطاب الطبيعي، بحيث إن الآليات البلاغية و الحجاجية المثبتة في النماذج التداولية ليست صالحة لوصف أساليب اصطناع التحسين الكلامي و تَعَمُّلِ بديع التأثير على مستوى معين من مستويات الخطاب فحسب، بل أيضا صالحة لوصف مختلف أساليب الإبلاغ و التبليغ و مختلف طرق الإقناع و الاقتناع في كل مستوى من هذه المستويات.

---

(320) طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للابحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص79–80.

و يواصل طه عبد الرحمان توضيح وجهة نظره الرائدة في الدراسة التداولية للتراث العربي الإسلامي، وخاصة الخطاب البلاغي و الأصولي منه، فيقول:[321]"يتبين لكل من بحث التراث البلاغي و الأصولي (أصول الدين و أصول الفقه) الإسلامي أنه ينهج نهجا تداوليا؛ ولا حاجة لي أن أذكر هنا بتفاصيل طرق السكاكي و الجرجاني وغيرهما، ممن أخذ بأسباب المقام ومقتضيات الأحوال أو السياق في المقاربة البلاغية؛ كما أنه لا داعي لبسط القول في موقع العلاقات بين المتكلم و المخاطَب في أصول الدين وأصول، هذه العلاقات التي اتخذت فيهما شكل آليات "الإدعاء" و "الاعتراض"... أما عن الوجوه السليمة في التعامل مع التراث البلاغي و الأصولي، ففي رأينا أنه لابد للباحث من سلوك المراحل التالية إن شاء أن يستقيم له هذا التعامل، وهي:

1. التخلص من الأحكام المُسبَقَة والجاهزة و الفضفاضة التي تعوّد الباحثون المتساهلون إصدارها و نشرها بين جمهور المهتمين و التعلُّل بها كلما مالت أنفسهم إلى اتخاذ موقف ذاتي من هذا التراث، أخذاً به أو نبذاً له.
2. التخلي عن تقسيم التراث البلاغي و الأصولي إلى "مناطق" أو "قطاعات" متمايزة؛ قطاع مقبول يستحق الدرس، و آخر مردود لا يستحق الدرس، قطاع حي نربط أسباب الحياة فيه بحاضرنا. وآخر ميت نقطع صلاته بحاضرنا، و هلم جراً.
3. تحصيل معرفة شاملة لمناهج القدماء و تكوينٍ كافٍ في مناهج المحدثين في التداوليات، و إلا سقط الباحث في أحكام قادحة أو مادحة من غير سند معقول.
4. استخدام أنفع و أنسب الوسائل المستحدثة في كل قسم من أقسام هذا التراث، سواء تواتر أو لم يتواتر تعظيم قدره؛ و لما كان التراث البلاغي و الأصولي متعلقة إشكالاته بالخطاب، فأنسب المناهج ما كان خطابيا تداوليا.

أما توظيف هذا التراث البلاغي الأصولي ،فممكن على وجهين متفاوتين بشرطين متميزين:

الوجه الأول: أن نستمد من هذا التراث بعض التصورات و القواعد، فنُغني بها جهازنا التداولي

(321) طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، ص83 ومابعدها

المُستَحدث ،بحيث يتم تطويره أفقيا، و شرط هذا الوجه أن نحدد أدق تحديد وجوه إجرائية هذه الأدوات المقتَبَسَة من التراث في صورة قواعد مضبوطة نراقب بها اشتغال هذه الأدوات داخل الجهاز الجديد.

الوجه الثاني: أن ننشئ، بواسطة مقولات وقواعد مأخوذة من التراث، نموذجا تداوليا يستوعب أحدث الأدوات التداولية مع توجيهها توجيهاً نظرياً يتناسب مع شروط التراث اللغوية و النظرية، بحيث يشكل هذا النموذج تطويراً عمودياً لهذه الأدوات، و شرط هذا الوجه أن تتوافر في هذا النموذج المصطنع كل الشروط النظرية المعلومة في مبحث التنظير العلمي من كفاية و تنسيق و اتساق و بساطة و مناسبة...الخ. وهذه خطوة أعلى و أبعد في التوظيف.

الفصل الثالث

الأبعاد الإقناعية والحجاجية في الخطاب النقدي والبلاغي عند المعتزلة

-الجاحظ نموذجا-

مدخل

اتضح لنا في فصل سابق أن المعتزلة قد اعتبروا أنفسهم المدافع الأول و الأكبر عن الملة الإسلامية، أمام خصومها من أصحاب الملل و النحل الأخرى، و حتى ضد مخالفيهم من الفرق الإسلامية، و هذه الخصومة و هذا الدفاع كان يرتكز في جوهره على الخطاب اللغوي المبني على قوة الحجاج، و الكفاءة الكلامية؛ و هذا يتطلب بلاغةً و علماً بأساليب الكلام و أفانين القول، و قدرة و بصيرة نافذة تمكن من النقد.

فالبلاغة و النقد كان لهما أهمية بالغة في الخطاب المعتزلي، فالبليغ هو ذلك المتكلم الذي يستطيع أن يفهم"أقدار الكلام و أقدار المتكلمين، و يستطيع أن يخاطب كل امرئ باللغة التي يفهمها ة الألفاظ التي تلقى عنده قبولا. فليست الحجة التي يملكها المناظر و حدها كافية في معارك الجدال إذا لم يعرضها في أسلوب مؤثر يبهر السامع و يستولي على قلبه، و تلك هي إحدى مهمات البلاغة، و هي أنها عنصر مهم من عناصر الإقناع، و جذب ذهن السامع. تلك إذن وظيفة مهمة للبلاغة تجعل المعتزلي محمولا حملا على العناية بها و الاهتمام بقضاياها و شؤونها"[322] في ظل دور الدفاع عن الملة الذي يؤديه.

و في البعد النقدي فقد تعامل المعتزلة مع النص اللغوي على انه نص "دلالي متحرك يفضي إلى إرساء نظرة عقيدة محتومة، أي أن دلالة النص اللغوي عندهم لم تكن دلالة ثابتة ينظر إليها من جهة الحقيقة اللغوية فحسب؛ بل هي تفجير مستمر في المعلومات يَنزَعُ إلى أن يُظهِر نفسه ظهورا جليا واضحا في ظواهر من قبيل المجاز أو الحكاية و المحكي أو القراءة و المقروء أو غيرها مما يميز التفكير الاعتزالي من سواه. و ما كان ذلك بسبب أن المعتزلة أفضل من غيرهم؛ بل لأنهم اعتمدوا الاستدلال العقلي في عملية التحليل و التفسير، ومن ثَمَّ نزعوا إلى متابعة كل ما يتعلق بالبناء العميق للنصوص اللغوية نزوعا أكيدا، و هو أمر ناتج عن التفكير العقيدي القبلي، أي أن الاستدلال العقلي قد دفعهم إلى ملاحقة التحليل العميق في

(322) وليد قصاب، التراث النقدي و البلاغي للمعتزلة، دارالثقافة، الدوحة، قطر، 1985، ص31–32.

المادة اللغوية من أجل الوصول إلى نتائج عقيدية تمثل الأساس المعرفي لهم"[323].

و في دراستنا هذه للخطاب البلاغي و النقدي عند المعتزلة من وجهة نظر الدرس التداولي المعاصر، كان لزاما علينا استجلاء بعض ملامح هذا الدرس عند بعض أعلام هذا التوجه الفكري في التراث العربي الإسلامي.و في هذا الفصل من هذا البحث سنحاول الوقوف على الخطاب البلاغي عند الجاحظ من وجهة نظر تداولية لسانية؛ و خاصة في الجانبين الإقناعي و الحجاجي منه و اللذان يعدان من أهم أركان الدرس التداولي.

(323) حاتم حسن، البحث الدلالي عند المعتزلة، رسالة دكتوراة مقدمة إلى كلية التربية، جامعة المستنصرية، 1999، ص01.

المبحث الأول

إرهاصات التداولية

عند الجاحظ

إن دراسة عملية التواصل أوالاتصال قديمة، تعود جذورها إلى الدراسات التنظيرية الأولى عند الجاحظ، لكنها كانت ذات طابع معياري تهتم بالأثر الناتج مباشرة عن الرسالة، والشروط التي تجعل الخطاب ناجحاً، وفي هذا ملامح للتداولية الحديثة، فكما ركز الجاحظ على المرسل والمتلقي، والرسالة، وعملية التأثير والتأثر، والقصد، ونوايا المتكلم، والفائدة من الكلام، والإفهام... فإنها أيضاً تعد جوهر النظرية التداولية.

وقد ذهب "محمد العمري"[324] في كتابه "البلاغة العربية" إلى أن التداولية الحديثة بعد "جاحظي" في أصله لاهتمام الجاحظ وتركيزه على هذا المستوى في كتابه "البيان والتبيين" وعلى عملية التأثير في المتلقي، والإقناع، وقد سميت هذه النظرية عنده، والتي تعرف اليوم بـــ"التداولية" بنظرية "التأثير والمقام".

يقول "محمد العمري": "إن هذا البعد هو أحد الأبعاد الأساسية في البلاغة العربية، وهو بعد جاحظي في أساسه، وإن تخلي البديعيين عنه في مرحلة لاحقة أدى إلى اختزال البلاغة العربية وتضيق مجالها، وتحظى نظرية التأثير والمقام حالياً بعناية كبيرة في الدراسات السيميائية، ومن ثم الشروع في إعادة الاعتبار إلى البلاغة العربية تحت عنوان جديد هو "التداولية""[325].

وتتجلى جذور التداولية عند "الجاحظ" من خلال تقسيمه للبيان إلى ثلاث وظائف، واهتمامه أكثر بالوظيفة التأثيرية، التي تمثل جانباً مهماً في التداوليات الحديثة، يقول: "و يمكن إرجاع وظائف البيان عند الجاحظ ، إلى ثلاث وظائف أساسية هي:

1. الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية (حالة حياد، إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام).

2. الوظيفة التأثيرية (حالة الاختلاف) تقديم الأمر على وجه الاستمالة وجلب القلوب.

---

(324)محمد العمري، البلاغة العربية اصولها و امتداداتها، ص293

(325) م.نفسه، ص293

3. الوظيفة الحجاجية: (حالة الخصام) إظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطرار.

فكل هذه الوظائف تشكل جوهر النظرية التداولية في الدراسات المعاصرة باعتبارها مقاربة تهتم بالتواصل في الدرجة الأولى، والإقناع، والتأثير، وإيصال المعنى، وتقديم الفائدة، ومنه فإن غايتها منفعية بحتة.

التأسيس البلاغي عند الجاحظ

لا يكاد الخطاب البلاغي العربي يصل إلى الربع الأول من القرن الهجري الثالث، حتى يبرز علما من أعلام المعتزلة –وهو الجاحظ– الذي تجرد "لدرس البلاغة وأمورها، وشؤون البيان وقضاياه المختلفة، ويخصص لذلك كتابا كبيرا (البيان والتبيين) فضلا على ما جاء من ذلك متفرقا في ثنايا كتبه الأخرى"[326] فالجاحظ وعلى الرغم من أن آراؤه البلاغية كانت متفرقة مبثوثة في مواضع مختلفة من كتاباته، إلا أنهه يعد المنظر الأكبر لعلم البلاغة العربية " فالملاحظات البلاغية التي نشرها الجاحظ تعد النواة الأولى للبلاغة العربية، وعنها صدرت جميع الدراسات البلاغية التي جاءت بعد ذلك، وهذه الملاحظات كانت دائما المصدر الأول لجميع الذين راحوا فيما بعد يتحدثون عن البلاغة العربية، ويحاولون أن يصوغوا قواعدها وأصولها"[327]

يتناول الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" قضية ملاءمة الكلام للسامع و لطبقات السامعين، والحديث عن رشاقة ورصانة وجزالة وعذوبة اللفظ، والوسطية بين الإغراب والاعتدال، بالإضافة إلى تعرضه لأصول الوحدة العضوية في القصيدة[328]. كما تكلم بالتفصيل عن مواطن الإيجاز والإطناب وربط بينهما وبن الأغراض (المقاصد) ومقامات المتلقين، مع تعرضه إلى السجع والازدواج والاقتباس والتقسيم واللغز والأسلوب الحكيم والاحتراس والهزل يراد به الجد، والاعتراض والتعريض والكناية والاستعارة كما تضمن كلامه في"الحيوان"إشارات إلى الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة،إلى غير ذلك من الأدوات

---

(326) وليد قصاب، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، ص68

(327) م نفسه، ص 62

(328) أحمد جليل ، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، دار الطليعة، بيروت، لينان، ص91 328

الإجرائية البلاغية، وهكذا استحق أن يكون بمثابة المؤسس الفعلي للبلاغة العربية[329].

غير أن الجاحظ المتكلم المعتزلي " لم يكن معنيا بقضية "الفهم" فهم كلام العرب وحسب، بل لقد كان مهتما (أيضا) ولربما في الدرجة الأولى، بقضية "الإفهام"، إفهام السامع وإقناعه وقمع المجادل وإفحامه "[330] ومن هنا فإن اهتمامه سيكون مختلفا عن اهتمام الأصوليون مثلا، إذ أن ما " سيشغله أساسا هو شروط إنتاج الخطاب وليس قوانين تفسيره. ومن هنا نجده يدخل "السامع" كعنصر محدد وأساسي في العملية البيانية، بل بوصفه الهدف منها»[331]

ومن هذا المنطلق في تعامل الجاحظ المرتكز على السامع (المتلقي) فقد أسس « بداغوجية تضع السامع وأحواله النفسية موضع الاعتبار الكامل ولذلك نجده يلجأ في كتابه إلى التنويع والاستطراد قصد الترويح عن السامع وشده إليه، حتى لو أدى به ذلك إلى الخروج عن الموضوع. ولقد كان الجاحظ واعيا تمام الوعي بنوع طريقته في الكتابة مؤمنا بجدواها وتأثيرها. يقول عقب استطراد من استطراداته الكثيرة في كتابه "البيان والتبيين" عندما ساقه الكلام إلى ذكر مسائل تخص المرأة: « وهذا باب يقع في كتاب الإنسان وفي فصل ما بن الذكر والأنثى، وليس هذا الباب مما بدخل في باب التبيان والتبيين، ولكن يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطا لقارئ الكتاب، لأن خروجه من الباب إذا طال، لبعض العلم، كان ذلك أروح على قلبه وأزيد في نشاطه»[332]

إذن فالجاحظ قد اختار طريقته في الكتابة بوعي ولأغراض بيداغوجية معتبرا إياها أكثر "بيانا" أي أكثر امتلاكا للسامع وجذبا له»[333]

---

(329) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص369

(330) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص24

(331) م نفسه، ص 24

(332) ينظر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1 ص 128

(333) محمد عابد الجابري، م سابق، ص 26

يتطرق "الجابري"إلى شروط انتاج الخطاب االبياني التي وضعها الجاحظ فيجملها فيما يلي[334]:

الشرط الأول: البيان وطلاقة اللسان: ينطلق الجاحظ في كتابه منذ السطور الأولى، من ذم «السلاطة والهذر» و «العي والحصر» و «الحبسة» و «عقدة اللسان»، وكأنه يريد أن يعرف البيان بالسلب، بما ليس هو إياه، وفاقا مع المثل العربي المشهور القائل: «بضدها تتميز الأشياء» فالجاحظ يربط بين البيان وطلاقة اللسان. ومن الآيات التي يستشهد بها الجاحظ والتي يريد من خلالها أن ينبه القارئ إلى ارتباط البيان بسلامة اللسان والقدرة على الإفهام، قوله تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »[335]. ويعلق الجاحظ على ذلك قائلا: «إن مدار الأمر على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم»[336].

ثم يذكر الجاحظ الآفات التي تفسد البيان وترجع إلى خلل في الجهاز الصوتي مثل اللجلجة والتمتمة واللثغة.....إلخ، فلسلامة البيان لابد من سلامة الجهاز الصوتي المنتج لهذا البيان.

فالجاحظ بجعل قضية الإفهام أهم من غيرها في العملية التواصلية، وهذه القضية تنبني عنده على استثمار مقولة "لكل مقام مقال" ،فلكل مقام تواصلي معين من المؤكد أنه سيخلق تأثيراته على العملية التواصلية، وسيفرض اختيار إستراتيجية تداولية معينة تتطابق وتتناسب مع هذا المقام، فيقول: « وأرى أن ألفاظ بألفاظ المتكلمين مادمت خائض في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام، فإن ذلك أفهم لهم عنّي وأخف لمؤونتهم علي ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها فلم قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد

---

(334) م، نفسه، ص 26، وما بعدها

(335) سورة ابراهيم، الآية، 04

(336) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص8

أن كانت مشاكلة بينها وبين تلكم الصناعة، وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطة أهله وعبده وأمه، أو في حديثه إذا تحدث أو خبره إذا خبّر. وكذلك فإنه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعزب وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل. فلكل مقام مقال ولكل صناعة شكل»[337] إذن فالصناعة – كما يعبر عنها الجاحظ – تفرض على المتكلم إتباع استراتيجيات تداولية انتقائية للكلمات والعبارات يتم من خلالها تحقيق نوع من المرونة والتناسب مع الظروف الحضارية والثقافية والطبقية والموضوع المتحدث فيه، بالإضافة إلى اعتبارات المتلقي واهتماماته التي لابد من استصحابها في عملية إنتاج الكلام. فالمتكلم مهما كان جنسه ومهما كانت لغته فهو مضطر إلى إحداث «نوع من التوافق بينه وبين متلقيه المربوط بدوره بعدة حيثيات وظروف، من خلال خلق تطابق بين كلامه في بعده الاستراتيجي التداولي والمقام المحاصر للعملية التخاطبية من كل الزوايا والروافد»[338].

فمن خلال هذا الشرط الأول الذي يقدمه الجاحظ لإنتاج الخطاب البياني، يتضح الدور الأساسي الذي يلعبه المقام في الفكر البلاغي العربي. وهو يتماثل إلى حد كبير مع مقاربات الدرس التداولي المعاصر، الذي يعتبر السياق ركن أساسي في أي مقاربة لغوية باحثة عن المقاصد والأغراض ضمن العلمية التخاطبية.

الشرط الثاني: البيان وحسن اختيار الألفاظ[339]

الشرط الثاني لإنتاج الخطاب البياني الذي يضعه الجاحظ هو شرط حسن اختيار اللفظ وجزالته حتى يكون مناسبا للمقام مع تجنب الجمع بين الألفاظ المتنافرة حروفا كانت أو كلمات، ويورد الجاحظ في هذا الصدد عدة نصوص منها قوله: « ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد

---

(337)الجاحظ، الحيوان، تحقيق ع السلام هارون، ج3، ص 368

(338) واضح أحمد، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، جامعة وهران، ص 162

(339) ينظر: محمد عابد الجابري، م سابق، ص 27

القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث»[340]، وواصل الجاحظ في توضيح هذا الشرط في سياق مقارنته بين ألفاظ أهل البصرة أهل مكة من جهة الفصاحة فيقول[341]: « ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسمون القِدر بُرمة وتجمعون البُرمة على بِرَام، ونحن نقول قِدرٌ ونجمعها قُدُور، وقال الله عز وجل: « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ»[342]. وأنتم تُسمون البيت إذا كان فوق البيت عُلية، وتجمعون هذا الاسم على عَلاَلِيّ، ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف، وقال الله تبارك وتعالى:« غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ»(343) وقال: « وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آَمِنُونَ»[344] وأنتم تسمون الطلع كافور والاغريضَ، ونحن نسميه الطلع وقال الله تبارك وتعالى: « وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ»[345] ....»[346] ويوضح الجاحظ أحد أسباب شيوع مثل هذه الانحرافات التوظيفية لألفاظ اللغة، فيقول:«والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا وتدع ما هو أظهر وأكثر، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه، وكذلك المثل السائر»[347]

فالجاحظ يقترب في كلامه من مفهوم الاستلزام الحواري الذي هو من مبادئ التداولية،فالاستلزام هو أن يعبر المرسل بالمفهوم بدلا من اقتصاره على التعبير عن قصده

---

(340) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 18

(341) ذكر الجاحظ هذا في سياق ايراده لحديث أهل مكة مع الشاعر محمد بن المناذر البصري.

(342) سورة سبأ، الآية 13

(343) سورة الزمر، الآية 20

(344) سورة سبأ، الآية 37

(345) سورة الشعراء، الآية 148

(346) الجاحظ، البيان، ج1، ص 19

(347) م نفسه، ص 20

بالمنطوق. فمفهوم الموافقة والمخالفة عند الجاحظ يتوافق مع ما يقصده "غرايس"بالاستلزام في أثناء الحوار الذي يدور بين طرفي الخطاب.

فالجاحظ يرى أن العامة في تعابيرهم يستعملون اللفظ للدلالة على مرجع لم يوضع له في أصل وضع اللغة. لكن أطراف الخطاب يفهمون القصد من هذا اللفظ المستعمل بحكم التعود على استعماله بهذه الطريقة. ومثال ذلك لفظتي المطر/ الغيث

المطر ← نزول الماء من السماء يقصد العقاب والعذاب

الغيث ← نزول الماء بقصد الرحمة والنفع

ففي المعنى الأصلي للفظين هو:

المطر ← العقاب والعذاب

الغيث ← الرحمة والنفع

لكن العامة توظف كلا اللفظين بمعنى واحد

المطر
الغيث } الماء النازل من السماء للنفع والرحمة

فالجاحظ لا يشدد الإنكار على هذا التوظيف، لكنه يرى أن الأفضل والأصح أن نضيف شرط توفر الحكمة "حكم الكلام" الذي يعني أن تتكلم بوضوح، متحاشٍ الغموض والخلط والإبهام. وهذا يدخل ضمن مبدأ التعاون الذي وضعه "غرايس" في تقنينه لحكم الحديث.

كما يعتمد الجاحظ على مفهوم المقصدية في التمييز والتفريق بين معاني الألفاظ المتقاربة فالثنائيات مطر/غيث، جوع/سغب، لها معاني أساسية مشتركة وتتمايز إلا من خلال المقصدية في كل لفظه.

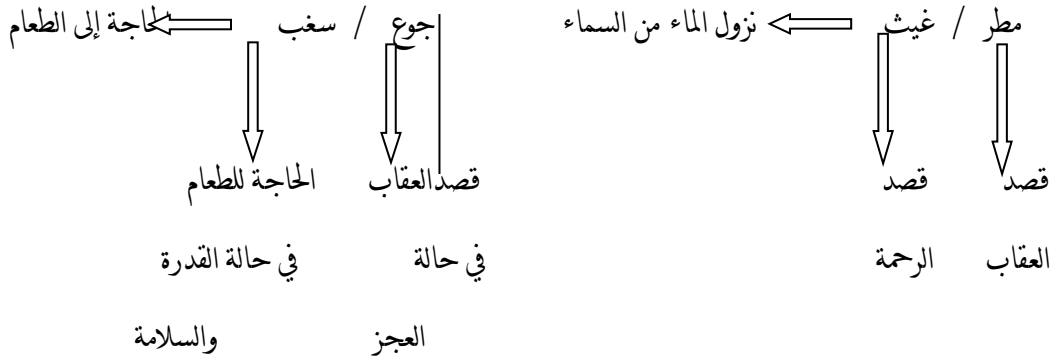

يمكن أن يتضح هذا المخطط من خلال الجدول التالي[348]:

استعمال الناس			الاستعمال القرآني		
المقال	**الموضع**	**الملاءمة**	**المقال**	**الموضع**	**الملاءمة**
الجوع	القدرة و السلامة	–	الجوع	العقاب او الفقر المدقع او العجز الظاهر	+
المطر	الاغاثة و العون	–	المطر	الانتقام	+

فالفروقات بين الثنائيات اللفظية عند الجاحظ ترتبط بالمقصدية وأيضا بحالات معنية ومحددة يتحقق فيها شرط الملاءمة بالرجوع إلى النموذج الأمثل لاكتساب اللغة.

الشرط الثالث: البيان والكشف عن المعنى[349]

في الشرطين السابقين تكلم الجاحظ عن الجانب الشكلي الصوتي للخطاب اللغوي، لكنه في الشرط الثالث ينتقل إلى مستوى الدلالة أي دلالة اللفظ على المعنى، فيقول: «المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم،...مستورة خفية...وإنما يحيى تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها...وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار

(348) احمد ودرني، قضية اللفظ والمعنى و نظرية الشعر عند العرب، دار الغرب الاسلامي،بيروت ، لبنان، ط1، 2004، ص720.

(349) الجابري،م ، سابق، ص28

المعنى...والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان»[350] فالبيان هو الكشف عن المعنى، فإذا لم يكن معنى لم يكن بيان، فالألفاظ بدون معان تبقى مهملة لا توصف لا بالفصاحة ولا بالبيان تماما مثلما أن المعاني بدون ألفاظ تعبر عنها تبقى محجوبة مكنونة.

والجاحظ يوسِّع مفهوم البيان إلى أكبر من الوسائل اللغوية، فهو يعتبر أن البيان «اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع وإنما الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع....وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصبة»[351].

إذن فالبيان –عند الجاحظ– هو الدلالة مهما كانت الوسيلة المستعملة لتحقيقها، سواء كانت لغوية أو غير لغوية، ويحدد هذه الوسائل كما يلي:

1. **اللفظ:** يقول الجاحظ:« والصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجَد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منشورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف»[352].هذا الكلام للجاحظ يقابل مفهوم التواصل اللفظي في الدراسات التواصلية المعاصرة، ويتم هذا النمط من التواصل عبر القناة الصوتية وصولا إلى القناة السمعية.

كما أن إشارة الجاحظ إلى دور التقطيع والتأليف في تكوين اللفظ والكلام يقابل ما تحدث عنه (اندريه مارتنيه) عن الوحدات الخطابية والتي منها وحدات الصوت (الفونيم Phonème) ووحدات المقطع (المورفيم morphéme)، ووحدات المعجم، ووحدات التركيب. كما يمكن أن

---

(350) الجاحظ، البيان، ص75–76

(351) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 76

(352) م، نفسه، ج1، ص 79

نطابق ما يعنيه الجاحظ باللفظ والأفعال الكلامية في الدرس التداولي المعاصر، على اعتبار أنها تنطلق من التلفظ بهذه الأفعال في سياقات مختلفة.

2. **الخط:** الخط عن الجاحظ هو صورة التحول من الشفاهي إلى الكتابي، لكن هذا التحول يضفي بعض المميزات، ذلك أن «القلم أبقى أثرا، واللسان أكثر هذرا»[353] وقول أيضا «استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام...وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن، والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوز إلى غيره»[354]

يطابق هذا التوجه الجاحظي ما تتبناه الدراسات التواصلية المعاصرة من مفهوم «التواصل الكتابي»، وتعتمد مقاربة التواصل الكتابي على الكتابة[355] باعتبارها وسيلة مهمة وفعالة في عملية التواصل، فهي تنظر إلى الكتابة بوصفها فعلا إلزاميا لابد من استخدامه في بعض الظروف القاهرة التي تنبع من قصدية الباب، ومن بين هذه الظروف والغايات التي تفرض إلزامية التواصل الكتابي وتجاوز التواصل اللفظي، منها:

- عندما لا نريد استجابة مباشرة
- عندما تكون رسالة تواصلية معقدة ومفصلة
- عندما نحتاج إلى سجل دائم أو مرجعية دائمة يمكن العودة إليها في أي ظرف من الظروف المستقبلية وهو ما ذهب إليه الجاحظ بقوله عن فائدة الخط للشاهد وللغائب، وللقريب والبعيد، وبأنه يمكن أن يقرأ في كل زمان ومكان ...

ولقد كانت الحروفية العربية والزخرفة والنمنمة والرقش وسائل مناسبة للخروج من دائرة " التجسيد " والذهاب بعيدا في التجريدات الغنائية البصرية التي تجمع بين الدلالة القادمة من النص

---

(353) الجاحظ، البيان، ج1، ص 79

(354) م، نفسه، ج1، ص 80.

(355) محمد يسري عيسى، الاتصال والسلوك الإنساني، رؤية في انثروبولوجيا، الاتصال، البطاش سنتر، الاسكندرية، مصر، ص169

الديني، والشعر والنثر،بالإضافة إلى الزخارف التي اعتمدت على تراتب الخطوط والأقواس، وتكرار اللوازم بما يؤدي إلى موسيقى بصرية واضحة[356].وفي تحديده لعلاقة اللساني بالبصري، يعتبر(محمد التونسي جكيب) أن العلاقة التي تنشأ بين اللغة والشكل،تكمن في النظر إلى الشكل على أنه "لغة ذات مواصفات خاصة"[357] وأن الأشكال الخطية لا يمكن فصلها عن اللغة التي تفرض نوعا خاصا من التواصل هو التواصل المكتوب، وهذا ما أدى بالباحثين في الخطاب البصري إلى افتراض التشابه بين العلامة اللسانية والعلامة البصرية .وهذا أعطى شرعية للشعراء بأن "جعلوا من البعد الشكلي أو البصري أو الغرافيك جزءا من التجربة الشعرية ولم تعد لغة عمياء، بل صار لها شكل، تنتجه بنفسها، ولم تعد مجرد قالب فحسب"[358] وهذا ما يذكرنا بالمحاولات الكاليغرافية الرائدة لبعض الشعراء الغربيين، أمثال رامبو و أبولينير.

3. **الإشارة:** يقول الجاحظ «فأما الإشارة فباليد وبالرأس، وبالعين، وبالحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب والسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا... والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ»[359] والإشارة تتجاوز اللفظ في نقل معاني مخصوصة لا يمكن نقلها باللفظ فلولا «الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة»[360] ويمثل الجاحظ لهذا بعدة أمثلة منها قول الشاعر[361]

---

(356)فؤاد عبد العزيز محمد، موسيقى البصر في النص والصورة التلفزيونية-مقاربة جمالية بين المدخلات النصية والتشكيلية والصورية الثابتة والمتحركة في التلفزيون، كلية الاتصال، قسم الاتصال الجماهيري، مسار الراديو والتلفزيون، جامعة الشارقة، ص02

(357)محمد التونسي جكيب، إشكالية مقاربة النص الموازي وتعدد قراءته عتبة العنوان نموذجا، المؤتمر العلمي الدولي الأول النص بين التحليل والتأويل والتلقي، مجلة جامعة الأقصى، مجلة علمية محكمة نصف سنوية، غزة، فلسطين، الجزء الأول، جوان2006، ص551.

(358)محمد الماكري، الشكل والخطاب– مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص136.

(359) م، نفسه، ج1، ص77–78

(360) م، نفسه ج1، ص 78

(361) م، نفسه ج1، ص 78

أشارت بطرف العين خيفة أهلها * إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا * وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

يتوافق الجاحظ في كلامه عن الإشارة مع الدراسات الحديثة المختلفة في دراستها لما يعرف بـــ "لغة الجسد" وربما كان أكثر الأعمال تأثيرا في هذا المجال «فيما قبل القرن العشرين هو كتاب تشارلز داروين "التعبير عن المشاعر عند الإنسان والحيوان". والذي نشر في عام 1872 ... والذي أدى إلى الدراسات الحديثة لتعبيرات الوجه ولغة الجسد وأقرّ الباحثون في جميع أنحاء العالم العديد من أفكاره وملاحظاته، ومنذ ذلك الوقت لاحظ الباحثون وسجلوا ما يقارب من مليون إشارة ودلالة غير لفظية، وقد وجد "ألبرت ميهرابيان" . وهو باحث رائد في مجال لغة الجسد في الخمسينيات من القرن الماضي، أن التأثير الكلي للرسالة يتحقق من خلال الشق اللفظي بنسبة 07% والشق الصوتي بنسبة 38% (متضمنا نبرة الصوت وتغير مقامه وغير ذلك من الأصوات) والشق غير اللفظي بنسبة 55% »[362] وقد درس "راي بيردوستل" ما أطلق عليه "علم حركات الجسد" وقد أجرى بعض « التقديرات لمقدار التواصل غير اللفظي الذي يجري بين البشر وقد وجد أن الشخص العادي يتحدث بالكلمات لحوالي عشر دقائق أو إحدى عشرة دقيقة في اليوم، وذكر أيضا أننا يمكننا إصدار والتعرف على ما يقرب من 250000 تعبير وجه. وقد وجد أن المكون اللفظي لمحادثة وجها لوجه يمثل أقل من 35% وأن أكثر من 65% من التواصل يتحقق بشكل غير لفظي»[363]

ونجد مجموعة من التعريفات لمصطلح "لغة الجسد" في الدراسات الحديثة بتوجهاتها المختلفة، ومنها:

1. نوع من التواصل غير الشفهي[364]

---

(362) آلان وباربرا بيز، المرجع الأكيد في لغة الجسد، مكتبة جرير، السعودية، ط1، 2007، ص 09

(363) م، نفسه، ص 10

(364)بيتر كليتون ، لغة الجسد، ترجمة دار الفاروق، مصر، ط1، 2005، ص06

2. الحوار النفسي الذي يجري بين الأطراف المعنية والمعاني المنتقلة بينهم ، لا من خلال النطق، بل من خلال الصمت والملامح العامة للإنسان الصامت؛ كنظرات العيون وتعبيرات الوجه وحركات الجسم[365]

3. إشارات وإيماءات جسدية ترسل رسالات محددة في مواقف وظروف مختلفة، تظهر لك المشاعر الدفينة وتخرجها للسطح، فتصل من خلالها معلومات أو أفكار عن الشخص الآخر، بحيث لا يستطيع إخفاء الأفكار التي تدور في ذهنه.[366]

ما يمكن ملاحظته أن الجاحظ يلتقي مع هذه الدراسات الحديثة وهذه التعريفات للإشارة أو لغة الجسد فيما يلي:

1. أنها تواصل غير لفظي.
2. أنها تنقل معان ودلالات لا يمكن للتواصل اللفظي أن ينقلها «ولو لا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص»[367].
3. أن الإشارة مجالها أوسع من اللفظ في بعض الأحيان وأكثر تأثيرا منه «ولولا أن تفسير هذه الكلمة (يعني الإشارة) يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم ...وهذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت»[368].

فالجاحظ إذن يعتبر الإشارة ضرورية لتعميق القيمة التعبيرية والقدرة الإبلاغية للملفوظ، بل تتعدى غلى القيمة التأثيرية في المتلقي تأثيرا أكبر من الملفوظ الصوتي، ويلتقي في هذا مع ما ذهب إليه (تودوروف) حين يقول: «إن التبليغ لا يتم بواسطة العلامات اللسانية وإنما بوسائل

---

(365)عبد الله عودة، الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، مجلة المسلم المعاصر، مجلة فصلية محكمة، لبنان، العدد112، 2004، ص02.

(366)محمد محمود بني يونس ، سيكولوجيا الواقعية والانفعالات ، دار المسيرة، عمان، ط1، 2007، ص340.

(367) الجاحظ، البيان، ج1، ص 78

(368) م ، نفسه ، ص 78–79

رمزية تحيط بهذه العلامات وتحف بها من كل جانب»[369] فالإشارة تضيف للفظ قوة إنجازية وتشحنه بطاقة إفهامية حتى تصل به إلى القصدية الإقناعية.

4. **النصبة:** يعرف الجاحظ النّصبة بقوله: «هي الحال الناطقة بغير لفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان»[370] فالنصبة هي الهيئة الدالة بنفسها من غير واسطة من وسائط التواصل اللغوي، بل يتوصل إلى دلالاتها من خلال التفكير والتدبر.

وظاهر أن مفهوم النصبة عند الجاحظ يقابل مفهوم الرمز في الدراسات السيميائية واللسانية الحديثة، ويقوم مفهوم الرمز على ركيزتين هما: «مبدأ التوافق القياسي ومبدأ التداعي الطبيعي للأفكار، ويتحقق ذلك حين يكون الطرف الأول في الرمز (الدال) متواجدا في العالم الواقعي، ويكون الطرف الثاني (المدلول) من التجريديات»[371]

وقد تعددت المقاربات التي تحاول تعريف الرمز وتوضح دوره الدلالي وبعده التواصلي. والرموز كما يرى بول ريكور "تنتمي إلى حقول بحث متعددة جدا ومتشعبة جدا ...يهتم التحليل النفسي بالأحلام و عوارض أخرى ...ومن ناحية أخرى تفهم الشعرية ... الرموز على أنها الصورة الفنية الأثيرة في قصيدة معينة"[372] كما يرى "مؤرخ الدين في الرموز وسطا لتجليات المقدس أو ما يسميه (مرسيا إلياد) إشراقات القدسي"[373]فالاختلاف قائم في مفهوم الرمز"لأنه ما من فرع من فروع المعرفة إلا ويحاول احتكار الرمز، ويدعي بأنه هو الأقدر على تفسيره مثل

---

(369) الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 246

(370) الجاحظ، البيان، ج1، ص81

(371) نواري سعود أبوزيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ الاجراء، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009

(372)بول ريكور، نظرية التأويل ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثافي العربي، المغرب ط1، 2003، ص94.

(373)المرجع نفسه، ص96.

علم النفس، وتاريخ الحضارة والديانات، وعلم الإناسة الثقافية، والنقد الفني، وعلم اللغة، والطب والدعاية السياسية"[374].

و تذهب الدراسات اللسانية اللغوية إلى أن "المجتمع هو الذي يحدد معنى الرمز، أو هو الذي يضفى على الأشياء المادية معنى معينا فتصبح رموزا ... واكتشاف معنى الرمز لا يتم عن طريق فحص ذلك الكيان أو الشكل المادي وحده، و إنما يمكن فقط إدراك معناه بالالتجاء إلى وسائل وأساليب وطرق أخرى غير مجرد الاعتماد على الحواس"[375].

و عليه فالرمز يبقى معناه مرتبط بالفرد لا بالجماعة، لأن الانفعال هو سلوك فردي وليس جماعي والفرد/المتلقي وحده هو المسؤول عن إنتاج دلالات متعددة لرموز مختلفة بل لرمز واحد، هذا التعدد والتنوع في الدلالة مَرَدّه إلى نسبية الأشياء التي يتحدث عنها الشاعر، وبالتالي يبقى الاحتمال هو الشيء الأساسي الذي يركز عليه القارئ، حتى يستطيع أن يتفاعل مع نص من النصوص فالرمز لا يناظر أو يلخص شيئا معلوما، فهو ليس مشابهة أو تلخيصا لما يرمز إليه، ولكنه أفضل صياغة ممكنة لشيء مجهول نسبيا وبالتالي تكون قراءة الرمز قراءة تأويلية وليست تفسيرية[376]. فهذه المقاربة لمفهوم الرمز تلتقي مع مفهوم النصبة عند الجاحظ، ويمكن أن نلمح السمات المشتركة التالية:

1. أن طرفي النصبة (الرمز) **الدال** يكون موجود في العالم الواقعي المادي، و **المدلول** يكون تجريديا.
2. أن النصبة تكتسب دلالتها من خلال عمليات فكرية تنطلق من التفكير و التدبر لتنتهي بالاستنتاج.
3. أن هذه الدلالة تكون فردية يمكن أن يوجهها السياق الاجتماع.

---

(374) قاسم مقداد، هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحمي، دار السؤال للطباعة والنشر ، دمشق ط1، 1984، ص52.

(375)أحمد أبو زيد، الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي، مجلة عالم الفكر، دورية تصدر عن و ازرة الإعلام- الكويت-، المجلد السادس عشر العدد الثالث، 1985، ص05.

(376)أحمد قيطون، الرمز والتحديد المستحيل، مجلة مقاليد، العدد الأول، جوان 2011، ص116.

4. أن قراءة النصبة (الرمز) تكون قراءة تأويلية و ليست قراءة تفسيرية.

الشرط الرابع: البيان والبلاغة

بعد أن تناول الجاحظ وسائل البيان وآلته وأدواته، يتنقل الجاحظ إلى الهدف من هذا البيان، وهذا الهدف هو التبيين والذي ينبني على التوافق بين اللفظ والمعنى.

يذكر محمد العمري انه واعتمادا على الجدول السابق أن البيان عند الجاحظ قائم على «الفهم والإفهام»[377] لكنه ليس بالمعنى التعليمي المعروف بل انه يتجه «اتجاها إقناعيا ممتدا بن قطبي الاستمالة والاضطرار مع تداخل هذين المستويين خاصة في الوسائل المؤدية إليها»[378]

يذكر الجاحظ في وصفه لمتكلم بليغ «وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك»[379] ويوضح هذا المعنى أكثر فيقول: «وقال بعضهم، وهو من أحسن ما اجتبيناه ودَوَّناه، لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[380]. وقد وضع محمد العمري خطاطة جمع فيها تمفصلات البيان عند الجاحظ، يوضح فيها كل مايحيط بهذا المفهوم[381].

---

(377) محمد العمري م، سابق، ص 199

(378) محمد العمري، م، سابق، ص 199

(379) الجاحظ، البيان، ج1، ص 111

(380) الجاحظ، البيان، ج1، ص 115

(381) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص198.

المؤهلات و العوائق		صفات البيان وموضوعه		الغرض
المؤهلات	العوائق	الصفات	الموضوع	التأثير
المنطق	العي	الإبلاغ	الدعوة الى مقالة	استمالة القلوب
الأحلام	الحصر	الإبانة	الدفاع عن	ثني الإقناع
العقول	ضيق الصدر	الإفصاح	النحلة	التصديق
الدهاء	توقف اللسان	الوضوح	الحجة	ميل الأعناق
المكر	اللثغ	الصحة	الحاجة	فهم العقول
الألسنة		البيان	المنازعة	إسراع النفوس
النكراء		حسن التفصيل		الاستمالة
التمييز		الإيضاح		الاضطراب
السياسة		وضوح الدلالة		التحريك
لباس التقوى		الإفهام		حل الحبوة
طابع النبوة		الفهم		
		الاحتجاج		
		الأدلة		

يبدو أن الجاحظ قد استشعر خطورة تغليب المعنى على اللفظ؛ وما يتضمّنه من قيم أخلاقية على الصياغة والأداء في تقدير البيت الشعري أو العبارة النثرية، لم يخف استنكاره ؛ وقد يتجلّى رأيه بصورة لا تقبل الجدل فيما جرى في مجلس حَضَرَهُ أبو عمرو الشيباني، وأبدى إعجابه وانبهاره بالبيتين المواليين:

لا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبِلَى فَإنّمَا المَوْتُ سؤَالُ الرِّجَالْ

كِلاهما مـــــوْتٌ ولَكِــنْ ذَا أَفْظَعُ مِنْ ذَاكَ لِذُل الســؤال

حيث إن استحسانه لهما جعله يأمر بإحضار دواة وقرطاس وكتابتهما، فاشمأزّ الجاحظ من هذا الموقف وأعلن نفي الشعرية عن هذين البيتين .وأكّد أن صاحبهما لم يقل شعرا؛ لأن الشعر حسب رأيه صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير[382].

(382) الجاحظ، كتاب الحيوّان تح : عبد السلام هارون دار الكتاب لبنان ط3، 1969، ج3، ص130.

فهذه الإشارة توحي أن الجاحظ يذهب إلى تفضيل اللفظ على المعنى، لكن الأرجح هو أنه يشير هنا إلى إمكان وجود معنى بدون لفظ فإنه يرى مستحيلاً أن "يكون اللفظ اسماً إلا وهو مضمن بمعنى، وقد يكون المعنى بلا اسم، ولا يكون اسماً إلا وله معنى"[383].والتمييز بين الحقلين لم يمنع من الدعوة إلى إحداث أشكال من الائتلاف بينهما أو تطابقهما.و يتحقق هذا الائتلاف في مستويات شتى منطلقها أساس[384] وجودي – إن صح الوصف – يقوم على مقابلة المعنى واللفظ بالروح والجسد إذ إن "الأسماء في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح. اللفظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح" [385]، وتتبدى عملية الاحتواء اللفظي للمعنى كتضمن البدن للنفس فالنفوس "المضمنة كالمعاني المضمنة"[386].

و يواصل الجاحظ ضبط المقاييس التي تحكم العلاقة بين اللفظ و المعنى بقوله:"إنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها، والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها، تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة، والجهات الملتبسة" [387] فالعلاقة بينهما منطلقها أساس كمّي لكن تفاعلهما تعمقه طبيعة المعنى ذاته، ذلك أن الغموض والالتباس يحتاجان إذا قصد التوضيح إلى الإطالة والشرح حيث إن عملية التفاعل محكومة بخصوصية في المعنى ذاته، ويتأكد هذا المجرى من منظور الكم أيضاً، فالمعاني "إذا كثرت والوجوه إذا افتنت، كثر عدد اللفظ، وإن حذفت فضوله بغاية الحذف" [388].

وانطلاقاً من هذه العلاقة بين المعنى واللفظ القائمة "على أسس وجودية واجتماعية، ومحكومة

---

(383) الجاحظ، *رسائل الجاحظ*، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي - القاهرة *1964*– ١٩٦٥ م . ج ١، ص :٢٦٢

(384) الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،سوريا، 2001، ص45.

(385) الجاحظ، *رسائل الجاحظ*، ج ١، ص :٢٦٢

(386) الجاحظ، *رسائل الجاحظ*، ج ١، ص*271*.

(387) *الجاحظ، البيان*، ج ١،ص145.

(388) *الجاحظ، البيان* ، ج ٤، ص :٢٨

بفكرة الإبداع، يكون إيلاء أحد الطرفين الأولوية في التعبير مساً وتشويهاً لعملية التعبير نفسها، فشر"[389] "البلغاء من هيّأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر إليه المعنى جراً ويلزقه إلزاقاً"[390]

و مما تجب الإشارة إليه أن الجاحظ في معالجته للعلاقة بين اللفظ و المعنى ينطلق من منطقات إيديولوجية مبنية على الفكر الاعتزالي، وأبرزها قضية الكلام النفسي؛ و هي قضية خلق القرآن بغير اختلاف [391]، فإذا كان "مذهب المشبهة و الحلولية المجسمة، أن كلام الباري حروف وأصوات وأنه قديم"[392]، فإن قول "المعتزلة" و"الخوارج" وأكثر "الزيدية" و"المرجئة" وكثير من "الرافضة" : "أن القرآن كلام الله سبحانه، وأنه مخلوق لله، لم يكن ثم كان"[393] في حين يذهب "أهل الحق من الإسلاميين إلى كون الباري – تعالى – متكلماً بكلام قديم أزلي نفساني. أحادي الذات، ليس بحروف ولا أصوت"[394].

وجوهر الخلاف يكمن في تعريف الكلام: فالمختار عند المعتزلة في حد الكلام: "أنه ما حصل فيه نظام مخصوص من هذه الحروف المعقولة، حصل في حرفين أو حروف"[395]. فإذا كان الكلام هو هذه الحروف المقطعة التي تركب في لفظ، فلا مناص من الإقرار بأن كلامه – أي

---

(389)الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص45.

(390) *حمادي صمود، التفكير البلاغي* عند العرب،أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، السلسلة السادسة، الفلسفة والآداب، مجلد عدد ٢١ ، تونس، ١٩٨١ م.،*ص ١٤٦*

(391) *عياد شكري* ، المؤثرات الفلسفية والكلامية في النقد العربي والبلاغة العربية، مجلة الأقلام، العدد 11، السنة الخامسة عشرة، بغداد، 1980م *ص10*

(392)*الباقلاني، الإنصاف*، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري، مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 1382هـ– 1963م، ط2. ص111.

(393) *الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج 2، ص: 231*

(394)*الشهرستاني، الملل والنحل ، ج 1، ص: 96.*

(395) *القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج 7، ص 6*

الباري –، "محدث مخلوق في محل"[396]. وليس لمعتنقي الكلام النفسي أن يحملوا القرآن المسموع لنا المقروء والمتلو على أن "المراد به العبارة عن كلام الله عز وجل ويزعموا أن ذلك محدث، وأن الكلام القديم سواه"[397]. أما الكلام عند الأشاعرة فإنه "معنى قائم بالنفس يعبّر عنه بهذه الأصوات المسموعة تارةً وبغيرها أخرى"[398].

الملاحظ مما سبق أن الجاحظ ومن منطلق إيديولوجي مبني على مبادئ المعتزلة ينظر إلى الخطاب البلاغي لابد أن يحمل بعدا إقناعيا بالدرجة الأولى، إلا أن الجاحظ حسب (محمد العمري) لم يقدم تعريفا واضحا بين المستوى المعرفي العام للبيان والمستوى الاقناعي التداولي الخاص، بطريقة تجعل المستوى التداولي ظهر على شكل مستوى من مستويات المعرفي العام ذو الطابع اللغوي السيميائي[399].

يواصل (العمري) شرح التوجه الاقناعي في الخطاب البلاغي عند الجاحظ حيث «نجد الإفهام يقدم بدون قيود أول الأمر، الشيء الذي ينسف بعده البلاغي، ثم يتم التراجع عن هذا الإطلاق من خلال تأكيد البعد البلاغي، ومن خلال عملية التراجع هذه يقدم الجاحظ تصوره لبلاغة إقناعية قائمة على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي في حوار مع المقام... لقد انحصرت وظيفة البيان –الذي هو نفسه البلاغة عند الجاحظ– في الفهم والإفهام في بعديه المعرفي و الاقناعي (الاستمالة والاحتجاج) ثم ربطت الأداة بالموضوع والمناسبة أي بالمقام الخطابي، وقد شرح الجاحظ ما يقصده بالموضوع فأرجعه إلى أمرين:

1. أقدار المستمعين
2. أقدار الحالات

وقد استعمل في الحديث عن أقدار المستمعين عدة ألفاظ من أهمها الطبقات، أي الفئات التي

---

(396) *الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص 45*

(397) *القاضي عبد الجبار، المغني، ج7، ص: 88*

(398) *الباقلاني، التمهيد*، تحقيق الأب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي، منشورات جامعة الحكمة في بغداد، بيروت، 1957م. *ص: 251*

(399) محمد العمري، البلاغة العربية، ص199

يكون لها في الغالب معجم خاص، ومصطلحات متميزة مثل المتكلمين والنحاة والعروضيين، كما فرق بين العامة والخاصة إلى غير ذلك من الملاحظات الاجتماعية»[400] أما حديثه عن أقدار الحالات «فينصرف إلى مناسبات القول، فقد يكون المستمع واحدا في الحالتين، ولكن المناسبة تختلف فتختلق لذلك المعاني؛ فخطبة العيد أو الجمعة أو الحفل أو غيرها من المناسبات العامة لا تستسيغ استعمال لغة معقدة أو مغربة»[401] فالجاحظ يعطي المقام دورا محوريا في نجاح الفهم والإقناع الخطابي، غير أن المقام في نظر الجاحظ قد اصطدم بأمرين: «أحدهما وهو الأهم حال اللغة العربية في عصره حيث عمت العجمة واللحن ... والثاني توجه البيان نحو النماذج الخطابية »[402] ولابد من إيجاد حلول لهاتين المسألتين، فلعلاج «المسألة الأولى طُرح مبدأ الصحة وهي ملخصة في مطابقة الكلام للتعبير العربي الوارد من الجزيرة العربية قبل الاختلاط ... أما المسألة الثانية مسألة التفاوت في درجات البيان، واختلاف الوسائل والتعابير، فقد طرحت في حدود المطلبين المتعارضين: مطلب التواصل المقامي، ومطلب الإبداع الشعري، فالخطاب التواصلي الاقناعي وإن كان يستعمل الوسائل الشعرية من تجنيس واستعارة ومطابقات... إلخ، فإن ذلك في حدود خدمة وضوح الدلالة ونفاذ الخطاب»[403].

مما سبق يمكن أن نخلص أن الجاحظ في مقاربته للخطاب البلاغي، توافق في عدة نواحي مع الدرس اللساني التداولي الحديث، ومن هذه النواحي ما يلي:

1. يؤسس الجاحظ في خطابه البلاغي لما يعرف ببلاغة الكلام، فالدلالة عنده لابد أن تكون «دلالة ظاهرة أو مباشرة، كونها تصلنا بالمعنى من غير وسيط، أو كوننا نباشر من

---

(400) محمد العمري، م، سابق، ص201

(401) م، نفسه، ص 202

(402) م، نفسه، ص 202

(403) محمد العمري، م، نفسه، ص 203

خلالها الاتصال بالمعنى، عبر وساطة اللغة»[404] والوسائل الأخر المساعدة التي ذكرها الجاحظ ضمن أدوات البيان فالملاحظ أن هذا الأساس الكمي بن اللفظ والمعنى أو بين الملفوظ ودلالته في العملية التواصلية، يحيلنا إلى مبدأ الكم في الدرس التداولي الذي ينص على أن التلفظ يكون «على قدر الحاجة فقط، وأن لا تتجاوز بإفادتك القدر المطلوب، ويعني هذا الابتعاد عن الاستقصاء المفصل، وتفادي الإطناب والاستطراد في الكلام أو التخاطب»[405] وهذا ما يحث الجاحظ كل خطيب وكل متكلم على الالتزام به وأن لا يخرقه إلا لدواع ضرورية سيلتزمها السياق المقامي، أي بما يتوافق مع مبدأ المناسبة ضمن قاعدة التعاون التداولية والتي تنص بأن يكون الكلام «مناسبا لسياق الحال فالكلام هو مراعاة

مقتضى الحال، أو مناسبة المقال للمقام»[406]

1. فالجاحظ في مقاربته لمفهوم البيان وخاصته في ضبطه للدلالة الناتجة عن التلفظ بالدوال، نجده يتفق اتفاقا تاما مع قاعدة التعاون التداولي لـــ(غرايس) بمبادئها الأربعة، فالخطاب عند الجاحظ يقضي إلى دلالة لا تحتاج مزيدا من التوضيح، أي «تؤدي إلى نص ظاهر المعنى، قطعي الدلالة»[407] فالعلاقة بين اللفظ والمعنى هي علاقة «مُشاكلة وتطابق بين اللفظ الدال والمعنى والمعنى المدلول عليه فهناك معان شريفة وألفاظ شريفة وما على المبين (الشاعر أو الخطيب) إلا أن يطابق بينها»[408] حيث أنه «متى شاكل اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقا ولذلك القدر لفقا، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع وأجدر أن

---

(404) عبد الواسع أحمد الحميري، شعرية الخطاب في التراث النقدي والبلاغي مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص119

(405) جميل الحمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، نسخة الكترونية من موقع الألوكة، ص15

(406) م،نفسه، ص15

(407) عبد الواسع أحمد الحميري، شعرية الخطاب، ص 120

(408) ع الواسع أحمد الحميري، شعرية الخطاب، ص120

يمنع صاحبه من تناول الطاعنين ويحمي عرضه من اعتراض العيابين ولا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة»[409] فالدلالة مضبوطة محددة بدقة تقوم على وضع اللفظ ليدل على معناه المعتاد والموضوع له في الاستعمال.و يمكن أن يوضح هذا الجدول التوافق بين **مقولات البلاغة والبيان** عند **الجاحظ** وبين مبادئ قاعدة **التعاون** التداولية التى وضعها **غرايس**.

(409) الجاحظ، البيان، ج2، ص06

	مبدأ الكم	مبدأ الكيف	مبدأ الأسلوب	مبدأ المناسبة
قاعدة التعاون	تكلم على قدر الحاجة فقط، ولا تتجاوز بإفادتك القدر المطلوب .ويعني هذا الابتعاد عن الاستقصاء المفصل، وتفادي الإطناب والاستطراد في الكلام أو التخاطب.	لا تقل ما تعتقد كذبه، ولا تقل مايعوزك فيه دليل بين .ويسمى هذا المبدأ أيضا بمبدأ الصدق	تجنب إبهام التعبير، وتجنب اللبس، وأوجز كلامك، بحيث تتجنب الإطناب الزائد،وليكن كلامك أيضا كلاما مرتبا.	ليكن كلامك مناسبا لسياق الحال، فالكلام هو مراعاة مقتضى الحال، أو مناسبة المقال للمقام
مقولات الجاحظ	"إنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها، والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها، تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة، والجهات الملتبسة" "من علم حق المعنى أن يكون الاسم لـــه طبقاً، وتلك الحال لـــه وفقاً، ويكون الاسم لـــه لا فاضلاً ولا مفضولاً، ولا مقصراً، ولا مشتركاً، ولامضمن"	"و إياك أن تَعدِل بالسلامة شيئا، فان قليلا كافيا خير من كثير غير شاف" "يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، و لا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع"	"فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المنعقد مغرقاً في الإكثار والتكلف فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع بعد أن يتسق له القول وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة فالمعنى بعد مقيم على استخفائه وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً	"مدار شرف المعنى الصواب، و إحراز المنفعة، مع موافقته الحال، وما يجب لكل مقام من المقال."

المبحث الثاني

الإقناعية في الخطاب الجاحظي

كما أشرنا سابقا، فإنه من الواضح أن الخطاب البلاغي عند الجاحظ، ينطلق من البيان ليستهدف الإفهام، ثم إن المقصد الأبرز لهذا الإفهام هو الإقناع والتأثير في المتلقي.فالخطاب البلاغي عند الجاحظ هو بالدرجة الأولى خطاب إقناعي تأثيري. انطلاقا من هذا لابد من توضيح بعض مقومات التوجه الاقناعي في الخطاب البلاغي الجاحظي.

تعريف الإقناع:

لغة: جاء في لسان العرب:"قَنِعَ(بالكسر)قُنُوعًا وقَنَاعَةً إذا رضي ، وقَنَعَ(لفتح) قْنع يقْنَعُ قُنُوعًا إذا سأل والمَقنع (بفتح الميم) العدل من الشّهود، يقال : فلان شاهد مقنع؛ أي رضًا يقنع به. والقَنَاعَةُ الرّضا بالقسم،وأَقْنَعَه الشّيء أي أرضاه، وأَقْنَعَي كذا أي أرضاني"[410].وورد معنى الإقناع في المعجم الوسيط على أنه "القبول بالرّأي والاطمئنان إليه، فنقول" :اقْتَنَعَ ، قَنِعَ بالفكرة أو الرّأي وقَبِله واطمأن إليه"[411]

يتّضح أنّ معنى الإقناع يرتبط بالرّضى ، وهذا يؤدي إلى أن إقناع المتلقي يكون برضاه وطيب خاطره، ولا يكون بالقوّة و الإكراه .

اصطلاحا: الإقناع هو تلك العمليّة التيّ يؤثّر بها الخطاب في مواقف الإنسان وسلوكه بدون إكراه أو قسر .أي أن المتلقي يذعن للمتكلم برضاه وقبوله، فهو لا يمارس سلطة قهريّة توجب الرّضوخ بالقوّة ولكنه يمثل سلطة تأثيرية قويّة أي أنه محاولة واعية للتّأثير في السّلوك[412].

و يعرفه (هنريش بليث) بقوله: "الإقناع قصد المتحدّث إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي عند المتلقي"[413].

---

(410)ابن منظور ، لساف العرب، (مادة قنع)

(411) مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، مصر ، ط4، 2004، ص763، (مادة قنع)

(412)محمد العبد ، النص الحجاجي العربي ، دراسة في وسائل الإقناع ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته ، ج2، ص678.

(413)هنريش بليث ، البلاغة والأسلوبية ، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ، تر :محمد العمري ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1، 1989، ص64.

فالإقناع يرتبط بقصديّة المتكلم الذي يسعى بوعي تام إلى دفع المستمع لانجاز فعل محدد أو لتغيير سلوك معين أو معتقد ما. ويتحقّق الإقناع بوساطة وسائل وتقنيّات تتعلّق في مجملها بمقاصد الخطاب والمتكلم ودور المستمع المتلقي واللغة التّخاطبيّة المدرجة ضمن الخطاب.

وضحنا في ما سبق مفهوم الإقناع باختصار و دوره في العمل التواصلي. والسؤال الذي يطرح الآن هو هل يتجلى هذا التوجه الإقناعي في الخطاب البلاغي عند الجاحظ؟. ويمكن الإجابة على هذا السؤال من خلال بعض النماذج المأخوذة من كتب الجاحظ.

يؤسس الجاحظ في "البيان والتبيين" لخطاب بلاغي إقناعي من خلال ذكره لمجموعة من النصوص التي تسير في هذا التوجه، ومنها:

- سأل الله عز وجل، موسى بن عمران عليه السلام حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة عن حجته والإفصاح عن أدلته[414]
- ورغبة منه (موسى) في غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعد المشقة[415]
- كان أبو شمر إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه وكان يقول: ليس من حق المنطق أن نستعين عليه بغيره، حتى كلّمه إبراهيم بن سيّار النظام، عند أيوب بن جعفر، فاضطره بالحجة والزيادة في المسألة حتى حرّك يديه وحلّ حُبوته[416].
- ومدح الله القرآن بالبيان والإفصاح، ويحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ، وسمّاه فرقانا، كما سمّاه قرآنا.

فإذا تأملنا هذه النصوص وغيرها مما ورد في كتب الجاحظ، في سياق كلامه عن البيان والبلاغة والخطابة، نجد أن هذه النصوص «تتجه اتجاها إقناعيا واضحا ويأخذ هذا الاتجاه

---

(414) الجاحظ، البيان، ج1، ص7

(415) الجاحظ، البيان، ج1، ص 7

(416) م، نفسه، ج1، ص 91

مساحة ممتدة بين قطبي الاستمالة والاضطرار، مع تداخل هذين المستويين في الوسائل المؤدية إليهما، وبذا يظهر أن البيان عند الجاحظ لا يقتصر على الوظيفة الإفهامية فحسب بل يتعدى ذلك إلى مستوى حقيقي آخر ذو بعد تداولي محض»[417] هو مستوى الحجاجي الاقناعي.

كما تظهر الوظيفة الإقناعية للخطاب البلاغي عند الجاحظ من خلال آلية أخرى تستمد شرعيتها من الإيديولوجية الاعتزالية للجاحظ، فهو متكلم معتزلي، والمتكلم «لا يهمه الجانب الجمالي الفني للكلام بقدر ما يهمه مدى ما يمارسهُ الكلام من تأثير وسلطة على السامع، ومن هنا كان البيان عند الجاحظ منظورا إليه من زاوية وظيفته...فهو نوع من القول تجتمع فيه الصنعة اللفظية و الحجة المقنعة "[418] فالخطاب البلاغي من وجهة نظر الجاحظ الاعتزالية هو " قبل كل شيء سلطة ، سلطة أو هكذا يجب أن يكون ، سلطة يجب أن يمارسها المتكلم على السامع وهي سلطة الحاكم على المحكوم .بدليل ما ورد في القرآن الكريم من ذكر سلطة البيان مقترنة بسلطة الملك و الحكم بالنسبة لنبي الله داود عليه السلام حيث قال تعالى :"وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب"[419] فليس من الصدفة أن تأتي سلطة البيان في سياق واحد مع سلطة الملك"[420] فسلطة الملك تؤدي إلى إقناع المحكوم بتنفيذ التعليمات و الالتزام بها ، و سلطة البيان تؤدي إلى إقناع المتلقي لتبني آراء و أفكار و معتقدات المتكلم.

إستراتيجية الإقناع عند الجاحظ :

مما سبق ترسخ لدينا أن مفهوم البيان عند الجاحظ كما يرى – محمد العمري– تتنازعه و وظيفتان :الأولى إفهامية أما الثانية إقناعية و تبدو الوظيفة الثانية أكثر بروزا من الوظيفة الأولى [421]. ومما لا شك فيه أن الجاحظ قد اعتمد إستراتيجية معينة لتحقيق نجاعة الخطاب الاقناعي عنده ، يمكن استشفاف بعض قواعد هذه الإستراتيجية من خلال تتبع كتابات الجاحظ و

---

(417) أحمد واضح، الخطاب التداولي في التراث البلاغي العربي، ص 173

(418) عبد الواسع احمد الحميري، شعرية الخطاب، ص122.

(419) سورة ص، الآية 20

(420)عبد الواسع احمد الحميري، شعرية الخطاب، ص122

(421)محمد العمري، البلاغة العربية اصولها و امتداداتها، ص194.

تنظيراته لمفاهيم البلاغة و البيان والخطابة ...الخ فإضافة إلى ما ذكرنا سابقا من أن النصوص التي يوردها الجاحظ للتمثيل و الاستشهاد و هدفها الأساسي هو الإقناع ،أي استمالة المتلقي ودفعه لتبني آراء وأفكار معينة .

بالإضافة إلى أن الجاحظ يرى أن الوظيفة الأساس للغة هي الكشف عما في الصدور، وهذا من خلال الإخبار و الإفصاح، وذلك يكون بغرض تقريب الفهم و إحضار الغائب و إدناء البعيد، ومن ثم الوصول إلى الإقناع وهذه هي الغاية التي يسعى المتكلم لتحقيقها.[422]

ويبدوا أن المعتزلة – والجاحظ منهم– كان تصورهم للبيان مبني على الهدف منه وهو الإقناع، ولذلك اهتم المعتزلة بالبيان ضمن إستراتيجيتهم الإقناعية، والتي ترمي إلى التغلب على الخصوم بواسطة الكلام المقنع المبين[423]، وفي هذا الصدد ينقل الجاحظ عن شيخ المعتزلة واصل بن عطاء عنايته ببيانه أثناء محاجة الخصوم و الأكفاء، قائلا " ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ، و أن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل و زعماء الملل، و أنه لا بد من مقارعة الأبطال و من الخطب الطوال و أن البيان يحتاج إلى تمييز و سياسة ... و أن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق وتزين به المعاني، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام و اللسان المتمكن... رأى أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه و إخراجها من حروف منطقه فلم يزل يكابد ذلك و يغالبه، و يناضله و ي يساجله... حتى انتظم له ما حاول، و اتسق له ما أمل"[424]. فسلامة الجهاز المنتج للخطاب من العيوب النطقية، أداة ضرورية لتحقيق الإفهام و بالتالي الإقناع، كما أن السلامة من العيوب النطقية – عند الجاحظ – يكون لها أثر نفسي إيجابي عميق في المتكلم و المتلقي، و العكس كذلك حيث أن العيوب النطقية تجعل المتكلم يعاني شعور سلبي محرج أمام المتلقي مما

---

(422)م.ن، ص194.

(423) نورالدين بوزناشة، الحجاج بين الدرس البلاغي العربي و الدرس اللساني الغربي، رسالة دكتوراة، جامعة سطيف، 2016/2015، ص216 ومابعدها.

(424) الجاحظ، البيان، ص14–15.

يضعف نجاعة الإستراتيجية الإقناعية.

فارتباط الخطاب البلاغي البياني – عند الجاحظ – بالإقناع ينبع من توجهه المذهبي الاعتزالي الذي يتخذ من البيان سلاحا في الرد على الخصوم و إقامة الحجة و الدليل، و بهذا تميز منهج المعتزلة عن بقية الفرق الإسلامية[425].

انطلاقا من هذا التوجه الاعتزالي في فهم البيان و الخطاب البلاغي؛ سعى الجاحظ إلى بناء إستراتيجية متكاملة للخطاب البلاغي لكي يحقق هدفه الاقناعي.

حاول الجاحظ أن يعالج إستراتيجيته الإقناعية شاملة لكل مراحل العملية التواصلية انطلاقا من ما قبل إنتاج الخطاب إلى إنتاجه ثم توصيله إلى المتلقي ثم استجابة المتلقي(الإقناع) وقد لخص محمد عابد الجابري هذا التصور الجاحظي في كتابه (بنية العقل العربي) حيث تناول فيه العملية البيانية بمختلف مراحلها من خلال حديثه عن شروط إنتاج الخطاب البياني عند الجاحظ، و الذي يؤدي بالضرورة إلى الإقناع. و قد تكلمنا في صفحات سابقة من بحثنا هذا عن دراسة محمد عابد الجابري هذه و التي ملخصها أن الجاحظ يؤسس لشروط إنتاج الخطاب البياني، وهذه الشروط هي:

1. البيان وطلاقة اللسان .
2. البيان و اختيار الألفاظ.
3. البيان و كشف المعنى
4. البيان و البلاغة
5. البيان سلطة

مما لا شك فيه أن توجه المعتزلة –و الجاحظ خاصة– في خطابهم البلاغي نحو هذه القصدية الإقناعية كان "تمثيل موقفا حضاريا ومحاولة إرساء مجتمع عقلاني ، تربط بين أفراده علاقات الإقناع بالمنطق ، أو الاستمالة بشتى صور الدلالة والتعبير الاجتماعي ، اعتمادا على رصيد منتخب من مأثور الأقوال الخطبية و الشعرية ... نظرية البيان و البلاغة باعتبارها

(425) محمد العمري، م.س، ص199.

موقفا وسطا بين العنف الأناني من جهة ، والصمت المتخاذل من جهة ثانية فكان من الطبيعي أن يلامس الحديث التقني البلاغي المفاهيم و المواقف الاجتماعية "[426] مما سبق يحق لنا أن نطرح السؤال التالي : ما هي العوامل التي يرى الجاحظ أنها تساهم في إنجاح الخطاب البلاغي الإقناعي ؟ أي التي تؤدي إلى تغيير المواقف و المعتقدات بسبب التواصل الإقناعي؟

الخطاب البلاغي الاقناعي عند الجاحظ وفق نظرية تعلم الرسالة

تعود نشأة نظرية تعلم الرسالة إلى (كارل هوفلاند) و زملائه في جامعة (يال)، وهي نظرية تقوم على "دور تعلم الرسالة في عملية تغيير المواقف ... لكن هذه المجموعة لم تقدم نظرية محددة حول كيفية إقناع الناس أو كيفية تغيير المواقف ، بل عمدت إلى تقديم مجموعة من الافتراضات العملية المنبعثة أساسا من بعض القوانين التي تحكم عملية تعلم المهارات الكلامية و الفنية ، وتقترح جماعة (يال) أن أي اتصال ، حتى تتحقق له صفة الإقناع ، يجب أن يحظى باهتمام المستمع ويجل أن يكون مفهوما ، وبناء على هذا المستمع أن يقوم باستعراض الرسالة و نتائجها مرارا في ذهنه ، و بهذا يكون قد خلق علاقة بين القضية المعنية و الاستجابة المطلوبة لها و من الممكن أن استعراض القضية مرارا يقوي الذاكرة ، ويجعل تذكر تلك القضية أمرا سهلا ، لأنه حسبما تناقض هذه المجموعة أن الاتصال الإقناعي يجب أن يكون يسهل تذكره [427]. حاول هو فلاند و زملاؤه تحديد عوامل التأثير لإحداث الإقناع ، من خلال دراساتهم و الإجابة على السؤال التالي [428]: **من بث الرسالة؟ = المصدر قال ماذا؟ مضمون الكلام = الرسالة . لمن بث الرسالة؟ = المتلقي.**

وتحت أي تأثير و باختصار تبعا لنظرية تعلم الرسالة، فإن العناصر الإقناعية مثلا: (المصدر،الرسالة) تحاول التشكيك في موقف إنسان، تقترح تبني موقف آخر، وتقدم العلل و

---

(426) محمد العمري، م.س، ص210.

(427) علي رزق، نظريات في أساليب الإقناع، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص78-79.

(428) م.نفسه، ص81 ومابعدها.

الدوافع (مثل الوعد بالتخلص من وضع سيء)، الإصغاء إلى الرسالة الجديدة ، وفهمها، الإذعان لها، والمحافظة على الموقف الجديد بدلا من الموقف القديم، و المخطط التالي يوضح عوامل الإقناع و ما يحيط بها.

المتغيرات المستقلة
المصدر
الرسالة
المتلقي
الوسيلة

العوامل المتوسطة
الإصغاء
الفهم
الإضعان
الحفظ

التأثير الاتصالي
تغيير معتقد
تغيير موقف
تغيير سلوك

وهكذا حسب نظرية تعلم الرسالة فإن العناصر التي تؤثر على عملية تغيير المواقف هي:

1. الإصغاء أو الإنتباه
2. الفهم
3. الإذعان
4. الحفظ

هذه العناصر تتأثر تأثرا مباشرا بعوامل أخرى مثل:

1. المصدر.
2. الرسالة.
3. المتلقي .
4. وسيلة الإتصال.

انطلاقا من نظرية تعلم الرسالة سنحاول أن نستشف مقومات و مميزات عناصر الإقناع في الخطاب الجاحظي.

أولا: مقومات المصدر (المرسل):

يذكر الجاحظ في سياق حديثه عن صفات المرسل (المتكلم) و ما يجب أن يتميز به، يذكر دعاء نبي الله موسى عليه السلام بأن يحل الله عقد لسانه لكي يتمكن من تبليغ رسالته على أكمل وجه و أتمه[429]،ثم يواصل فيقول :" و ليس حفظك الله ، مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، و سقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة، و عن الحصر من فوت درك الحاجة، وهم يذمون الحصر، و يؤنبون العي، فإن تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء، و تعاطيا مناظرة البلغاء تضاعف عليهما الذم و ترادف عليهما التأنيب"[430].

ويقول أيضا "وليس اللجلاج و التمتام، و الألثغ و الفأفأة، وذو الحبسة و الحكلة و الرثة، وذو اللفف العجلة"[431] فالموقومات الأولى للمتكلم (المصدر) عند الجاحظ أن تكون آلة إنتاج الكلام عنده سليمة و أن يكون خالي من الأمراض النطقية المختلف، و أن يكون متمكنا من قواعد اللغة حتى يتجنب الوقوع في الخطل و الخطأ أثناء تأدية الرسالة لأن الخطأ يؤثر على القوة الإقناعية التي يتوخاه المتكلم .فالمقومات البدائية للمتكلم هي:

1. سلامة الجهاز الصوتي النطقي .
2. السلامة من الأمراض اللغوية النطقية
3. .إتقان قواعد اللغة

ويذكر الجاحظ في هذا الصدد قصة واصل بن عطاء و تغلبه على لثغته بالمجاهدة والترويض و الدربة [432]، و يوضح أن الخطاب البلاغي البياني في بعده الإقناعي الحجاجي، يحتاج إلى "ترتيب و رياضة، و إلى تمام الآلة و إحكام الصنعة، و إلى سهولة المخرج و

(429) الجاحظ، البيان، ج1/ص08.

(430)الجاحظ، البيان، ج1/ص12.

(431)الجاحظ، البيان، ج1/ص12.

(432) الجاحظ، البيان، ج1/ص14.

جهارة المنطق، كحاجته إلى الجزالة و الفخامة، و أن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق"[433] فالجاحظ يضيف مقومات أخرى يجب أن تتوفر في المرسل (المتكلم) وهي :

4. الترتيب و الرياضة : فالمتكلم يجب أن يتدرب على تقديم رسالته ليصل بها إلى الطريقة الأمثل .
5. الفخامة و الجزالة: وهذا يرجع إلى مدى غنى المتكلم بالثروة اللغوية، فكلما كانت ثروته اللغوية أكبر كانت قدرته على التبليغ و الإقناع أكبر .وفي موضع آخر يورد الجاحظ نصا تلخص الكثير من هذه المقومات. فيقول "رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، و جناحاها رواية الكلام، وخليتها الإعراب، و بهاؤها تخير الألفاظ، والمحبة المقرونة بقلة الاستكراه"[434] فيمكن أن نستخرج من هذا النص المعادلات التالية:

عمودها الدربة = التدرب و الرياضة اللغوية

جناحاها رواية الكلام = غزارة الثروة اللغوية و المعرفية

حليها الإعراب = التمكن من قواعد اللغة

فالجاحظ في هذه المقومات السابقة الذكر يتكلم عن صفات نطقية و صفات ذهنية يجب أن يتميز بها المتكلم، فهي صفات داخلة في ذات المتكلم . بعد هذا ينتقل للكلام عن صفات خارجية يجب أن تتوفر في المتكلم، رغم أنه يشير إلى المقومات المتعلقة بالنطق و البيان أهم من المقومات الخارجية في كثير من الأحيان وذلك من خلال ذكره لنص يتكلم فيه عن الأحنف بن قيس حين يقول فيه عبد الملك بن عمير :" قدم علينا (الأحنف) ...فما رأيت خصلة تذم في رجل إلا و قد رأيتها فيه كان صعل الرأس ، أحجن الأنف ، أعضف الأذن ... لكن كان إذا

(433)الجاحظ، البيان، ج1/ص14.

(434)الجاحظ، البيان، ج1/ص44.

تكلم جلى على نفسه"[435].فرغم أن صفات المظهر الخارجي توحي بانطباع سلبي عن الأحنف ، لكنه عندما يتكلم تظهر شخصيته المتميزة من خلال كلامه ، فسلامة الأحنف من ناحية المقومات النطقية و الذهنية كانت أكثر تأثيرا و إقناعا من مقوماته المتعلقة بالمظهر الخارجي .

- **اقتناع المرسل برسالته:**

إضافة إلى المقومات المتعلقة بالنطق و الذهن من سلامة الجهاز الصوتي ، والسلامة من الأمراض اللغوية ، وغنى الذهن بالثروة اللغوية ، وبقواعد اللغة ، يضيف الجاحظ شرطا آخر يتعلق بمنتج الرسالة (المصدر ، المرسل) ، وهو ضرورة. اقتناع المرسل برسالته التي يريد أن يقنع بها المتلقي فيقول :" الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، و إذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان و قال الحسن رحمه الله ،وسمع رجلا يعظ فلم تقع موعظته بموضع من قلبه ، و لم يرق عندها، فقال له : يا هذا إن بقلبك لشرا أو بقلبي"[436] يقصد بخروج الكلمة من القلب أن يكون المتكلم مقتنع بمحتوى رسالته ، فكلما كانت قناعته أكبر ازداد إصراره على نقل هذه القناعة إلى المتلقي.

كما أن اقتناع المتكلم برسالته و تبنيه لمضمونها يجعل دلالته عليها بالألفاظ أسهل و أيسر و بهذا تصل إلى قلب المتلقي .فالإقناع عند الجاحظ هو الوصول إلى قلب المتلقي .وعدم الإقناع هو الوصول إلى أذنه فقط. ومن هنا فعدم إقناع المتكلم بمضمون رسالته يؤدي بالضرورة إلى فشل عملية التبليغ الإقناعي ، الناتج عن عدم القدرة على الإفهام و بالتالي سوء الفهم ، ومنها ينتفي الإقناع وقد كان " يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤدى .. الناطق من سوء فهم السامع "[437].

- **الصفات الشكلية للمرسل (المصدر):**

---

(435)الجاحظ، البيان، ج1/ص56.

(436)م، ن، ص82-84.

(437) م، ن، ص89.

يضيف الجاحظ إلى المقومات السابقة المتعلقة بالمصدر (المرسل – المتكلم) ، مقومات أخرى تتعلق بالمظهر و الشكل الخارجي له فيقول : " فإن جامع ذلك السن و السمت و طول الصمت فقد تم كل التمام "[438].

فالمظهر الخارجي له مكانته في تحقيق البلاغة الإقناعية ، فمن تمام " آلة القصص أن يكون القاص أعمى و يكون شيخا بعيد مدى الصوت .... ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا ، و يكون الداعي إلى الله صوفيا "[439] ويحكي عن أحد البلغاء الحكماء فيقول " و أتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق ، فاستولى على المجلس ، و رأوه أحمر ذميما باذ الهيئة ، قشفا، فاستهانوا به فلما عرفوه اعتذروا إليه و قالوا له : الذنب مقسوم بيننا و بينك أتيتنا في زي مسكين تكلمنا بكلام الملوك "[440].

فالجاحظ يجعل للمظهر الخارجي دورا فعالا في ممارسته العملية التواصلية بمختلف وسائلها، فالهيئة الخارجية للمصدر تجعل رسالته أكثر إقناعا كلما كان قريبا من الصورة النمطية المرسومة في ذهن المتلقي لهذه الهيئة حسب نوع العملية التواصلية . فالقاص صورته النمطية أن يكون أعمى بعيد مدى الصوت، والشاعر صورته النمطية أن يكون من الأعراب، أو أن يتقمص شخصية الأعرابي ليكون أكثر إقناعا و تأثيرا في المتلقي، ويذكر الجاحظ مثالا عن ذلك بقصة العماني الراجز عندما دخل على الرشيد لينشده شعرا، وكان العماني يرتدي " قلنسوة طويلة و خف ساذج، فقال له الرشيد: إياك أن تنشد في إلا و عليك عمامة عظيمة الكور، وخفان دمالقان ... فبكر عليه من الغد و قد تزيا بزي الأعراب، فأنشده ثم دنا فقبل

(438) م، ن، ص89

(439) م، ن، ص93–94.

(440) م، ن، ص98.

يده... فأعظم له الجائزة "[441].و الخطيب البليغ الحكيم لا بد أن يكون مظهره يدل على ذلك حتى يعرف المتلقي مقامه ولا يحسبه مسكين .

ويمكن أن نلخص مقومات المصدر عند الجاحظ في الجدول التالي:

مقومات المصدر(المرسل ، المتكلم)		
مقومات ذاتية	مقومات أدائية	مقومات خارجية
- سلامة الجهاز الصوتي النطقي. - السلامة من الأمراض اللغوية.	- الاقتناع بالمحتوى البلاغي. - التدرب و الرياضة من أجل اخراج الخطاب في أمثل صوره. - امتلاك الثروة اللغوية. - التحكم في قواعد اللغة.	- ملاءمة المظهر الخارجي لنمطية المقام و الوسيلة التواصلية.

ثانيا:مقومات الرسالة :

نجد في كتابات الجاحظ نصوصا متناثرة يوضح فيها مقومات الرسالة الناجحة لتحقيق الصورة الأفضل للعملية الإبلاغية الإقناعية، فكلام الجاحظ عن قضية اللفظ و المعنى يصب في مجمله في مقومات الرسالة، و قد أشرنا في الصفحات السابقة إلى رأي الجاحظ في هذه القضية، لكن لا بد هنا أن نضيف بعض المقومات التي اشترطها في الرسالة الناجحة لكي تحقق هدفها الإقناعي.

(441) م. نفسه، ص95-96.

فمن مقومات الرسالة عند الجاحظ، أن تخلو من التكلف، فمدار اللائمة و مستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها تكلف، و بيانا يمازجه التزيد"[442] ؛فالرسالة البلاغية يجب أن تكون ملتزمة بمبدأ الكم التداولي فتكون الألفاظ مساوية للمعاني المقصودة.

كما أن توظيف العاطفة للوصول إلى المتلقي و إقناعه، شرط لا بد من مراعاته و السعي لتحقيقه بمختلف الوسائل، فيجب استعمال كل طريق يمكن من خلال أن "تستمال القلوب وتثنى الأعناق،وتزين به المعاني"[443] فالتأثير على عاطفة المتلقي و استمالة قلبه يدفعه إلى تبني ما تريده منه.

يلخص الجاحظ بعض مواصفات الرسالة الناجحة فيقول: "تلخيص المعاني رفق، و الاستعانة بالغريب عجز، و التشادق من غير أهل البادية بغض، والنظر في عيون الناس عي، و مس اللحية هلك، والخروج مما بني عليه أول الكلام إسهاب"[444]؛ فصفات الرسالة البلاغية المقنعة إذن هي:

- الالتزام بموضوع محدد وعدم الخروج إلى ما سواه
- تلخيص المعاني و إيصالها بأسهل طريقة
- اجتناب الغريب و التكلف
- اجتناب كل ما يوحي بحالة قلق عند المتكلم مثل النظر في العيون ، ومس اللحية.

فكل هذه المقومات إذا توفرت كانت الرسالة تسير في توجه صحيح و سليم نحو تحقيق الهدف الإقناعي.

وينوه الجاحظ بضرورة توفر مبدأ الصدف في الرسالة ، ويذكر لذلك قصة الزبرقان وعمرو بن الأهثم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل

---

(442) م. نفسه، ص13.

(443) م. نفسه، ص14.

(444) م. نفسه، ص44.

عمرو عن الزبرقان فقال:"مانع لحوزته مطاع في أدنيه" فقال الزبرقان:" أما انه قد علم أكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي "،فقال عمرو: " أما لئن قال ما قال فو الله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمير المروءة لئيم الخال، حديث الغنى"؛ فلما رأى أنه خالف قوله الأول و رأى الإنكار في عيني رسول الله قال :"رضيت فقلت أحسن ما علمت و غضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى وقد صدقت في الآخرة " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: " إن من البيان لسحرا"[445]. فصدق الرسالة التي تكلم بها عمرو هو ما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يقتنع و ينتقل من حالة الإنكار إلى حالة الرضى، بل و يثني على صدق هذه الرسالة .

ومن مقومات الرسالة أن تكون سهلة واضحة، و أجزاؤها متلاحمة و منظمة، فأفضل الشعر و أجوده "ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفزع إفزاعا واحدا و سبك سبكا واحدا، فهو يجرى على اللسان كما يجري الدهان"[446] فصفات السهولة و التلاحم إذا تحققت تؤدي إلى الفهم الصحيح للرسالة و تساعد على حفظها في ذاكرة، ومعلوم أن الحفظ من أهم العوامل المساعدة على الإقناع.

يركز الجاحظ أيضا على دقة الرسالة، فلا بد من تطابق الألفاظ [447] مع المعاني المراد تبليغها، ويشير إلى هذا المعنى في عدة مواضع من كتاباته.

كما أن شرط سلامة الرسالة من الخطأ، مقدم عند الجاحظ عن الجودة و النواحي الجمالية للرسالة، فالهدف من الرسالة نفعي إقناعي قبل أن يكون جمالي تذوقي، فإذا كان الكلام يتطلب الإطالة و تفصيل الرسالة فيجب عليه أن يقدم "إحكام البلوغ في طلب السلامة من الخطل، قبل التقدم في إحكام البلوغ في شرف التجويد، و إياك أن تعدل بالسلامة شيئا قليلا كافيا خير من كثير غير شاف"[448].

---

(445)م. نفسه، ص53.

(446) م. نفسه، ص67.

(447) م. نفسه، ص93.

و إجمالا يمكن أن نلخص مقومات الرسالة الإقناعية الناجحة من وجهة نظر الجاحظ في المخطط التالي :

مخطط الرسالة الإقناعية الناجحة

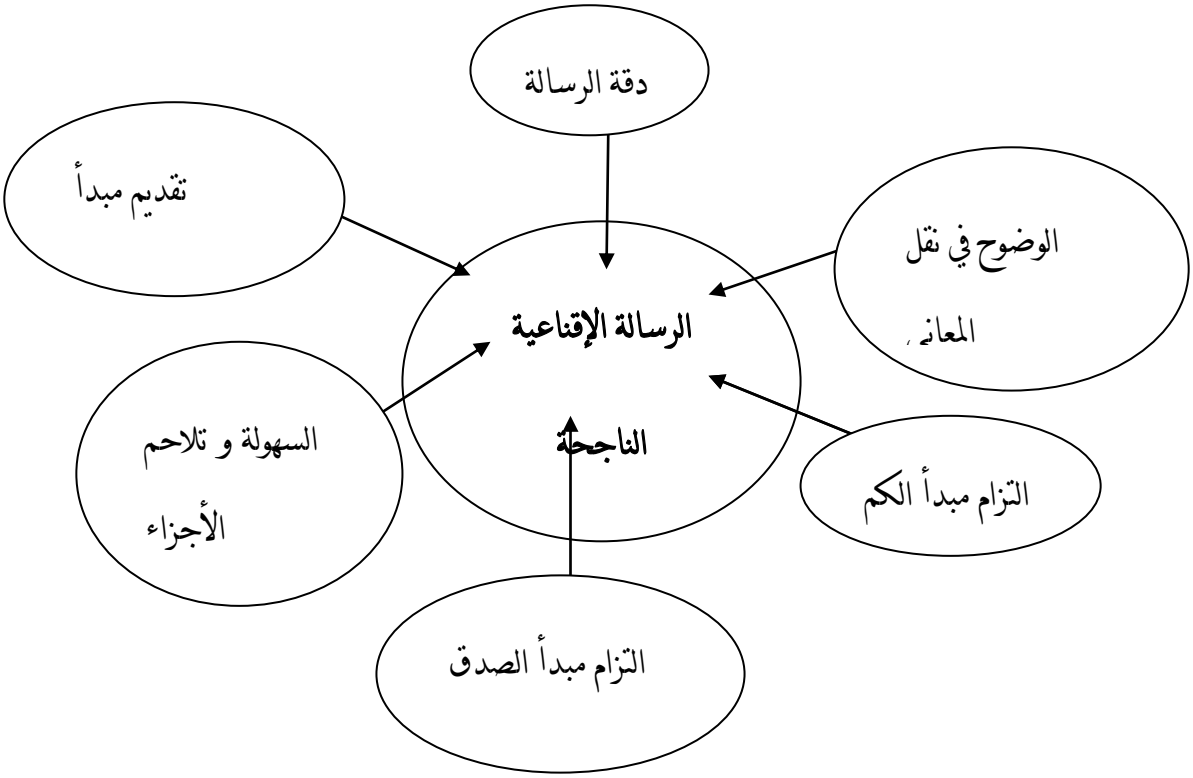

ثالثا: مقومات المتلقي

يورد الجاحظ بعض النصوص التي تبين دور المتلقي في نجاح العملية التواصلية منها:((قال سهلُ بن هارون: لو أنَّ رجلَينِ خطبَا أو تحدّثا، أو احتجَّا أو وصَفَا وكان أحدُهما جميلاً جليلاً بهيّاً، ولَبَّاساً نبيلاً، وذا حَسَبٍ شريفاً، وكان الآخَر قليلاً قميئاً، وباذَّ الهيئة دَميماً، وخامِلَ الذِّكر مجهولاً، ثم كان كلامُهما في مقدارٍ واحدٍ من البلاغة، وفي وزنٍ واحدٍ من الصواب، لَتصدَّع عنها الجَمْع وعامّتهم تَقِضي للقليل الدَّميم على النَّبيل الجسيم، وللباذّ الهيئة على ذي الهيئة، ولشَغَلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به، ولصار التعجُّب منه سبباً للعَجَب به، ولصار الإكثارُ في شأنِه عِلّةً للإكثار في مدحه، لأنّ النفوسَ كانت له أحقَر، ومِن بيانِه أيأس، ومن حَسَدِه أبعَد، فإذا هَجَمُوا منه على ما لم يكونُوا يَحتَسِبُونه، وظَهَرَ منه خلافُ ما

(448) م. نفسه، ص112.

قدَّرُوه، تضاعَفَ حُسْنُ كلامه في صدورهم، وكبُر في عيونهم؛ لأنَّ الشّيءَ من غير معدنه أغرب، وكلّما كان أغرَبَ كان أبْعدَ في الوهْم، وكلّما كان أبعَدَ في الوهم كان أطْرَف، وكلّما كان أطْرفَ كان أعجب، وكلما كان أعجبَ كان أبدع، وإنَّما ذلك كنوادِرِ كلام الصِّبيان ومُلَح المجانين؛ فإنّ ضحِك السامعين من ذلك أشدُّ، وتعجُّبَهم به أكثر، والنّاسُ مُوَكّلُون بتعظيم الغريب، واستِطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الرَّاهن، وفيما تحتَ قُدرتهم من الرّأْي والهوى، مِثْلُ الذي لهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذّ))[449].

يلاحظ من هذا النص أن المتلقين قد اقتنعوا بكلام أحد المتكلمين لأسباب ترجع إلى حالاتهم النفسية و مشاعرهم وليس إلى قوة حجته و بلاغته.ويمكن أن نستنتج بعض المعايير التي إذا تحققت في المتلقي يكون أكثر تفاعلا مع أطراف العملية التواصلية و يؤدي ذلك إلى اقتناعه بمضمون الرسالة.

- كلما كان المتكلم غريبا عن المتلقي كانت رسالته أكثر تأثيرا و إقناعا.((**وعلى ذلك زَهِدَ الجِيرانُ في عالمِهِم، والأصحابُ في الفائدة من صاحبِهم، وعلى هذا السّبيلِ يستَطْرفون القادمَ عليهم، ويرحَلُون إلى النَّازح عنهم، ويتركون مَن هو أعمُّ نفعاً وأكثرُ في وجوه العِلم تصرُّفاً**))[450].
- كلما كان المتلقي معجبا بالمتكلم متعجبا منه كانت رسالته أكثر تأثيرا.((**ولشَغَلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به، ولصار التعجُّب منه سبباً للعَجَب به**)).
- كلما كانت مشاعر المتلقي ايجابية اتجاه المتكلم كان أكثر اقتناعا بما يقول، ((**ولصار الإكثارُ في شأنِه عِلّةً للإكثار في مدحه، لأنّ النفوسَ كانت له أحقَر، ومِن بيانِه أيأس، ومن حَسَدِه أبعد**)).

(449) الجاحظ، البيان، ص89.

(450) الجاحظ، البيان، ص89.

- كلما ازدادت المفاجأة و كسر أفق انتظار المتلقي من طرف المتكلم و كلما جاء بما لا يتوقع منه؛ ازداد تأثر المتلقي بمحتوى الرسالة،((**فإذا هَجَمُوا منه على ما لم يكونُوا يَحتَسِبُونه، وظَهَرَ منه خلافُ ما قدَّرُوه، تضاعَفَ حُسْنُ كلامه في صدورهم، وكبُر في عيونهم؛ لأنَّ الشّيءَ من غير معدنه أغرب، وكلّما كان أغرَبَ كان أبْعدَ في الوهْم**)).

إذن فالحالة النفسية والعاطفية للمتلقي تلعب دورا واضحا في اقتناعه، ذلك"إن الاقتناع يمكن أن يتم بواسطة السامعين إذا كانت الخطبة مثير لمشاعرهم. فأحكامنا حين نكون مسرورين و دودين ليست هي أحكامنا حين نكون مغمومين و معادين. و نعتقد أن معظم الذين يصنفون في الخطابة اليوم يريغون الى توجيه كل جهودهم نحو إحداث هذه الآثار"[451].

و يواصل الجاحظ فيقول: ((وكان يقول: إذا كان الخليفةُ بليغاً والسيِّد خطيباً، فإنَّك تجِدُ جمهورَ الناس وأكثَر الخاصَّة فيهما على أمْرين: إمّا رجلاً يُعطي كلامَهما من التعظيم والتّفضيل، والإكبار والتبجيل، على قدر حالِهما في نفسه، ومَوقِعهما من قلبه؛ وإما رجُلاً تعرِضُ له التُّهمة لنفسه فيهما، والخوفُ من أن يكون تعظيمُه لهما يُوهمه من صَوابِ قولهما، وبلاغة كلامهما، ما ليس عندهما، حتَّى يُفرط في الإشفاق، ويُسْرِف في التُّهمة، فالأوّلُ يزيد في حقِّه للذي له في نفسه، والآخر ينقُصه من حقّه لتُهمتِه لنفسه، ولإشفاقه من أن يكون مخدوعاً في أمره، فإذا كان الحُبُّ يُعمِي عن المساوئ فالبُغْض أيضاً يُعمِي عن المحاسن))[452].فالقاعدة هنا هي:

- الحُبُّ يُعمِي عن المساوئ: ومن الحب مشاعر **التعظيم والتّفضيل، والإكبار والتبجيل**.فإذا كان المتلقي محبا للمتكلم اعتقد أن كل ما يقوله صواب و مقنع. و لا ينتبه إلى موضع الخطأ فيه.

(451) عبد الله صولة، في نظريات الحجاج، ص72.

(452)الجاحظ، البيان، ص90.

- البُغْض أيضاً يُعمِي عن المحاسن: ومن البغض مشاعر **الخوفُ، يُفرط في الإشفاق، ويُسْرِف في التُّهمة.** فالمشاعر السلبية من المتلقي اتجاه المتكلم تجعله يعتقد أن كل كلامه خطأ و غير مقنع. و لا ينتبه الى موضع الصواب و الصحة فيه.

يقول الجاحظ في سياق حديثه عن ضرورة أن يراعي المتكلم الحالة النفسية للمتلقي و مدى اهتمامه بالخطاب الذي يلقيه عليه: ((قال: وحدَّثني مهديُّ بن ميمون، قال: حدثّنا غَيلان بن جرير، قال: كان مطرِّف ابن عبد اللَّه يقول: لا تُطعِم طعامَك مَن لا يشتهيه، يقول: لا تُقبِلْ بحديثك على مَن لا يقبلُ عليه بوجهه، وقال عبدُ اللّه بنُ مسعود: حَدِّث النّاسَ ما حَدَجُوك بأبصارهم، وأذِنُوا لك بأسماعِهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترةً فأمْسِك))[453].

فالمبدأ أن المتكلم يجب أن يراعي حالة المتلقي؛ فإذا كان المتلقي مهتما برسالة و خطاب المتكلم فهذه هي الحالة الملائمة لحدوث العملية التواصلية، و يمكن للمتكلم أن يستدل على هذا الاهتمام من خلال علامات منها: استماع المتلقي له، متابعته ببصره و تفاعله معه و يقبل عليه بوجهه. مما سبق نلاحظ أن الجاحظ يولي اهتماما بالغا لدور المتلقي في إتمام العملية التخاطبية و نجاحها.

(453)الجاحظ، البيان، ص103.

المبحث الثالث

البنية الحجاجية في الخطاب البلاغي الجاحظي

البنية الحجاجية في الخطاب البلاغي الجاحظي:

لقد عاش الجاحظ في زمن صاخب بالجدل والمساجلات والنظر و المقابسات، حيث ولدت الجماعات والمدارس والاتجاهات الفكرية المتباينة التي كانت تتصارع في ما بينها على تداول الأفكار التي من شأنها حسم القضايا المرتبطة بالخلافة، والسلطة، والنص القرآني، والمعارف الوافدة .ليس هذا فحسب بل إنّ نشأة الجاحظ المبكّرة في مدينة البصرة[454] صقلت منهجه الذي اعتمد على الأدوات المنطقية، والآليات البرهانية، والحجج العقلية، وهذا الأمرالذي يظهر جليا في خطابه ومدونته الموسوعية الزاخرة بالأفكار الجدلية، والآراء الاستدلالية، واللغة البيانية حيث اقتحم موضوعات مختلفة.

لقد كانت مدينة البصرة على عهد الجاحظ؛ ملتقى للمعرفة الوافدة والثقافة العقلية حيث شاعت الترجمات الأدبية الفارسية المتمثّلة في القصص، والحكم، والآداب السلطانية، والفلسفات الزردشتية، والمزدكية والمانوية .وانتشرت المعارف العقلية اليونانية كالفلسفة، والمنطق علاوة على العلوم، والآداب، والفنون .إضافة إلى الثقافة الهندية المتمثلة في المقالات الإشراقية، والطقوس، والشعائر، والتقاليد الثقافية، والقصص العجائبية.[455]

هذا التمازج بين معارف الحضارات المختلفة خلق "حراكًا ثقافيا خصبا تمخض عنه تزويد الثقافة العربية بقوى وميكانيزمات معرفية جديدة مكّنها من إنجاز المثاقفة الحضارية الحية"[456].لقد شكلت هذه المنظومة الثقافية المعقدة حاضنة معرفية خصبة لأفكار الجاحظ الذي كان عليه أنْ يشتبك معها، وأنْ يجيب عن الأسئلة التي تتمخض عن مكوناتها السياسية، والمذهبية،

---

(454)هيثم سرحان، الحجاج السَّردي عند الجاحظ بحثٌ في المرجعيات والنصّيّات و الآليات، جامعة فيلادلفيا، الاردن، على شبكة الانترنت.ص01و 02.

و ينظر أيضا: شارل بيلاّ، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ط1، ترجمة :إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، 1985، ص34.

(455) حسن السندوبي، أدب الجاحظ، ط1 ، المطبعة الرحمانية، القاهرة، 1931 ،ص39.و ينظر أيضا: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، دار المعارف،مصر، ط12، 1973، ص588 و ما بعدها

(456) هيثم سرحان، الحجاج السَّردي عند الجاحظ، ص03.

والفكرية، والأدبية. وقد كان المعتزلة – باعتبارهم حماة الدين – و منهم الجاحظ؛ كانوا ملزمين بإتقان الحجاج و آلياته و استراتيجياته لكي يتمكنوا من الدفاع عن الملة و الرد على النحل المختلفة بالحجة الدامغة و الدليل القاطع أثناء المناظرات التي شاعت في ذلك الوقت، من هنا وجد الجاحظ نفسه ملزما على تعلم الحجاج .

فأصول الحجاج، في خطاب الجاحظ،تعود إلى علم الكلام القائم على البرهنة العقلية على المسائل المتعلقة بالإلهيات والعقائد حيث يتوجب على المتكلِّم أنْ يؤسس مواقفه الكلامية على براهين نظرية داعمة ومؤيدة .لقد أفاد الجاحظ من تمكّنه في مبحث علم الكلام في حقل الأدب و غيره من معارفه ؛وقد أُتيح له "أنْ يْلقن مبادئ الحجاج والمناظرة من شيخه أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظّام (ت231ه) الذي أذكى في نفس تلميذه نوازع التطلع والتمحيص والنظر والنقد والاستدلال والاستنباط ... أما أسلوب الجاحظ في عرض القضايا ومناقشة أبعادها ودلالاتها ومعارضتها بغيرها فقد استمده من شيخه أبي معن ثُمامة بن أشرس النميري (ت213ه)الذي كان معروفًا بقدرته الفائقة على التأثير في النفوس علاوة على الجدال والمناظرة ومجالسة الخلفاء ومنادمتهم ومحاورة جلسائهم"[457].

و قد برزت هذه النزعة الحجاجية عند الجاحظ في كتاباته كما عبَّر هو عن ذلك في كتاب (الحيوان) حين قال:"وإنما اعتمدنا في هذه الكتب على الإخبار عما في أجناس الحيوان من الحججِ المتظاهرة، وعلى الأدّلة المترادفة، وعلى التنبيه على ما جلّلها الله تعالى من البرهانات التي لا تعرف حقائقُها إلا بالفكرة، وغشاها من العلامات التي لا تنال منافعها إلا بالعبرة، وكيف فرق فيها من الحكم العجيبة، و الأَحسَاسِ الدقيقة، والصنعة اللطيفة، وما ألهمها من المعرفة وحشاها من الجبن والجرأة، وبصرها بما يقيتها ويعيشها، وأشعرها من الفطنة لما يحاول منها عدوها، ليكون ذلك سببا للحذر"[458]. و في الصفحات التالية من هذا البحث سنحاول أن نلقي بعض الضوء على على بعض تجليات الحجاج في الخطاب الجاحظي البلاغي والنقدي.

---

(457) م. نفسه، ص05.

(458) الجاحظ، الحيوان، ، تحقيق :عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ج7، ص09.

أولا: تعريف الحجاج

1.لغة:

قال ابن منظور: "حاججه حجاجا و محاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليتها... وحاجه محاجة وحجاجا نازعته الحجة... والحجة الدليل والبرهان "[459].

و قال ابن الفارس : "و ممكن أن تكون الحجة مشتقة من هذا لأنها تقصد أو بها يقصد الحق المطلوب"[460]

فابن منظور يجعل الحجاج مرادفا للجدل بقوله:" هو رجل محجاج أي جدل"[461]

2.اصطلاحا:

مفهوم الحجاج يختلف و يتنوع و يصعب حصره و الإحاطة به فهو يتميز بكثرة الحقول المعرفية التي تتناوله" إذ نجده متواترا في الأدبيات الفلسفية المنطقية و البلاغة التقليدية والدراسات القانونية و المقاربة اللسانية و الخطابية المعاصرة"[462].و هو بحث من أجل ترجيح خيار من بين قائمة و ممكنة؛ بهدف دفع فاعلين معيّنين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائما، فهو كما يبدو يقوم في مفهومه على صناعة الجدل و الخطابة[463]

ويرى أرسطو ضرورة الفصل بين الحجاج الجدلي والحجاج الخطبي، فالحجاج الأول تبكيتي، والحجاج الثاني إقناعي[464].فالحجاج التبكيتي هو القائم على تعنيف الخصم، وعدم

---

(459) ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص229، 230.

(460)أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء :مقاييس اللغة، تح :محمد هارون عبد السلام دار الفكر، بيروت، د.ط، 1979 م، ج2، ص30.

(461)ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص229، 230.

(462)محمد طروس :النظرية الحجاجية من جلال الدراسات البلاغية و المنطقية و اللسانية دار النشر للثقافة،الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص06

(463). خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية محاولة تاصيلية، ص85

(464)فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود،أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم: منشورات كلية الآداب ــ منوبة، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، (د.ت)، ص236.

إقناعه؛ لأنه غير قائم على حجج مقنعة، أما الحجاج الخطبي فهو الحجاج القائم على الحجج المقنعة للتأثير في الجمهور وإقناعه بقضية ما مستغلاً عواطفهم[465]. ويمكن إجمال خصائص الخطاب في التقليد الأرسطي في الآتي[466]:

1- أنه الخطاب الذي لا يمكن أن يوجد خارج مقام التلفظ، حيث يولي الباث من يتوجه إليه بالكلام، مكانة ذات أهمية، فأن نتكلّم أو نكتب هو أن نحاور.

2- أنه الخطاب الذي يرمي إلى التّأثير في العقول، فهي فعالية لفظية بأتم معنى الكلمة.

3- أنه فعالية تستند إلى العقل، فاللّوغوس يعني العقل والكلام في الآن نفسه.

4- أنه خطاب منجزٌ يتوسّل بتقنيات واستراتيجيات، لكي يدرك حاصل غاياته نعني تحقيق الاقتناع، فأن نتكلم هو أن نستثير مكنونات الألفاظ الثّاوية داخل النظام اللغوي المهيأ سلفاً والموجّه مبتدأ.

الحجاج عند بيرلمان وتيتيكاه:

يعرف بيرلمان (الحجاج) أنه: "جملة التقنيات الخطابية التي تمكن مستعمليها من تقوية الاعتقاد أو ترسيخه في العقول من خلال أطروحات مقدمة وأقوال معروضة"[467].فالحجاج عنده قائم على درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم[468].

و يضع بيرلمان مجموعة من الشروط للحجاج، وهي مجملة في النقاط الآتية[469]:

---

(465)المصدر نفسه: ص 132.

(466)حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته: عالم الكتب الحديث، إربد ــ الأردن، ط1،1431هـ، 2010م.ج1/ص925.

(467)حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته: ج1/ص925.

(468)صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص: دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط1، 2004م.ص92.

(469)حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته: ج1/ص926.

1- أن يحصل ضرب من التفاعل والالتقاء المعرفي/الثقافي بين المحاج والمحجوج، وهو ما ينتج عنه إيلاء أهمية معتبرة إلى الظروف النفسية والاجتماعية التي دونها يصبح الحجاج خالياً من الموضوع والأثر على السواء.

2- الحجاج ليس استدلالاً تعليليًا يدور في حقل البرهان المنطقي المحض وخارج كل اندراج للذات، بل يقتضي أمرًا آخر معاكسًا لذلك تمامًا وهو وجود العلاقة التخاطبية بين الباث والمتقبل.

و تتلخص نتائج نظرية بيرلمان عن الحجاج، في مايأتي[470]:

1- إن أهم ما قدمه هو محاولة تخليصهم للحجاج من دائرة الخطابة والجدل.

2- تخليص الحجاج من بوتقة المنطق والأبنية الاستدلالية المجردة، مقرباه من مجالات استخدام اللغة مثل العلوم الإنسانية والفلسفة والقانون، ومن ثم فتح مجالات للحجاج وتخليصه من النظرة الضيقة التي جعلته أداة تقنية صرفة.

3- عدَّ الحجاج حوارًا غير مرتبط بالجدل كما عند أرسطو، فهو حوار بين الخطيب وجمهوره، ولا يمكن أن نعدّهُ مغالطة أو تلاعباً بالمشاعر والعقول.

4- الحجاج نظرية تدرس التقنيات الخطابية بوصفها وظيفة حجاجية.

5- العملية الحجاجية عملية تنطلق من أطروحة وتتجه إلى الإقناع.

الحجاج عند ديكرو وانسكومبر:

يعرف الحجاج عند (ديكرو وانسكومبر)، أنه: "إنجاز لعملين هما عمل التصريح بالحجَّة من ناحية، وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى، سواء كانت النتيجة مصرَّحاً بها أو ضمنية"[471]. "ديكرو" يعتبر أن "كل قول يحتوي على فعل إقناعي، فأن تتكلم يعني أنك تحاجّ (كل قول =

(470)محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة ــ الدار البيضاء، ط1، 1426هـــ ــ 2005م، ص 55-56.

(471)عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: دار الفارابي ــ بيروت، كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبــة، ودار المعرفة للنشر ــ تونس، ط2،2007م.ص33.

حجاج)، ولا وجود لكلام دون شحنة حجاجية، فالحجاج عنده هو علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاججة"[472]. و يتميز مفهوم "ديكرو" للحجاج بمايأتي[473]:

1- الوظيفة الأساس للغة هي الحجاج.

2- المكون الحجاجي في المعنى أساسي، والمكون الإخباري ثانوي.

3- عدم الفصل بين المقاصد والتداوليات والدعوة إلى فرضية (التداوليات المدمجة).

والتداولية المدمجة: "نظرية دلالية تدمج في الشفرة اللغوية (اللسان بالمعنى السوسيري) مظاهر عملية القول"[474]. وتتلخص أهم مبادئ التداوليات المدمجة، في الآتي[475]:

1-استقلال المقول عن المحتوى الخبري، ومن ثم عدم الحكم عليه بالصدق أو الكذب؛ لأنه لا تنطبق عليه شروط الصدق، ومنه أصبح الحكم عليه يستند إلى القوة والضعف التي تحكم علاقة الحجج بعضها ببعض.

2- سيندمج التداول في الوصف المقاصدي، ويشتغل مباشرة على البنية التركيبية فيسمى "بالتداوليات المدمجة"، والوصف الدلالي آلة لها الكفاءة نفسها التي للذوات المتكلمة، تربط المعنى بالقول، وتصور لنا الحدث اللساني بعدّهُ امتداداً للذاتية.

وأشار (ديكرو) إلى وجود فعلين ضمن تصنيف أفعال الكلام هما: فعل الحجاج، وفعل الاقتضاء[476].و يذكر "إنَّ القيمة الحجاجية لقول ما، ليست هي حصيلة المعلومات التي يقدمها

---

(472)أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج: ط1، دار الأحمدية للطباعة، الدار البيضاء ــ المغرب، 1426هـ ــ 2006م.ص14، 16.

(473)سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد ــ الأردن، ط2،1432هـ ــ 2001م.ص55-56.

(474)جاك موشلر-آن ريبول، القاموس الموسوعي التداولية، ترجمة: مجموعة من الأساتذة الباحثين بإشراف عزالدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، المركز الوطني للترجمة-دار سينا، تونس، ط2، 2011م.ص83.

(475)محمد طروس، النظرية الحجاجية:ص 106-107.

(476) حمّو النَّقاري، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المملكة المغربية، ط1،1427هـ ــ 2006م.ص 56.

فحسب، بل إنَّ الجملة بإمكانها أن تشتمل على مورفيمات، وتعابير أو صيغ، والتي بالإضافة إلى محتواها الإخباري، فهي تصلح لإعطاء توجيه حجاجي للقول، وتوجيه المخاطَب في هذا الاتجاه أو ذاك"[477].

الحجاج عند مايير:

يعرف مايير (Mayer) الحجاج، بقوله: "هو دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيه[478]. فالحجاج عنده قائم على الصريح والضمني، ومن هنا جاءت تسمية نظريته بـــ(المساءلة الحجاجية)، فالحجة عنده هي عبارة عن جواب أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنتجه المخاطَب ضمنياً من ذلك الجواب، أو يمكن القول إن الحجة هي عبارة عن جواب لسؤال ضمني يستخرج من الجواب نفسه[479].وفي ذلك يقول: "بما أنَّ
الوحدة الأساسية للغة هي الزوج سؤال/جواب فإنَّ استعمال اللغة يُحددَ دائما تبعا له"[480].

قوانين الحجاج في الخطاب البلاغي عند الجاحظ:

في هذا البحث سنلقي نظرة على مستويات الحجاج في الخطاب البلاغي عند الجاحظ خاصة في كتابه البيان و التبيين؛ الذي يؤسس فيه لشروط إنتاج الخطاب، فكيف وظف الجاحظ نمط الحجاج في إثبات مقارباته حول هذه الشروط.و سنحاول تجلية بعض القوانين الحجاجية في هذا الخطاب.

أولا: قانون الأنفع:

هذا المصطلح وضعه ديكرو في حديثه عن قانون النفع أو الجدوى؛ بتطبيقه نفهم ما يقال لنا و نحسب دلالة هذا الذي يقال لنا في ضوء المقام أو الوضعية منطلقين من دلالته في مستوى المكون اللساني، فقانون النافع يترجمه متأول الملفوظ إلى سؤال من قبيل: لماذا قال المتكلم ما

---

(477)حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته:ج1/ص 438.

(478)عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية:ص 37.

(479) م.نفسه:ص 38.

(480)حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته: ج5/ص32.

قال؟. و يستعين في تحصيل الجواب عن ذلك بالمقام أو الوضعية. وهو قانون تخضع له عملية تأويل الخطاب بصفة عامة.[481]

و تبرز بعض ملامح هذا القانون في المستوى الحواري للخطاب الحجاجي، و الذي ينبني على توفر أربعة أطوار هي: العرض و الاعتراض و السؤال والحجج، و لا يشترط توفر كل هذه الأطوار في نص من النصوص حتى يعتبر نصا حجاجيا؛ بل يكفي أن يحتوي عل طورين ليكتسب صفة الحجاجية.وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال مناقشة بعض النصوص البلاغية للجاحظ.

يقول الجاحظ:"قال عبد الحكيم بن روح الغفاري، حدثني عمرو الشمري قال: قيل لعمرو بن عبيد: ما البلاغة؟ قال: مابلغ بك الجنة و عدل بك عن النار و ما بصرك مواقع رشدك و عواقب غيّك. قال السائل: ليس هذا أريد. قال: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع، ومن لم يحسن الاستماع لم يحس القول. قال: ليس هذا اريد. قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:"إن معشر الانبياء بِكاء" أي قليلو الكلام، و منه قيل رجل بكيء، و كانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله. قال السائل: ليس هذا أريد. قال: كانوا يخافون من فتنة القول و من سقطات الكلام، ما لا يخافون من فتنة السكوت و سقطات الصمت. قال السائل: ليس هذا أريد. قال عمرو: فكأنك إنما تريد تخير اللفظ في حسن الإفهام، قال: نعم. قال: انك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، و تخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة في الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم و نفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب و السنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، و استوجبت من الله جزيل الثواب"[482]

- فطرفا الحوار في هذا النص هما: سائل لم يفصح الراوي عن هويته، و عمرو بن عبيد أحد مشاهير شيوخ المعتزلة.

---

(481) عبد الله صولة، في نظريات الحجاج، ص78.

(482) الجاحظ، البيان، ج1/ص114.

- والسؤال الحجاجي في هذا النص هو: ما البلاغة؟
- أما العرض فهو: "ما بلغ بك الجنة و عدل بك عن النار و ما بصرك مواقع رشدك و عواقب غيّك."

ليأتي بعده الاعتراض:" ليس هذا أريد" و هو اعتراض يتكرر من قبل السائل كلما رأى أن الإجابة لا تتوافق مع القصد الأصلي لاستفهامه، و أن العرض الذي يقدمه المجيب لا يتطابق مع النظرة الأولية التي يحملها في ذهنه عن مفهوم ما يستفهم؛ فنعرف من هذا أن سؤال السائل لم يصدر عن جهل بما يستفهم عنه وإنما هو سؤال من يريد زيادة علمه و يبحث عن الدقة و التفصيل العرض؛ لهذا كان يعترض مرارا بقوله: " ليس هذا أريد".

كما أن العروض المتتالية بعد العرض الأول التي يقدمها المجيب ثم وصوله إلى ما يريد السائل معرفته؛ تدل أن هذه العروض لم تأتي من سوء فهم للسؤال بسبب الاشتراك اللفظي كما توحي بذلك بداية النص؛ بل إن هذه العروض المتعددة كانت مقصودة من قبل المجيب . و هو يتوخى من خلال هذه القصدية بلوغ هدف معين هو الدعوة إلى التوحيد و التحلي بمجموعة من السمات التي ترجع في مجملها إلى توجه ديني وعظي إرشادي؛ وهو ما يتناسب مع التوجه الفكري للمجيب المعتزلي الذي يستغل الموقف ليوظفه في مصلحة غايته الأسمى وهي الدفاع عن الملة.

فالتدرج في ترتيب الحجج من الأقل إلى الأكثر يعد إستراتيجية ناجعة لتحقيق أمرين في آن واحد، الأول يحقق المجيب قصده بإبلاغ خطابه الوعظي الإرشادي، و الثاني تهيئة السائل لاستقبال المعلومة و فهمها من خلال الزيادة المتدرجة في تشويقه لهذه المعلومة.وبعد التشويق وعندما "لمس إلحاحا من السائل، و شعر أنه يريد أن يذكر صورة الألفاظ وهيئة الكلام؛ استفهم منه"[483] إن كان يريد هذه المعلومة لزيادة التهيئة ثم قدمها له فكانت شافية مفصلة.

(483) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص189.

تفهم هذه الطريقة في النظريات الحجاجية على أنها الحجة الأقوى والأنجع في توجيه الملفوظ نحو ما يلزم عنه و ينتج به[484].من هنا ندرك قصدية العدول بالإجابة عن السؤال بأسلوب مباشر إلى أسلوب انحرافي يهدف إلى الإقناع.

فإذا طبقنا قانون الأنفع على هذا النص نصل إلى وجهتي نظر مختلفتين للأمر الأنفع هما:

1. من وجهة نظر السائل: الأنفع و الأنجع بالنسبة له هو تعريف البلاغة بمعناها المرتبط بالألفاظ و المعاني.

2. من وجهة نظر المجيب: الأنفع أن يوضح البلاغة بمفاهيمها المختلفة ذات الطابع الوعظي الإرشادي.

يقول الجاحظ: و سئل ابن المقفع ما البلاغة؟ فقال: البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، و منها ما يكون في الاحتجاج، و منها ما يكون جوابا، و منها ما يكون ابتداءً، و منها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا و خطبا، ومنها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، و الإشارة إلى المعنى و الإيجاز؛ هو البلاغة."[485]

- طرفا الحوار هما: سائل مجهول، و ابن المقفع أديب وعالم من أصول فارسية، محب للغة القرآن.
- السؤال هو: ما البلاغة؟
- العرض: " البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة"

الاعتراض: يبدو أن الاعتراض هنا إما ظهر من خلال لغة جسد السائل بإشارة جسدية تدل على عدم الفهم أو أن ابن المقفع افترض مسبقا أن المتلقي لن يفهم مراده؛ و بالتالي زاد العروض للتوضيح.

---

(484) عبد الله صولة، في نظريات الحجاج، ص89.

(485) الجاحظ، البيان، ج1/ص115.

و العروض التي يقدمها ابن المقفع جاءت متدرجة من المجمل إلى المفصل ، و من العموم إلى الخصوص و وظف فيها الاستشهاد. و يظهر أن ابن المقفع قد عمد إلى تقسيم الكل إلى الأجزائه المكونة له، فلم يستعمل هذا التقسيم؟.

إن الغاية من هذا التقسيم – حسب بيرلمان – هو "البرهنة على وجود المجموع ومن ثمة تقوية الحضور بمعنى إشعار الغير بوجود الشيء موضوع التقسيم من خلال التصريح بوجود أجزائه"[486].

فابن المقفع بدأ إجابته بتعريف عام و مجمل للبلاغة حين قال:" البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة"؛ ثم لاحظ الاعتراض الإشاري من السائل أو ربما الافتراضي منه هو نفسه، فأخذ يفصل هذا التعريف ويوضحه أكثر فأكثر، فتتوالى الحجج و التمثيلات لزيادة الفهم عند المتلقي و بالتالي إحداث الإقناع لديه.

فابن المقفع ينطلق من المجمل في تعريف البلاغة ثم يفصل و يفرع هذا التعريف إلى أجزاء ثم يعود في الأخير ليجمل هذا التفصيلات. كما يوضح المخطط التالي:

(486)عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص48.

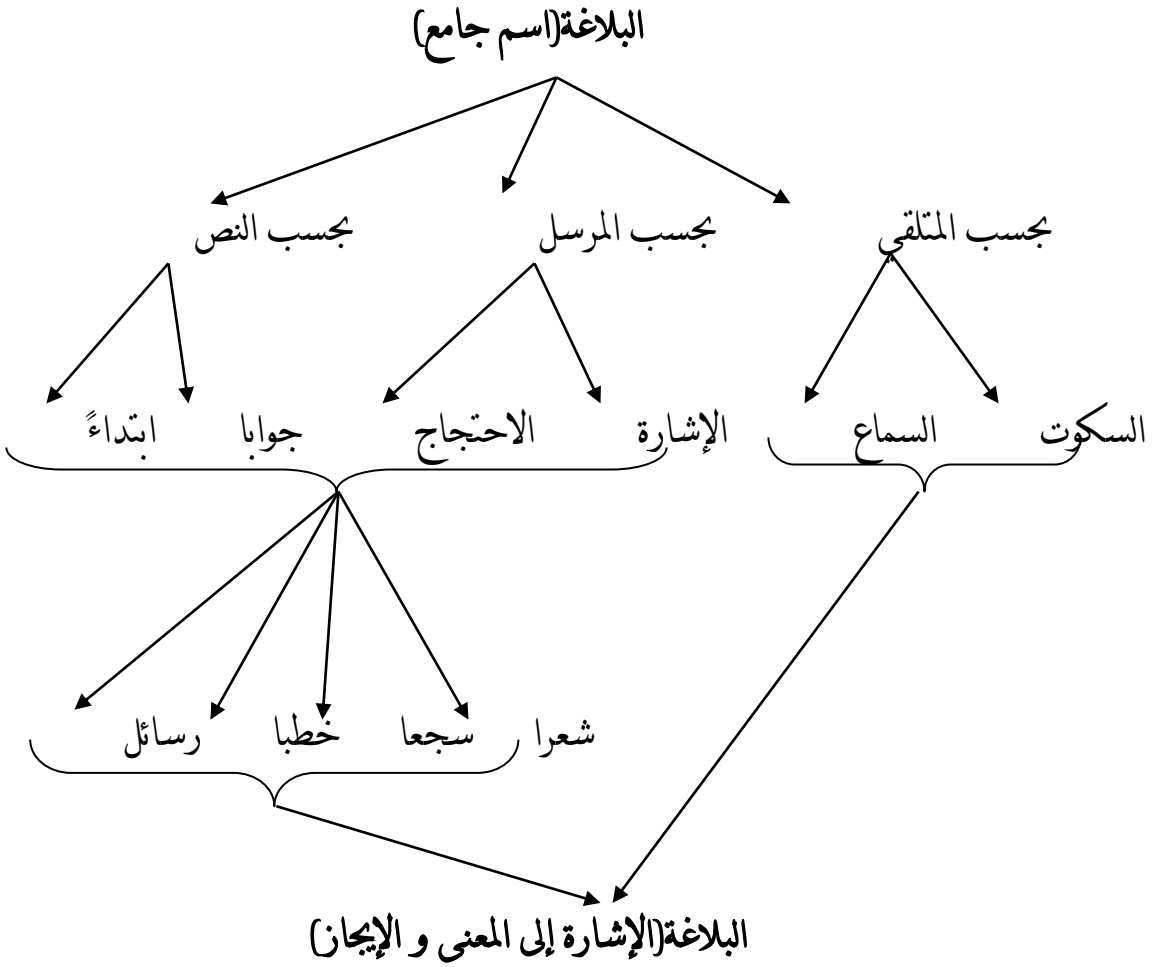

و يتجلى تطبيق ابن المقفع لتطبيق قانون الأنفع فيما يلي:

1. في تعريفه للبلاغة من جهة مكونات الخطاب الثلاثة (المرسل، المتلقي، النص).

2. اختياره في الأخير لنهج الإشارة إلى المعنى و الإيجاز في إنتاج النصوص البلاغية، فهذا النهج عنده هو الأنفع في مختلف الأجناس البلاغية من شعر و سجع و خطب و رسائل.

و يقول الجاحظ في سياق حديثه عن أمراض اللسان و العِلات التي قد تعري الإنسان فتمنعه من الإبانة و الإبلاغ؛ "قيل لبُزُرْجِمِهْرَ بن البختكان الفارسيّ: أيُّ شيءٍ أستَر للعَيِّ؟ قال: عقلٌ يجمِّله، قالوا: فإن لم يكن له عقلٌ، قال: فمالٌ يستره،قالوا: فإن لم يكن له مال قال: فإخوانٌ يعبِّرون عنه، قالوا: فإن لم يكن له إخوانٌ يعبرون عنه قال: فيكون عييّاً صامتاً، قالوا: فإن لم

يكنْ ذا صَمْت، قال: فموت وحيٌّ خيرٌ له من أن يكونَ في دار الحياة"[487].فالسائل في هذا النص مضمر أو سائل افتراضي يسأل عن وسيلة تستر العيّ، و العي يعرفه الجاحظ في موضع آخر بقوله:"إنّما وقع النهي على كل شيء جاوز المقدار، ووقع اسم العي على كل شيء قصر من المقدار، فالعيّ مذموم و الخطل مذموم"[488]؛ أي هو عدم القدرة على الإبانة على ما في النفس بالوسائل التواصلية اللغوية؛ و هذا قد يضع المبتلى بهذا المرض اللغوي يقع في الحرج ضمن محيطه الاجتماعي، لهذا لابد له أن يبحث عما يستر هذا العيب.وفي هذا السياق يطرح هذا السؤال: أيُّ شيءٍ أستَر للعَيِّ؟فتأتي إجابة بُزُرْجِمِهْرَ بن البختكان الفارسيّ و فق تراتبية هرمية تنازلية تبدأ باختيار العلاج الأنفع و الأنجع مطبقا بذلك قانونا من قوانين الحجاج؛ و يمكن أن نمثل إجابته بالمخطط التالي؛ حيث تتراتب الاختيارات العلاجية من أسفل الهرم إلى أعلاه.

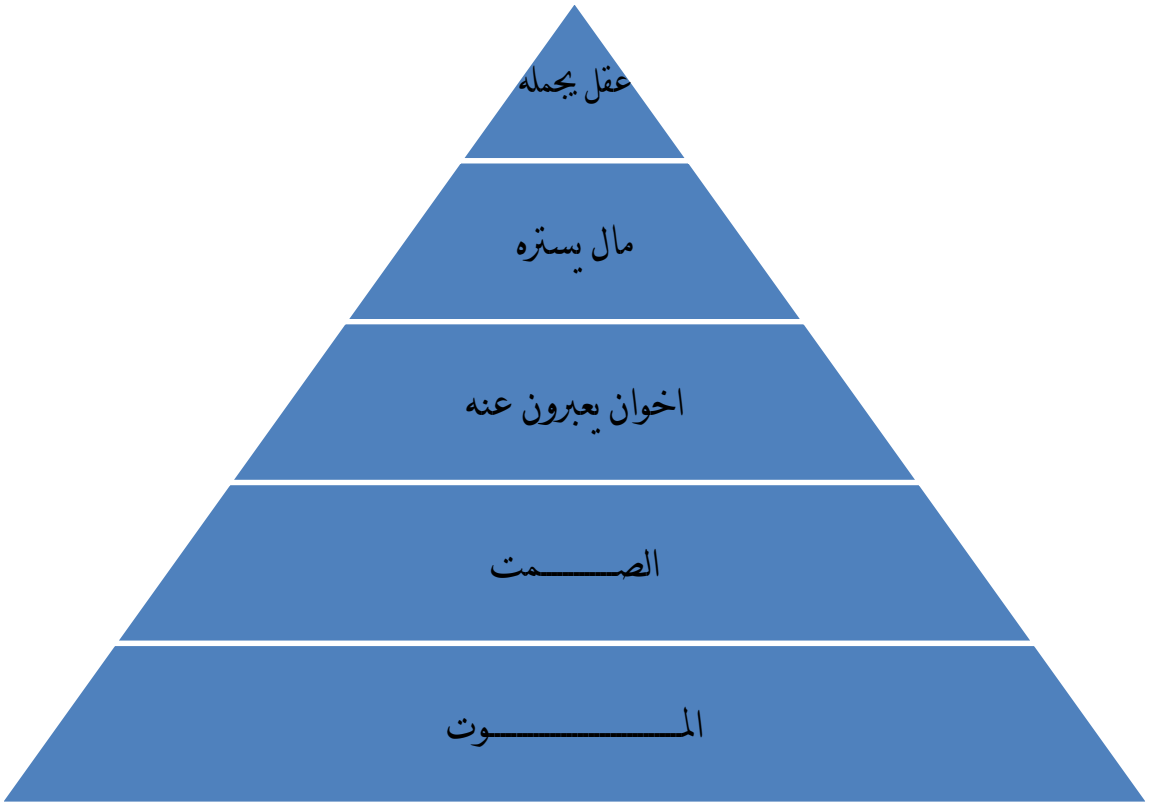

(487) الجاحظ، البيان، ج1/ص07.

(488) م. نفسه، ج1/ص202.

قانون السلالم الحجاجية:

أحيانا يكون التدرّج و التنظيم في المسار الحجاجي أهمّ من المحتوى القضوي؛ و مفهوم السلّم يهتمّ بهذا الجانب: أي دراسة مسار الحجاج انطلاقا من قول الحجة إلى نتيجتها و طريقة التلازم و التعاقد و سلّم التفاضل بين الحجج من حيث القوة و الضعف و الكم و الكيف...إلخ

وقد اكتشف ديكرو الطبيعة السلمية التفاضلية في مساندة النتيجة وقد صاغ هذه الخاصية صياغة عامة على النحو التالي :إذا افترضنا أن متكلما يضع الملفوظين (م1) و (م2) ضمن فئة حجاجية واحدة (فا)تشترك عناصرها في مساندة نفس النتيجة (ن)، فإننا سنقرر أنه (أي المتكلم) يعتبر (م1) أقوى من(م2) في علاقتهما بالنتيجة (ن)،أي أنّ المتكلم يرى أنّ القبول باستنتاج (ن) من(م2) يستلزم القبول باستنتاج ن من (م1) يستلزم القبول باستنتاج (ن) من دون أن يكون العكس صحيحا؛ أي أنّ هذه الحجج تختلف عن بعضها من حيث القوة والضعف، واختلاف قوة كل حجة في إسناد هذه النتيجة الواحدة هو ما يعطيها السمة التفاضلية.[489]

و يعرّف" طه عبد الرحمن "السلم الحجاجي بأنه " عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية ومُوفِّية بالشرطين التاليين:

1. كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.
2. كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه"[490]

وهناك ثلاثة قوانين تحكم السلم الحجاجي وهي: قانون الخفض، قانون تبديل السلم، قانون القلب[491]. فهل تتجلى هذه القوانين في الخطاب البلاغي عند الجاحظ؟

---

(489) خديجة بوخشة، محاضرات في اللسانيات التداولية، ص72.

(490)طه عبد الرحمن :اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى،1998، ص277.

(491) م. نفسه، ص277..

قال الجاحظ:"و العتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين و البلديين قصده و معناه، بالكلام الملحون، و المعدول عن جهته، و المصروف عن حقه، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان، بعد أن قد فهمنا معنى كلام النبطي الذي قيل له: لِمَ اشتريت هذه الأتان؟قال:"أركبُها و تَلَد لي". وقد علمنا أن معناه كان صحيحا."[492]و يواصل الجاحظ ضرب أمثلة من هذا القبيل، منها:"و قلت لخادم لي: في أي صناعة أسلموا هذا الغلام؟ قال: "في أصحاب سِنْدِ نِعال" يريد: في أصحاب النِّعال السِّندية.... فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة و اللكنة، و الخطأ و الصواب، و الإغلاق و الإبانة، و الملحون و المعرب، كله سواء، و كله بيانا. و كيف يكون ذلك كله بيانا؟ و لولا طول مخالطة السامع للعجم و سماعه للفاسد من الكلام لما عرفه، ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا. و أهل هذه اللغة و أرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم... و إن هذا الاسم إنما يستحقونه بأنّا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم. فنحن قد نفهم بحمحمة الفَرَس كثيرا من حاجاته، و نفهم بضُغاء السِّنَّور كثيرا من إرادته، و كذلك الكلب، و الحمار، و الصبي و الرضيع.و وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء. و أصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا: "مكرهٌ أخاك لا بطل" و : "إذا عزَّ أخاك فَهنْ". ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبتُ إلى أبو زيد، و رأيت أبى عمرو. ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا و أشباهه بهرجوه ولم يسمعوا منه؛ لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تُفسد اللغة و تنقص البيان "[493].

يبني الجاحظ نصه وفق تراتبية حجاجية تورد مجموعة من الأقوال تقوم على نقض

مضمون يمكن أن يفهمه المتلقي لكلام العتابي ابتداء؛ لكنه بتتبع الأقوال المتراتبة يقتنع بخطأ هذا الفهم الأولي. و هذه الأقوال هي:

---

(492) الجاحظ، البيان، ج1/ص161.

(493) م . نفسه، ص162، 163.

القول01: كل من أفهمك حاجته فهو بليغ، فالبلاغة تدور حول الدلالة و المعنى دون اللفظ و التركيب.

القول02: الكلام الملحون يفهمنا حاجة المتكلم.إذن فهو بليغ.

القول03: اعتبار **القول02** صحيح ينتج عنه تساوي الثنائيات المتضادة التالية: الفصاحة/اللكنة، الخطأ/الصواب، الإغلاق/الإبانة.

القول04: سبب فهم الملحون هو كثرة مخالطة مستعمليه.

القول05: اعتبار الفهم الناتج عن كثرة المخالطة ضمن البيان و البلاغة؛ يدخل مانفهمه من الحيوانات أيضا في البيان و البلاغة.

القول06:البلاغة هي إفهام الحاجة على مجاري كلام العرب الفصحاء.

القول07: علماء اللغة لا يأخذون ممن لا يلتزم بمجاري كلام العرب الفصحاء.

فالجاحظ ينطلق من افتراض أولي محدد يؤدي إلى مجموعة النتائج.

الافتراض الأولي: **البلاغة = الدلالة – اللفظ و قواعد التركيب.**

يؤدي النتائج التالية:

- البلاغة = الفصاحة + اللكنة + الخطأ + الصواب + الإغلاق + الإبانة.
- البلاغة = الدلالة البشرية + الدلالة الحيوانية.

و ينقض الجاحظ هذا الافتراض انطلاقا من نتائجه؛ فالبلاغة بهذا المفهوم تتضمن متناقضات لا يقبلها العقل السليم؛ وفقا قانون تبديل السلم الذي ينص على" إذا كان القول دليلا على مدلول معين؛ فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله"[494]؛ فهذه الثائيات متناقضة:

(494) م . نفسه، ص162، 163.

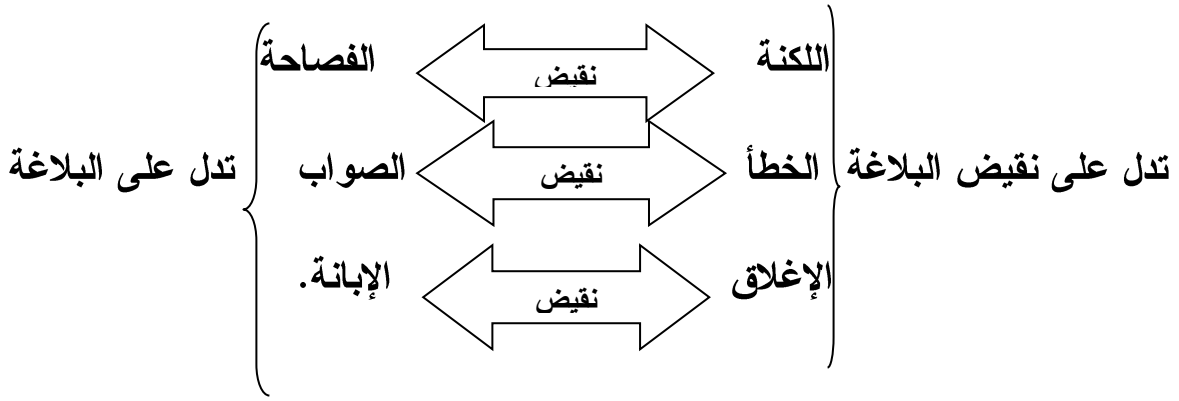

إذا كان القول (الفصاحة و الصواب و الابانة) تدل على مدلول البلاغة فإن القول النقيض (اللكنة والخطأ و الإغلاق)تدل على المدلول النقيض للبلاغة.

إضافة إلى هذا الاستدلال وفق السلم الحجاجي يدعم الجاحظ قوله باستشهاد من واقع الحياة العلمية في عصره؛ وهو إن علماء اللغة الذين هم المرجع الأصيل لمعرفة مفهوم البلاغة لا يعتبرون المتكلم الذي لا يلتزم بقواعد اللغة من البلغاء حتى إذا استطاع تبليغ حاجته.

من خلال هذا التدرج الحجاجي يصل بنا الجاحظ إلى المفهوم الحقيقي للبلاغة من وجهة نظره، وهو: **البلاغة = الدلالة + اللفظ + قواعد التركيب.**

ننتقل إلى نص آخر يوظف فيه الجاحظ وسائل السلم الحجاجي اللغوية والتي هي عبارة عن مؤشرات لغوية تساعد على تنامي الحجاج؛ فإذا "كان القول أو الخطاب معلما؛ أي مشتملا على بعض الروابط والعوامل الحجاجية، فإن هذه الأدوات والروابط تكون متضمنة لمجموعة من الإشارات والتعليمات التي تتعلق بالطريقة التي يتم توجيه القول أو الخطاب "[495]وهذه الروابط هي التي تحدد الاتجاه الحجاجي من ألفاظ ومؤشرات لغوية، بالإضافة إلى السياق اللغوي[496].

---

(495)أبو بكر العزاوي :الحجاج في اللغة ، مجلة المنار http://www.almannarah.com

(496)خديجة بوخشة، محاضرات في اللسانيات التداولية، ص74.

يقول الجاحظ:" وقد استخف الناس ألفاظا و يستعملونها و غيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك و تعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع و العجز الظاهر، و الناس لا يذكرون السَّغب و يذكرون الجوع في حال القدرة و السلامة. و كذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. و العامة و أكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر و بين ذكر الغيث. و لفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، و إذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، و لا السمع أسماعا. و الجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر و أولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج.و العامة ربما استخفت أقل اللغتين و أضعفهما، و تستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا و تدع ما هو أظهر و أكثر، و لذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار و لم يسر ما هو أجود منه، و كذلك المثل السائر"[497].

يبدأ الجاحظ نصه بالرابط الحجاجي (وقد) الذي يفيد هنا التأكيد أن ما يخبر به هو حقيقة واقعة فعلا (أي أن الناس فعلا يستخفون بعض الألفاظ و يستعملونها)؛ ثم يوظف رابط آخر ليستدرك (وغيرها)أحق منها بالاستعمال؛ ثم يستشهد بتوظيف الرابط (ألا ترى) ليلفت انتباه المتلقي إلى المثل الأعلى في استعمال الألفاظ وفق دلالاتها الدقيقة ألا وهو القرآن الكريم.و يوظف الحصر في ثنايا حجاجه، بتراكيب مختلفة؛ وهي من التراكيب التي

تترتب فيها الحجج حسب درجة قوتها الحجاجية فهي"عامل يوجه القول نحو وجهة واحدة نحو الانخفاض"[498]. فهو يوجه القول بالتراكيب الحصرية كما يلي:

- الله تبارك و تعالى **لم** يذكر في القرآن الجوع **إلا** في موضع العقاب.
- و كذلك ذكر المطر؛ لأنك **لا** تجد القرآن يلفظ به **إلا** في موضع الانتقام.

(497) الجاحظ، البيان، ج1/ص20.

(498)عبد الهادي بن ظافر الشهري : إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ص520.

- وقد زعم بعض القراء أنه **لم** يجد لفظ النكاح في القرآن **إلا** في موضع التزويج.

فتركيب الحصر يوظفه الجاحظ في شكل إشارات معيارية تحدد قواعد توظيفية دقيقة للألفاظ وفق النموذج التالي:

اللفظ(أ) "**لا/لم**" يوظف في أصل اللغة **إلا** للدلالة على **المعنى (ب)**

فكل توظيف يخالف هذا النموذج يتعبر توظيفا خاطئا.

و يدعم الجاحظ كل تركيب حصري بتوكيد يضفي الموثوقية و الصدق على المعايير التي سيحددها. فأدوات التوكيد "تنهض بوظيفة حجاجية تتمثل في تقديم المسائل للمتلقي وفرضها عليه، ويكون أسلوب التوكيد بقصد رد إنكار المخاطب ودفع الشك"[499]، وأغراض هذا الأسلوب ثلاثة" أحدهما :أن يدفع المتكلم ضرر غفلة السامع عنده .وثانيهما :أن يدفع ظنه بالمتكلم الغلط، فإذا قصد المتكلم أحد هذين الأمرين فلا بد أن يكرر اللفظ الذي ظنه غفلة السامع عنه...والغرض الثالث :أن يدفع المتكلم عن نفسه ظن السامع به تجوزا"[500] ويكون باستعمال العامل الحجاجي"إنّ "ولام التوكيد. و هذا ما يستعمله الجاحظ في نصه:

- ألا ترى **أن** الله تبارك و تعالى **لم** يذكر في القرآن الجوع **إلا** في موضع العقاب.
- **لأنك لا** تجد القرآن يلفظ به **إلا** في موضع الانتقام.
- وقد زعم بعض القراء **أنه لم** يجد لفظ النكاح في القرآن **إلا** في موضع التزويج.

فالجاحظ يعول على تظافر وسائل السلم الحجاجي اللغوية ليصل بالمتلقي إلى النتيجة النهائية وهي أن لغة العامة لا تعد توظيفا ناجحا للمعيار اللغوي و نموذجه المستنتج من اللغة الأصل.و يضيف إلى هذا نوع آخر من الحجاج لإقناع أكبر متمثل في حجاج السلطة من خلال الاستدلال بكلام الله؛ إذ أن سلطة النص القرآني تشكل قوة إقناعية هائلة تقود المتلقي إلى الإذعان لتوجهات الجاحظ و آرائه.

---

(499) خديجة بوخشة، محاضرات في اللسانيات التداولية، ص76.

(500)مهدي المخزومي، في النحو العربي، نقد وتوجيه، دار الرائد العربي بيروت لبنان،ط2، 2003، ص335.

و يطبق الجاحظ قانون السلم الحجاجي في مناظراته المبثوثة في رسائله، التي تمثل نماذج تطبيقية للمنهج الحجاجي التداولي في إقناع المحاجج بآرائه و معتقداته و أفكاره.

إذ يقوم السلم الحجاجي على شرح ما أجمل ذكره سابقًا، فالتفصيل يحمل المرجعية الخلفية لما سبق إجماله، وكذلك يرد عجز الكلام إلى الصدر[501]. فرسالة (تفضيل النطق على الصمت) مثلا تحقق الصلة بين عنوان الرسالة الذي هو مجمل وتفاصيل هذه الأفضلية، حين يقول:" وإني سأوضح ذلك ببرهان قاطع، وبيان ساطع، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر.... إني وجدت فضيلة الكلام باهرة، ومنقبة المنطق ظاهرة، في خلال كثيرة، وخصال معروفة.... منها : أنك لا تؤدي شكر الله ولا تقدر على إظهاره إلا بالكلام، ومنها :أنك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانة عن مآربك إلا باللسان.... ولم أجد للصمت فضلاً على الكلام مما يحتمله القياس، لأنك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام به .ولو كان الصمت أفضل والسكوت أمثل لما عرف للآدميين فضل على غيرهم، ولا فرق بينهم وبين شيء من أنواع الحيوان.... والذي ذكر من تفضيل الكلام ما ينطق به القرآن، وجاءت فيه الروايات عن الثقات، في الأحاديث المنقولات،..."[502]. فنلاحظ الجاحظ يذكر الحكم في القضية منذ بداية ثم يبدأ إيراد في سلالم حجاجية تفصلية للبرهنة على صحة الحكم.

(501)صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى،1431 ه-2000 م..ج2/ص141

(502)ا لجاحظ، الرسائل، نسخة الكترونية ، http://www.al-mostafa.com .ص424

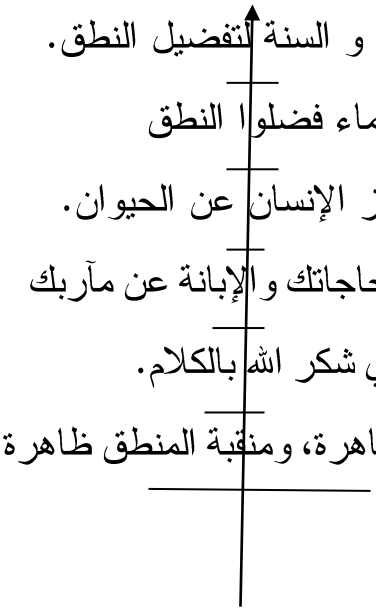

ومما يماثل هذا النهج الحجاجي ما أورده في رسالتي:(الردّ على النَّصارى)[503] و (حجج النبوة)[504] التي تأتي مضامينها تفصيلًا لاسمهما، فالمرجعية المتحققة هي مرجعية قبلية عائدة على ما سبق الإشارة إليه وفق نهج حجاجي سلمي يرتكز على التفصيل و البرهنة. ومن الأمثلة التي وردت داخل الرسائل والتي تعكس طبيعة هذه الوظيفة، ومثاله في رسالة (الحجاب)[505]:"قال خالد بن عبد اللّه القسري لحاجبه :لا تحجبنَّ عني أحدًا إذا أخذتُ مجلسي ؛ فإنَّ الوالي لا يحتجب إلا عن ثلاث : إما رجلٌ عِيِيٌّ يكره أنَّ يُطَّلع على عِيه ، وإما رجلٌ مشتمل على سَوءة،أو رجلٌ بَخيل يكره أنْ يدخل عليه إنسانٌ يسأله شيئًا"، فخالد القسري أجمل القول بقوله "لا يحتجب إلا عن ثلاث" ثم فصّله ببيان أصناف الولاة المحتجبين، ومن الملاحظ أنَّ هذه العلاقة تنتشر بين عدد ليس بالقليل من الجمل تربط بينها ربطًا مفهوميًا يساعد على التواصل بين المرسل و المتلقي، وقد تسير العلاقة في إتجاه معاكس فتنتقل من التفصيل إلى

(503) م. نفسه، ص 342.

(504)م. نفسه، ص 314.

(505)الجاحظ، الرسائل، ص127.وما بعدها.

الإجمال، ويطلق علماء البلاغة على هذه العلاقة؛ علاقة (التقسيم ثم الجمع).أما ذكر الكلام مجملًا ثم فصل بعد ذلك فيسمى عندهم علاقة (الجمع ثم التقسيم)[506]، ومن هذه العلاقة ما جاء في رسالة (مناقب الترك)[507] بقوله:"قال حميد : والخصال التي يَصُولُ بها الخارجيُّ على سائر الناس صِدق الشَّدَّة عن أوّلِ وهلة...الصَّبر على الخَبب وعلى طول السُّرى،...أنَّ الخارجيَّ موصوفٌ عند الناس بأنَّه إن طَلَب أدرَك وإن طُلِب فات...خفة الأزواد وقلة الأمتعة... فهذه ...مَفاخرُهم وخِصالهم ،التي كَرِه القُوّاد لقاءهم". فحميد بن سيار ذكر ميزاتهم التي يُكره من أجلها قادة الجيوش لقاء الخوارج بتفاصيلها، ثم ختمها بلفظة صريحة للإجمال بقوله (هذه...مفاخرهم) ناهيك عما تحتويه هذه الجملة من اسم الإشارة الذي يحيل على ما تقدم والذي يحقق وظيفة الربط والتسلسل الحجاجي.

فالمتتبع للخطاب الجاحظي بمختلف أنواعه يلاحظ بجلاء توظيفه لقانون السلالم الحجاجية في نصوصه، وهو أحد القوانين التي توصل إليها الدرس اللساني التداولي الحديث و يدعو إلى توظيفها في مقاربة النصوص.

(506)جمال عبد المجيد،البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن مشروع مكتبة الأسرة ،2006 م.ص162

(507)الجاحظ: رسائل ، ص02.

قانون القوّة الحجاجيّة /الوجهة الحجاجيّة[508]

اعتبر آسكومبر أنّ المحتوى الدّلاليّ لكلّ قول يتكوّن من مصراعين أو واجهتين:

- الإخبار أو الإبلاغ L'informativité
- المحاجّة L'argumentativité

يقول الجاحظ:"اعلمْ أنّ المصلحة في أمر ابتداء الدّنيا إلى انقضاء مدّتها امتزاج الخير بالشرّ " هذا قول واصف يقدّمه الجاحظ وهو متضمّن :

1.حكم أوليّ عن حال الدّنيا : حال لا يصلح إلاّ بامتزاج الخير و الشرّ و منه يُفهم أنّ الشرّ كما الخير نافع هو الآخر و منه يفهم أيضا أنّ الله قد وضع الشرّ إلى جانب الخير لحكمة ...إلخ

2. قوّة تأثيرية بالقول من خلال الرابط (اعلم) تجعل القول يتخطّى عتبة الإخبار و الإبلاغ إلى الحجاج حيث يروم الجاحظ تغيير سلوك الإنسان و نظرته إلى الكون و طريقة تبرير أفعـــاله و أعماله : فالقول فيه قوّة /وجهة حجاجية داعية إلى:

- تنزيه الله تعالى أن يضاف له الشرّ فأفعاله كلّها حسنة
- الإنسان موجد لأفعاله خيرها و شرّها
- حريّة الإنسان تقوم على فكرة الاستطاعة

فالوجهة الحجاجية للقول الجاحظي المذكور تروم تعبئة المتلقّي في الانخراط في الفكر الاعتزالي الوسطي

وقد تكون هذه الموجّهات الحجاجية أحيانا و في كثير من الأوقات أهـــمّ و أنجع من المضمون القضوي أو الخبر الذي يتضمّنه القول. و هي التي تجعل المحاجّة تطفو و تغلب الإخبار.

(508) عبد الرزاق السّومري، الحجاج : منطلقاته ، تقنياته و مفاهيمه ،يونيو 2010 ، موقع أنفاس نت على شبكة الانترنت.

فالوجهة الحجاجيّة للقول هي قاعدة الاستنتاجات الضمنية[509] التي يمكن أن نتأوّلها من خلال واسمات لغوية أو مقامية أو إشارية و التي تعبّر عن مقصد و غايات المتكلّم تُشبّه هذه الواسمات بمحوّلات الخطاب.وهي تخضع لشروط و دوافع مرتبطة بالقصدية و المواضعات و حاجات المؤسسة.

يقول الجاحظ: "كان مولى البَكَرات يدَّعي البلاغة، فكان يتصفح كلام الناس فيمدح الرديء و يذم الجيد، فكتب إلينا رسالة يعتذر فيها من تركه المجيء، فقال: "و قطَعَني عن المجيء إليكم أنه طَلَعت في إحدى أليتَي ابني بَثرةٌ، فعظُمت حتى صارت كأنها رمانة صغيرة"..."[510]

هذا النص يحتوي مضمونا قضويا قابلا للتصديق أو التكذيب وهو (أن مولى البكرات عند نفسه هو عالم بالبلاغة)، لكن الوسم اللساني "يدّعي" يوجّه القول وجهة تشكيكيّة قابلة للنّقض و التبكيت، فالجاحظ يشكك في هذا المضمون منذ بدايته ثم يأتي بمجموعة من المضامين الأخرى ترتبط بهذا المضمون؛ لكنه في يترك للمتلقي الحكم النهائي بعد أن يوجهه من خلال المضامين الإضافية، وهي:

- فكان يتصفح كلام الناس فيمدح الرديء و يذم الجيد.فهذا المضمون يدل أن (مولى البكرات) كان يتبنى أراء تحمل أخطاء معرفية هي الحكم المتناقض على الرديء و الجيد.و هذا على المستوى النظري لديه.
- كتب رسالة: "و قطَعَني عن المجيء إليكم أنه طَلَعت في إحدى أليتَي ابني بَثرةٌ، فعظُمت حتى صارت كأنها رمانة صغيرة".هنا الجاحظ يزود المتلقي بنص تطبيقي يمكنه من الحكم على (مولى البكرات)؛ فإذا لاحظ المتلقي ركاكة الأسلوب و سوء التوظيف للمعاني و الألفاظ استنتج بنفسه الحكم على هذا المدعي.

---

(509) م. نفسه، على الشبكة

(510) الجاحظ، البيان، ج4/ص11.

فالجاحظ من خلال التوجيه الحجاجي باستخدام مجموعة من المكونات اللسانية و السياق، يدفع المتلقي إلى ممارسة فعل التأويل من خلال تحليل المكونات ليصل في النهاية إلى الاقتناع بحكم الجاحظ الأولي المتضمن في المكون اللساني "يدّعي".إذن (مولى البكرات) مدعي للبلاغة و ليس بلاغيا على الحقيقة.

الاستدلال الحجاجي عند الجاحظ:

يقوم الخطاب الجاحظي بمختلف أجناسه في الكثير من تمفصلاته على قواعد الاستدلال الحجاجي، و التي منها الاستدلال المركب.

الاستدلال المركب:

يعرفه طه عبد الرحمان بأنه يتمثل في "كون الجملة التي ينطلق منها تكون جملة شرطية، سواء كانت هذه الشرطية صريحة باستعمال أداة الشرط أو ضمنية معبر عنها بكيفيات أخرى كأداة الحصر (إنما) أو كالاستثناء مع النفي، و يشكل المُقَدَّم من هذه الشرطية العلة و التالي المعلول، ثم تتوالى فيه الجمل الشرطية الواحدة تلو الأخرى بحيث يصبح التالي في الجملة السابقة مقدما في اللاحقة، و هكذا إلى أن ينتهي إلى النتيجة المطلوبة"(511). ومثال ذلك: "والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى، لا تراه أبداً إلا طيب النفس، ضحوك السن، حسن الظّن.وهذا هو الشرف. وقد قال ناس :أنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم، ولقصر رویاتهم، ولجهلهم بالعواقب. فقلنا لهم :بئس ما أثنيتم على السخاء والأثرة، وينبغى في هذا القياس أن يكون أوفر الناس عقلاً وأكثر الناس علماً أبخل الناس بخلاً وأقلهم خيرا. وقد رأينا الصقالبة أبخل من الروم، والروم أبعد رويةً وأشد عقولا .وعلى قياس قولكم أن قد كان ينبغى أن تكون الصقالبة أسخى أنفساً وأسمح أ كفّاً منهم."(512)

فالمقدمة هي الجملة الشرطية: أن الزنوج **إنما** صاروا أسخياء **لضعف** عقولهم، و**لقصر** رویاتهم، و**لجهلهم** بالعواقب.

فهذه المقدمة تحمل دعوة يفترض أصحابها صحتها؛ لكن الجاحظ يسعى الى نقضها واثبات علطها و أن الحقيقة خلاف هذه الدعوة، فيبدأ النقض بحجاج تبكيتي وظف فيه مكون لساني يحمل دلالة الذم و الاستياء(**بئس** ما أثنيتم على السخاء والأثرة)يخاطب العاطفة، ثم يلحقه

(511) طه عبد الرحمان، التكوثر العقلي، ص393.

(512) الجاحظ، الرسائل، ج1/ ص61.

بحجاج منطقي يخاطب العقل (وينبغى في هذا **القياس** أن يكون أوفر الناس **عقلاً** وأكثر الناس **علماً** **أبخل** الناس **بخلاً** وأقلهم خيرا). فمن غير المنطقي أن تجتمع صفات إيجابية(**عقلاً**، **علما**) في شخص واحد مع صفات سلبية(**بخلاً، وأقلهم خيرا**) في الوقت نفسه.

و يواصل حجاجه معتمدا على الاستدلال المركب:

م1 = الصقالبة أبخل من الروم (مقدمة أولى صادقة واقعية)

م2 = الروم أبعد رويةً وأشد عقولا (مقدمة ثانية صادقة واقعية)

ن = الصقالبة أسخى من الروم (النتيجة استنادا إلى قياس المحاجج صاحب الدعوة)

بحيث تمثل: م1:مقدمة أولى صادقة واقعية، م2: مقدمة ثانية صادقة واقعية، ن:النتيجة استنادا إلى قياس المحاجج صاحب الدعوة.

لكن القول الاخباري الواقعي يفند و ينقض هذه النتيجة و يعطي أخرى مخالفة بل مضادة لها:

م1 = الصقالبة أبخل من الروم (مقدمة أولى صادقة واقعية)

م2 = الروم أبعد رويةً وأشد عقولا (مقدمة ثانية صادقة واقعية)

ن = الصقالبة أسخى من الروم (نتيجة صادقة مطابق الواقع)

و يواصل الجاحظ إيراد حججه وفق الاستدلال المركب بقوله:"وقد رأينا النساء أضعف من الرجال عقولاً، والصبيان أضعف عقولا منهم، وهم أبخل من النساء، والنساء أضعف عقولاً من الرجال .ولو كان العقل كلَّما أشتد كان صاحبه أبخل، كان ينبغي أن يكون الصبي أكرم الناس خصالاً.ولا نعلم في الأرض شراً من صبي".

و يمثل طه عبد الرحمان لمثل هذا الاستدلال الحجاجي بالخطاطة التالية[513]:

(513)طه عبد الرحمان، التكوثر العقلي، ص394.

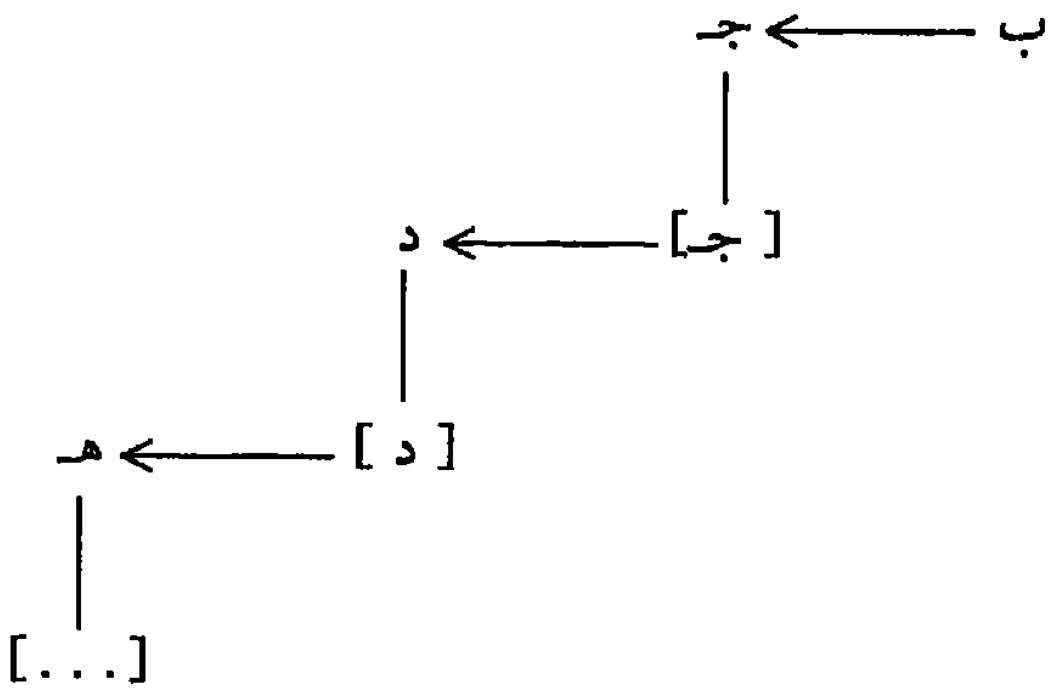

حيث ترمز الحروف: ب و ج و د و هـ و ... إلى القضايا المطروحة (أضعف عقولا، قضية البخل، علاقة البخل بالعقل)، والسهم إلى رابط الشرط و المعقوفتان إلى التغييرات المختلفة التي يمكن أن تدخل على القضية متى استعملت مقدما في القضية التالية.فالجاحظ يمثل هذه القضية بتمثيلين متناقضين؛ التمثيل الأول يستند إلى وجهة نظر المحاجج المدعي، و التمثيل الثاني يستند إلى وجهة ترتكز على الحقيقة الواقعة فعلا.

التمثيل الأول:

علاقة العقل بالبخل(العقل يستلزم البخل)

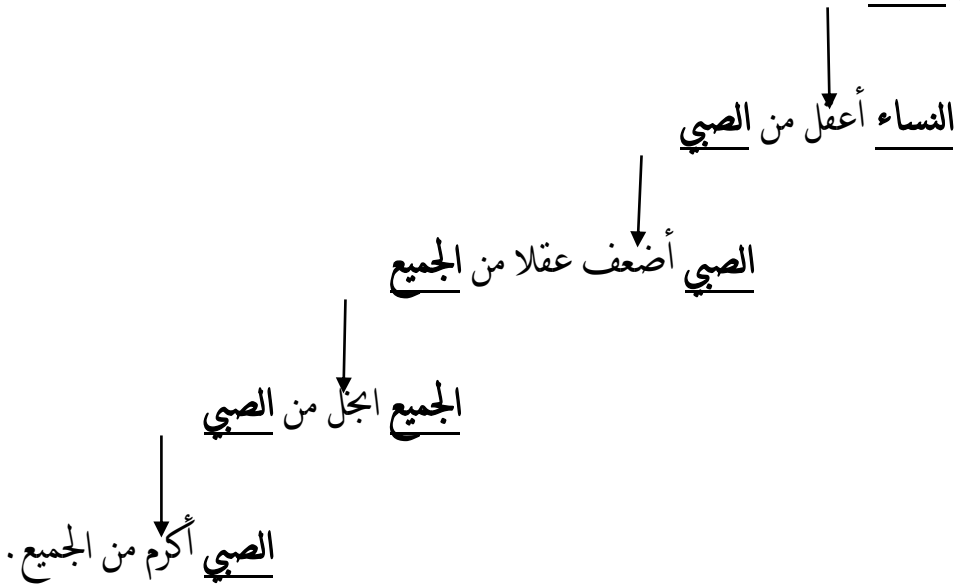

و النتيجة من هذه القضية: كلما زاد العقل عند الإنسان ازداد بخله

التمثيل الثاني: علاقة العقل بالبخل(العقل ليس له علاقة بالبخل)

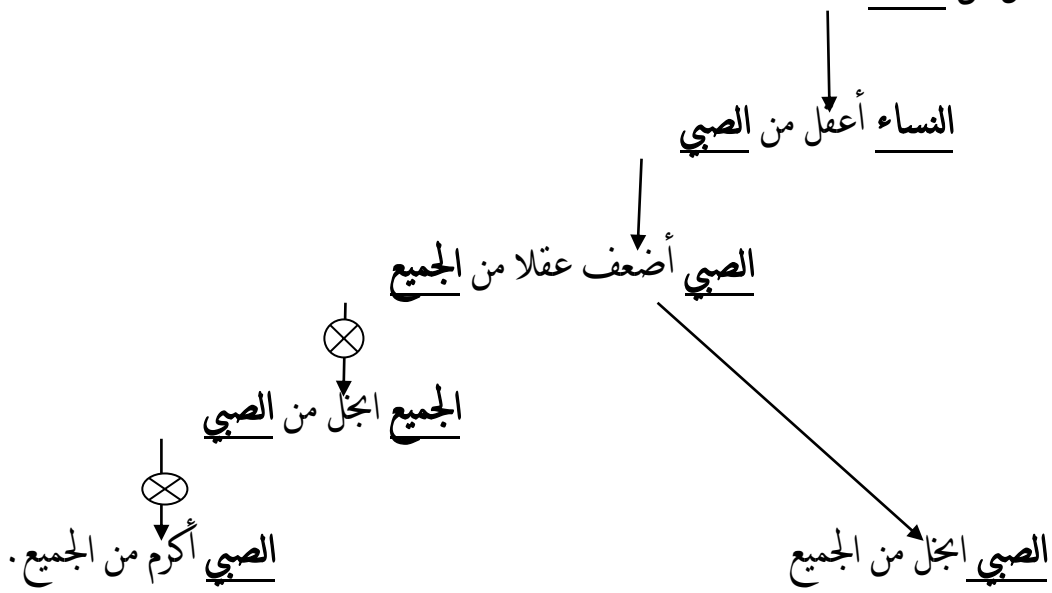

يصل الجاحظ من خلال هذا الاستدلال الحجاجي إلى نتيجة مفادها أن تحلي الشخص بالأخلاق الفاضلة و منها الكرم نقيض الخل؛ ليس له علاقة سلبية بالعقل؛ بل الأرجح أن العلاقة بينهما علاقة تلازم و اقتضاء. فالعقل يستلزم الخلق الكريم و يقتضيه.

إذن هذا النهج الاستدلالي الحجاجي يرتبط بتكرار المكوّن اللساني مع اختلاف وظيفته التدليلية و السياقية مع الاشتراك في قصد عام؛ لأن الغاية من تكرار كلمة أو أكثر هو التأكيد ومن أمثلة التي تدل على القصدية التأكيدية من خلال التكرار بوصفه آلية استدلالية حجاجية ما جاء في رسالة (مناقب الترك):"هذا كتاب كُنتُ كتبته أيامَ المعتصم بالله..وأحبَبتُ أن يكونَ كتابًا قَصــدًا...ولا يكون كتابَ إسراف في مديح قوم ، وإغراق في هجاء آخرين ، وأن كان الكتابُ كذلك شابَهُ الكــذِب، وخالطه التزَيُّد، وبنى أساسُه على التكلُّف"[514]. فلفظة (الكتاب) تكررت في هذا المقطع أربع مرات (كتابا ،كتاب،الكتاب) محيلة ألفاظ إلى لفظة (الكتاب) التي جاءت في المقدمة ، فتكرار هذه الألفاظ يخلق وحدة بين أجزاء النص موضحا دلالة تعبيرية لهذه اللفظة في كل موقع، ففي قوله:(أحببت أن يكون كتابا قصدًا) ، أشار إلى نوعية هذا الكتاب الذي كتبه للمعتصم، وفي الثانية نفى عنه صفة الإسراف في المدح مشيرًا إلى مصداقية القول وصفته، وفي الثالثة أضاف دلالة صدق الكتاب وموضوعيته ؛ لأنه لو شابه الزيف لكان أساسهُ مبنيا على التكلف، فكانت وظيفة التكرار في هذا النص للتأكيد ولتنبيه المستمع إلى أهمية ما بعثه إليه.

(514) الجاحظ، الرسائل، ج1 /ص36.

الفصل الرابع:

الجهود التداولية اللسانية في

خطابات أعلام المعتزلة

المبحث الأول

مقاربة في خطابات أبو الحسن الرماني

أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 384هـ)

هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرماني، و يقال له: الوراق و الرماني و الإخشيدي، سمي بـــ(الرماني) بضم الراء و فتح الميم المشددة و بعد الألف النون ، قيل أن هذه النسبة يجوز ان تكون الى (الرمان) و بيعه، و يمكن ان تكون الى قصر الرمان، و هو قصر بواسط معروف[515].

و سمي بـــ(الإخشيدي) لأنه مان تلميذ ابن الإخشيد المتكلم، او على مذهبه، لأنه كان متكلما على مذهب المعتزلة. و الرماني أحد الأئمة المشاهير جمع بين الكلام و التفسير و العربية، كان مولده على الراجح 276هـ ، و توفي سنة 384هـــ على الراجح من الأقوال[516].

صنف(الرماني) مجموعة ضخمة من المصنفات والمؤلفات، قدرتها بعض المصادر بما يقرب من مائة كتاب، معظمها في علم النحو الذي برع فيه واشتهر به، ومن تلك المؤلفات-:

1. تفسير القرآن المجيد :وقد اختصره عبد الملك بن علي المؤذن الهوري
2. النكت في إعجاز القرآن :وهي رسالة علمية بليغة طبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، بدار المعارف بمصر، تطرق فيها (الرماني) لأوجه الإعجاز القرآني.
3. الجامع في علوم القرآن.
4. ألفات القرآن.
5. شرح معاني القرآن للزجاج.
6. التفات القرآن.

(515) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى، تحقيق: فتح الله صالح علي المصري، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط1، 1987، ص33.

(516) م.نفسه، ص33.

وغيرها الكثير من كتب اللغة والنحو[517].

دارت جهود البلاغيين المتكلمين و على رأسهم المعتزلة حول قضية أساسية هي "إعجاز القرآن الكريم". و قد ساهم الرماني بآرائه في هذه القضية ضمن العديد من مؤلفاته و منها رسالته الموسومة بـــــ(النكت في إعجاز القرآن)، التي يقول فيها((سألتَ وفقك الله عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، و أنا أجتهد في بلوغ محبتك ، و الله الموفق للصواب بمنه ورحمته))[518].

من خلال هذا التقديم المختصر يوضح لنا الرماني سياق كتابة نص الرسالة و بعض الملابسات المحيطة بذلك، فاستنطاق المكونات اللسانية يبرز بعض الدلالات و الخلفيات كمايلي:

- **سألت:** يبرز أن الدافع لتأليف هذا النص هو سؤال توجه به سائل (غير محدد في الرسالة) للرماني مضمونه أنه يريد أن يعرف النكت في إعجاز القرآن. ويتضح من تضافر بعض المكونات اللسانية و دلالاتها أن هذا السائل له مكانة اجتماعية تتيح له أن يضع بعض المحددات للإجابة مسبقا؛ حيث طلب أن تكون مختصرة و من غير حجاج.كما يوحي بذلك أيضا المكون **(و أنا أجتهد في بلوغ محبتك)**.
- **ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج:** هذا الطلب المتعلق بموضوع جسيم و متشعب يشكل قضية عليها مدار الكثير من العلوم العربية آنذاك **(إعجاز القرآن)**، و هذه المحددات المسبقة لنمط الاجابة **(دون التطويل بالحجاج)**؛ إن دلا على شيء فإنما يدلان على الثقة التامة التي يضعها السائل في القدرات المعرفية الدقيقة للرماني؛ وهذا يوضح المكانة العلمية المرموقة التي كان يحتلها الرماني في عصره.

---

(517) عبد السلام حمدان اللوح، حوار مع(الرماني) في وجوه الإعجاز القرآني، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية) المجلد السادس عشر، العدد الثاني،2008، ص95.

(518) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، دار المعارف ،مصر، ط3، 1976، ص75.

فيقول الرماني مجيبا[519]: "تظهر وجوه إعجاز القرآن في سبع جهات وهى :ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة".

ثم يبدأ في شرح آرائه؛ فنجد أن مدار هذه الرسالة على أمرين:

1. **وجوه الإعجاز:** و هي التي أجملها في سبع جهات، و التي منها البلاغة؛ غير أن سكوت الرماني عن بقية الجهات و اهتمامه بالبلاغة يوحي أن غيرها كان معروفا و مفهوما و إنما هي وحدها التي تتطلب شرحا مستفيضا.
2. **البلاغة:** و قد استغرقت جل الرسالة.فيبدأ بتعريفها ثم يحصر البلاغة القرآنية فيجعلها في عشرة أقسام وهي: الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس، التصريف والتضمين، المبالغة، وحسن البيان[520].

فيعرفها بقوله: ((فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، و منها ما هو في أدنى طبقة، و منها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة و أدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، و هو القرآن. و ما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس. و ليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى المتكلمان و أحدهما بليغ و الآخر عي؛ و لا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره و نافر متكلف. و إنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.))[521]

التصنيف الطبقي للبلاغة عند الرماني ينطلق من اعتبار مرسل الخطاب و مكانته.

- **<u>أعلى طبقة:</u>** هو الخطاب الصادر عن **المرسل المقدس** و أبرز صفة له هي انه معجز لا

(519)أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص75.

(520) م. نفسه، ص75-76.

(521)أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص75.

يمكن إنتاج مثيل له.(**المرسل: الله** عز وجل. الخطاب: **القرآن الكريم**).

- **<u>الطبقة الوسطى:</u>** هو الخطاب الصادر عن المرسل المتمثل في (**البلغاء من الناس**) و ابرز صفة له هي أنه ممكن إنتاج مثيل له.
- **<u>أدنى طبقة:</u>** لم يوضح الرماني خطاب هذه الطبقة بعبارة صريحة لكنه يفهمنا ضمنيا أنه الخطاب الصادر من مرسل بلاغته أضعف من بلاغة الطبقة الوسطى.و يفهم ذلك من المكونات (و الآخر **عي**، قد يحقق اللفظ على المعنى وهو **غث مستكره و نافر متكلف**)فهذه الصفات لا يمكن أن يتصف بها خطاب أعلى طبقة أو الطبقة الوسطى؛ إذن فهي صفات للطبقة الغير مصرح بصفاتها مباشرة.

ثم يوضح أن الوظيفة التواصلية الإخبارية التي تؤديها اللغة لا تجعل من الخطاب يتصف بالبلاغة بالرغم من أنها تؤدي المطلوب وهو إفهام المعنى. فالبلاغة حسب تصور الرماني لا تكتفي بإفهام المعنى؛ بل يضع مقاييس أخرى تحدد مفهوم البلاغة. ((**و إنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.**)).

فالبلاغة عند الرماني لا تتضح إلا من خلال مظهرين اثنين يصبان في عمق الدرس التداولي المعاصر، و هما[522]:

1. إن جوهر البلاغة عنده لا يقوم إلا باستيفاء شرطين أساسيين هما:

أ. **الجانب الإيصالي التبليغي** الذي لا يتحقق – بدوره – إلا بحضور أطراف العملية التواصلية، و المقصدية، و سياق معين يؤطر ذلك الحدث التواصلي، و ينجر عن هذا الحدث محاولات يقوم بها المرسل لتحويل مقاصده و تبليغ فحوى فكره إلى المتلقي، و ما يظهر في قوله ((**إيصال المعنى إلى القلب**)).

ب. الجانب الاستراتيجي: في إطار محاولات المرسل نقل أغراضه، و تبليغ مقاصد معينة، يلجأ إلى انتقاء ألفاظ حسنة تتلاءم مع الوضعية القائمة أثناء التحدث (ملابسات و حيثيات

(522) أحمد واضح، الخطاب التداولي في التراث البلاغي العربي، ص190.

التلفظ) هذا من جهة، كما يلجأ إلى التركيز و التعويل على ألفاظ و عبارات (أفعال كلامية) تناسب المقصدية التي عقد من أجلها الكلام، و تليق بمستوى تلك الحمولة المعنوية و لا تُخِلُّ بها، و يظهر ذلك في قوله: ((**في أحسن صورة من اللفظ**)).

2. يمكن أن نستشف (بشيء من الحيطة) أن قوله ((**إيصال المعنى إلى القلب**)) يرتبط ارتباطا شديدا بالآثار التأثيرية للمعنى الذي ينشده المتكلم (البليغ)، مما ينجر عنه تغيير القناعات و قلب الواقع، و يُعْزَ ذلك إلى استخدام الرماني في تعريفه للبلاغة لفظ (**القلب**) بدل (العقل)؛ بمعنى: إن إرسال الكلمات و الخطابات إلى العقل يختلف اختلافا كبيرا على إرسالها و إيصالها إلى القلب؛ على أساس أن القلب هو المحرك الأساسي لحصول العمليات التأثيرية، و التي تملي بدورها على المتلقي أبعادا تداولية كالإقتناع أو نفي الإقتناع السابق، و كل ما من شأنه أن يمت بصلة إلى دائرة الحجاج، أو الفعل الإنجازي الناجح و المؤثر.

يعرف الرماني الإيجاز بأنه((**تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، و إذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة و يمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز. و الإيجاز على وجهين: حذف، و قصر، فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو من فحوى الكلام. و القصر بنية الكلام على تقليل اللفظ و تكثير المعنى من غير حذف**))[523].

نستشف من تعريف الرماني للإيجاز خاصة في نوعه القائم على الحذف بعض الأبعاد اللسانية التداولية منها:

- أنه ظاهرة تحويلية توليدية؛ تمثِّل ما هو محذوف في البنية السطحية، مذكور في البنية العميقة.
- أنه ظاهرة تداولية حيث يبرز دور مقصدية المرسل من وراء توظيفه لخطاب موجز مبني على الحذف، كما يبرز دور السياق الذي أستدعى هذا التوظيف. هذا من ناحية المرسل.

(523)أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص76.

لكن الرماني لا يكتفي بتوضيح أهمية الايجاز من جهة مرسل الخطاب فقط؛ بل ينبه الى أثره على المتلقي فيقول: ((... **ومنه: "وسِيق الذين اتّقوا ربهم الى الجنة زُمَراً حتى إذا جاءوها و فُتِحت أبوابها" كأنه قيل: حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص و التكدير. و إنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، و لو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان، فحذف الجواب في قولك: لو رأَيتَ عليًّا بين الصَّفَّين، أبلغ من الذكر؛ لما بيَّناه**))[524]؛ فهو بوصفه هذا "يبلور لنا مهمة الحذف المزدوجة عند كل من المتكلم و السامع، فهو وسيلة لزيادة الفائدة و الإبانة عند المتكلم، و هو أيضا وسيلة لإثارة الذهن و تحريكه عند السامع"[525]

كما أنّ إشارة الرماني إلى أن الإيجاز عن طريق حذف تركيب أو كلمة يأتي **(للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو من فحوى الكلام)**؛ تحيلنا إلى مفهوم الأقوال المضمرة و الضمنية في الدرس التداولي المعاصر؛ فإذا كان "الحذف بابا في الاقتصاد الكمّي للألفاظ، فإنّه ضرب من ضروب الإثراء الدلاليّ و لا نغترّ بأنّ ما يُسمّى في بعض النظريات النحوية المعاصرة حجبًا(occultif) أو ما تظاهر على تسميته النحاة والبلاغيون حذفا هو ظاهرة منعزلة عمّا يدرسه التداوليون في باب الضمنيّ . بل لعمري تقوم وشائج بين ذينك المفهومين وهذا المفهوم، على أنّ زاوية المقاربة هي التي تختلف .فإذا كان مصطلح"الحجب " تركيبيا بنيويا بالأساس، ومصطلح الحذف بلاغيّا نحويّا بالأساس، فإنّ مصطلح الضمني تداوليّ منطقيّ بالأساس أيضا .ولمّا كانت مناهج العلوم تختلف ومقاصدها تتغاير، فقد تجلّى ذلك على مستوى التسمية"[526].

أما الآلية الثانية للإيجاز فهي القصر و يعرفها بقوله ((**وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف و إن كان الحذف غامضا، للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح**

---

(524)أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص77.

(525) العبيدان موسى مصطفى عبد القادر، ظاهرة الحذف في الإسناد و مخصصاته، دار الإسراء للطباعة، ط1، 1994، ص26-27.

(526) صابر الحباشة، الأبعاد التّداوليّة في شروح التّلخيص للقزويني ، دار المتوسطية للنشر، تونس، ط1، 2009، ص114.

فيها من المواضع التي لا يصلح فمن ذلك: "ولكم في القصاص حياة"[527]...و قد استحسن الناس من الإيجاز قولهم: القتلُ أنفى للقتل، و بينه و بين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة و الإيجاز، وذلك يظهر من أربعة أوجه: إنه أكثر في الفائدة، و أوجز في العبارة و أبعد من الكلفة بتكرير الجملة، و أحسن تأليفا بالحروف الملائمة. أما الكثرة في الفائدة فيه ففيه كل ما في قولهم: القتل أنفى للقتل، و زيادة معانٍ حسنة، منها إبانة العدل لذكر القصاص، و منها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة؛ و منها الاستدعاء بالرغبة و الرهبة لحكم الله به. و أما الإيجاز في العبارة فإن الذي هو نظير – القتل أنفي للقتل – قوله "القصاص حياة"، و الأول أربعة عشر حرفا، و الثاني عشرة أحرف. و أما بعده عن الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة فإن في قولهم: القتل أنفى للقتل تكريرا غيره أبلغ، و متى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة، و أما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرَك بالحس و موجود في اللفظ. فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام، و كذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام، فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها صار أبلغ منه و أحسن، و إن كان الأول بليغا حسنا))[528].

فالرماني يعتبر الإيجاز بآلية القصر على أنه اتساع في الدلالات متضمن في تقليص كمي للمكونات اللسانية؛ فالاتساع يكون في المعنى والاختصار في اللّفظ ذلك أن التغيير حاصل بالمعنى، أي أن الحذف في هذا النوع الغرض منه التوسيع في المعنى. فقد" يؤتى بالعبارة محتملة لأكثر من معنى، وقد يؤتى بها لتجمع أكثر من معنى وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة، فبدل أن يطيل في الكلام ليجمع معنيين أو أكثر، يأتي بعبارة
واحدة تجمعها كلها فيوجز في التعبير ويوسع في المعنى"[529].

---

(527)سورة البقرة، الآية 179.

(528) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص77– 78.

(529) فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم، لبنان ، ط1،2000، ص163.

نستشف من هذا التعريف للإيجاز وفق آلية القصر أن الرماني يضع ضوابط لتوظيفه تلتقي مع بعض مبادئ الدرس اللساني التداولي المعاصر، و تتمثل في:

- **معرفة المخاطب بموضع الإيجاز** :ويصاحب القصد لتحديد الدلالة المواضعة وهو المتعارف عند المجموعة اللّغوية من ألفاظ وتراكيب ويفهم المخاطب ما يقصده المتكلم أثناء إنجازه الملفوظ من خلال المعارف المشتركة التي تجمعهم .((**للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها من المواضع التي لا يصلح**)).
- **مقصدية المتكلم هي الركن الأساسي في الإيجاز:** فالرماني يوظف مصطلح الغموض الذي يدل على غياب شرط الوضوح في الخطاب مما يؤدي إلى التباس الفهم لدى المتلقي، لكن ما الذي يجب على المتلقي فهمه بالضرورة من الخطاب؟ الأكيد أن مقصدية المتكلم هي أول ما يجب على المتلقي فهمه؛ فإذا تواصل غموض الخطاب فلن يتمكن من معرفة هذه المقصدية، مما يدفعه إلى إعمال ذهنه ليصل إلى مايريد المتكلم إبلاغه. لكن هذا التحريض الذهني يصل به إلى إدراك القصد و ما يحيط به من دلالات أخرى ناتجة عن الطبيعة الاتساعية في آلية الإيجاز. و "مفهوم التوسع في المعنى مرتبط بقصد المتكلم الذي ينجز أفعالا لغوية حسب ما تسمح به القواعد اللّغوية وسنن العدول عن هذا النظام اللّغوي للتعبير عن مقاصده الإبلاغية"[530].و الرماني في عنايته بقصد المتكلم ضمن شروط الايجاز يتوافق مع ما قامت عليه نظرية (غرايس) ضمن الدرس التداولي المعاصر؛عندما افترض أن هناك مبدأ عاما يؤسس لتفاعل طرفي الخطاب تفاعلا ناجعا، وهو مبدأ التعاون (Principe de coopération) وقد عرفه بقوله: "يتعين على مساهمتكما في المحادثة أن تتطابق في المرحلة التي بلغتها مع ما يقتضيه منكم الغرض والوجهة اللّذان ارتضيتموهما في عملية التخاطب التي سرعتم فيها"[531].

(530)فازية تقرشة، ظاهرة الاتساع والإيجاز ومقاصدها التداولية، مجلة الأثر، العدد الخاص بأشغال المؤتمر الدولي الرابع في تحليل الخطاب،ص 15.

(531) Georges ELIA SARFAT, Précis de pragmatique, Henri Mitterrand, France ,2002, P 42

يعمد الرماني إلى إستراتيجية المقارنة حتى يوضح مفهوم الإيجاز و يجلي مزيته الإبلاغية، و تقوم مقارنته على عدة أوجه تتوافق إلى حد بعيد مع مبادئ نظرية التعاون. حيث:

طرفي المقارنة: **ط1** = "ولكم في القصاص حياة"، **ط2** = القتل أنفي للقتل.

الصفات المشتركة بين **ط1** و **ط2** : كلاهما إيجاز، كلاهما مستحسن لدى المتلقين.

لكن **ط1** أبلغ من **ط2**.من عدة أوجه، يمكن أن نسميها مبادئ، وهي:

1. **مبدأ الدلالة:** يسميه الرماني الفائدة، حيث أن ط1 يفيد مجموعة من الدلالات بينما ط2 لا يفيد إلا دلالة واحدة؛ فكلما كانت دلالات تركيب الإيجاز أكثر كان أبلغ.

دلالات ط1	**دلالات ط2 المقابلة لدلالات ط1**
يدل على أن عقاب القاتل بالقتل يمنع المزيد من القتل	يدل على أن عقاب القاتل بالقتل يمنع المزيد من القتل
يدل على إبانة العدل لذكر القصاص	يدل على⊗
يدل على إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة	يدل على ⊗
يدل على منها الاستدعاء بالرغبة و الرهبة لحكم الله به	يدل على ⊗

2. **مبدأ الكم:** يوضح الرماني أن مبدأ الكمية يتناسب عكسيا مع مبدأ الدلالة، فكلما كان الكم أقل كان الخطاب أبلغ، و يظهر ذلك في قوله: **((و أما الإيجاز في العبارة فإن الذي هو نظير – القتل أنفي للقتل – قوله "القصاص حياة"، و الأول أربعة عشر حرفا، و الثاني عشرة أحرف.))**.

3. **مبدأ السهولة:** و يقصد به أن يراعي المتكلم أسهل التراكيب و أوضحها فيوظفها في إبلاغ مقاصده،

بحيث تنتفي عنها المشقة خاصة في جانبها التلفظي **((و أما بعده عن الكلفة بالتكرير الذي فيه على**

النفس مشقة فإن في قولهم: القتل أنفى للقتل تكريرا غيره أبلغ)).

4. مبدأ التركيب و التلاؤم: وهو أن يراعي المتكلم توظيف الحروف و الكلمات المتلائمة مع بعضها البعض و التي تحقق أثرا أخف و أجمل في أذن المتلقي؛ **((و أما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرَك بالحس و موجود في اللفظ. فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام، و كذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام)).**

اعتماد الإيجاز بهذه الشروط التي يحددها الرماني تجعل "الكلام في الظاهر متكونا من جملة واحدة فهو اعتمادا على الحمل على المعنى يتكون من جملتين"[532] يفهم من خلال توفر مبدأ الدلالة، و لا يمكن فهم الدلالات "إلا بحضور طرفي الخطاب المتكلم و المخاطَب؛ فالمتكلم يشحن كلامه بما هجس في نفسه من معان قبل إنجاز الكلام و يتدخل في مضمون الجملة"[533]؛ ثم ومن خلال معرفة مواضع الإيجاز من طرف المتلقي و بتضافر السياق؛ يتمكن من تفكيك الخطاب و استخراج دلالاته وبالتالي مقاصد المتكلم.فهذه الإستراتيجية الخطابية تقوم على "شدة توتر العلاقة بين المتكلم و المخاطب ينتج عنها في مستوى الإنجاز اختزال للفظ و إضمار له و كأن في دلالة الإضمار قوة تزجية لا تبلغها دلالة الإظهار"[534]

و الحاصل ان آلية الايجاز حسب الرماني تقوم على تقليص المتكلم خطابه من الناحية الكمية و شحنه من الناحية الدلالية، وعلى المتلقي أن يحلل هذا الخطاب إنطلاقا من السياق و من المرجعية اللغوية و الواقعية المشتركة بينهما.

تداولية الاستعارة عند الرماني:

((الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة. و الفرق بين الاستعارة و التشبيه أن – ما كان من التشبيه – بأداة التشبيه في الكلام

(532) وئام الحيزم، تأويل اللفظ والحمل على المعنى، الجامعة التونسية، كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية، 2009، ص272.

(533) م. نفسه، ص272.

(534) ميلاد خالد، الإنشاء في العربية بين التركيب و الدلالة، دراسة نحوية تداولية، كلية الآداب منوبة و المؤسسة العربية للتوزيع،تونس، 2001، ص186.

فهو على أصله، لم يغير في الاستعمال، و ليس كذلك الاستعارة، لأن مخرج الاستعارة مخرج ما العبارة ليست له في أصل اللغة))[535].

من هذا التعريف يتضح ان الاستعارة عند الرماني تقوم على:

- الدلالة غير المباشرة على مقصدية المتكلم.
- النقل التوظيفي للفظ، حيث يوظف الدال ليحيل على غير مدلوله الأصلي في وضع اللغة.
- الإبانة؛ فالغرض من النقل التوظيفي للفظ هو الإبانة و توضيح الدلالات و ملابساتها بصورة أفضل.

و يشير إلى أن الاستعارة كنمط من أنماط الصورة البلاغية، لها علاقة وطيدة بالتشبيه، حيث يعد التشبيه أحد أركان بنيتها الأساسية، الذي يبرر وجوده الانتقال من المدلول الأول **(المعنى الحرفي)** إلى المدلول الثاني للفظ المستعار أو **(المعنى غير المباشر)**.

و يظهر من توظيف الرماني للاستعارة خاصيتين اثنين[536]:

الخاصية الأولى: تفطنه الى الأبعاد الإيحائية للاستعارة، و قد تم ذلك بمقارنتها – من جهة التأثير – مع الاستعمال الحرفي للعبارات، و هو أمر نحسبه يدخل ضمن إطار الأسس التداولية في صنع الخطاب، بحكم انه تنبيه إلى امر جوهري تحمله تضمينات الاستعارة، و المتجسدة بشكل عام في المعاني الثانوية ذات الظلال التأثيرية على المتلقين، و هو ما نجده مطروحا في ثنايا تنظيرات البحث التداولي المعاصر و بالضبط عند العلماء و الباحثين التداوليين الذين تصب أعمالهم في دراسة آليات التفاعل الشفوي مثل الباحثة (أوركيوني) التي تنظر إلى المجازات اللفظية مثل الاستعارة و السخرية على أنها آليات تحمل في صلب مكوناتها قيم تداولية مثل التضمينات.

الخاصية الثانية: لعل تفضيل الرماني للاستعارة على حساب اللفظ الأصلي راجع على مايبدو إلى إدراكه العميق أن المسار غير المباشر في عملية التلفظ الذي ينتج من استعمال الاستعارة؛

---

(535) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص85–86.

(536) احمد واضح، الخطاب التداولي في التراث البلاغي العربي، ص192 ومابعدها.

إنما يجعل اللغة تتخلص من معانيها السابقة و تنتقل إلى معان جديدة لم تكن شائعة و متداولة بين الناس من قبل، وهو السبب الراجح لتأثر المتلقي بها، مما يفضي به غالب الأحيان إلى الإقتناع، على عكس استعمال الألفاظ على نحو ما يقتضيه الأصل؛ فإذا كان انتقاء الاستعارة و توظيفها يجعل المتلقي يعيش نوعا من الاشتياق و الحنين إلى المعنى و الوصول إلى فك شفرات الاستعارة، مما يؤدي به إلى إعمال ذهنه و القيام بعمليات استدلالية للوصول إلى ذلك الغرض، الذي يجعله يفتح أفق التأويل و القراءة (وهو ما يصب في بوتقة التأثير)؛ فإن توظيف الألفاظ و الصياغات الأصلية المباشرة ينفي مثل هذه العمليات؛ مما يؤدي إلى الاستيعاب المباشر الخالي من التأثير في معظم الأحيان.

و يواصل الرماني شرح الاستعارة فيقول: **((و كل استعارة فلابد فيها من أشياء: مستعارة و مستعار له، و مستعار منه. فاللفظ المستعار قد نقل عن أصل إلى فرع للبيان. و كل استعارة بليغة فهي جمعٌ بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر... و كل استعارة حسنة فهي توجب بيان لا تنوب منابه الحقيقة، و ذللك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة، كانت اولى به، و لم تَجُز الاستعارة. و كل استعارة فلابد لها من حقيقة، و هي أصل الدلالة على المعنى في اللغة ... كقوله تعالى:"و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً"[537]. حقيقة قدمنا هنا عمدْنا، وقدِمنا أبلغ منه لأنه يدل على انه عاملهم معاملة القادم من السفر، لأنه عاملهم من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم، ثم قدِم فرآهم على خلاف ما أمرهم. وفي هذا تحذير من الاغترار بلإمهال، و المعنى الذي يجمعهما العدل، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل، و القدوم أبلغ لما بيَّنا. و أما هباء منثوراً فبيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة))**[538].

إذا تأملنا هذا التأصيل الذي يضعه الرماني للاستعارة نلاحظ ذلك التوافق مع ما يذهب إليه سيرل في مقاربته لمفهوم الاستعارة و علاقة المعنى الأصلي لمفردات اللغة بالمعنى

---

(537) سورة الفرقان، الآية 23.

(538) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص86-87.

المجازي لها ضمن التعبير الاستعاري؛ فنجد "سيرل لا يؤمن بازدواجية المعنى في العبارة، والجملة بحسبه لا تتضمن سوى معنى واحد وهو المعنى الحرفي، أما المعنى الاستعاري فهو مرتبط بالّتلفظ أي بقصد المتكلم فالاستعارة في تصور سيرل لا ترتبط بمعنى الجملة بل ترتبط بمعنى المتكلم .إن الطّبيعة الاستعارية لملفوظ ما تعود إلى قصدية المؤلّف واختياره، وليس إلى أسباب داخلية للبنية الموسوعية[539].حيث يفرق سيرل بين المعنى الحرفي والمعنى الاستعاري بمصطلحين هما: [540]

- speaker meaning وهو معنى المتكلم
- sentence meaning وهو معنى الجملة

وربط بين هذين المعنيين بقاعدة مفادها: إذا تحّقق الّتطابق بين معنى الجملة والمعنى الذي يقصده المتكلم نكون أمام المنطوق الحرفي، أما في حالة عدم التّطابق بينهما فإنّنا سنكون إزاء المنطوق الاستعاري الذي يقسمه سيرل إلى ثلاثة أنواع هي كالآتي[541]:

1. **المنطوق الاستعاري البسيط**، وفيه تقوم الاستعارة على الاستبدال المحدد لكلمة بكلمة أخرى، أي كلمة ملفوظة بأخرى مضمرة وتمثّل المقصود المجازي، أو قصد المتكلم.نجد هذا النوع يتوافق مع العديد من الأمثلة التي يوردها الرماني و يوضح فيها أن المعنى الاستعارة قام على تغيُّر معنى أصلي للفظة بمعنى مجازي يقصده المتكلم، ومن أمثلته على هذا قوله: ((و كل استعارة فلابد لها من حقيقة و هي أصل الدلالة على المعنى في اللغة، كقول امرئ القيس في صفة فرسه: "قيد الأوابد" و الحقيقة فيه مانع للأوابد؛ و قيد الأوابد أبلغ و أحسن، و كقوله: ميزان القياس، حقيقته تعديل القياس، و الاستعارة فيه

(539) أمبرتو إيكو، التّأويل بين السيميائيات والتّفكيكية، ترجمة :سعيد بن كراد .المركز الثقافي العربي، الرباط، ط 1، 2000 ، ص 159.

(540) Jean searle, sens et expression, les éditions de minuit , paris,1979, p.122 ,

(541) عيد بلبع، الرؤية التّداولية للاستعارة، مقالة في مجلة علامات، العدد23 ، مكناس، المغرب،2005، ص99– 100.

أبلغ و أحسن، فكل استعارة لا بد لها من حقيقة))[542]. حيث ان مصطلح الحقيقة = المعنى الحرفي للفظ، و مصطلح الاستعارة = المعنى الاستعاري.

فالرماني يوافق (سيرل) في ضرورة توفر المعنى الحرفي لجملة الاستعارة، ثم تتعدى إلى معنى استعاري يمثل قصد المتكلم. و مما يلاحظ ان هذا النوع من الاستعارة يلتصق عند الرماني بالخطاب البشري الذي هو دون الخطاب القرآني في المستوى البلاغي حسب تقسيمات الرماني.

2. **المنطوق الاستعاري غير المحدد**، وهو يتّسم باتّساع مجال المعاني التي يحتملها المنطوق الاستعاري، إذ لا يتحدد المضمر هنا في كلمة واحدة بل يتشعب بين عدة دلالات مجازية يحتملها البعد المجازي الاستعاري. هذا النوع من الاستعارة نجد الرماني ينوه به و يمدح بلاغته و يورد عنه الأمثلة من الخطاب القرآني الذي هو أعلى طبقات البلاغة عند الرماني ومنها:**كقوله تعالى:"و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً"**[543].

التركيب الاستعاري	المعنى الحرفي	الدلالات المجازية التي يحملها
و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً	قدمنا = عمدْنا	1. عاملهم معاملة القادم من السفر 2. إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم 3. تحذير من الاغترار بالإمهال 4. معنى العدل 5. أخرج ما لا تقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة

و من أمثلته على هذا النوع ((**قوله تعالى:"سمعوا لها شهيقا و هي تفورُ تكاد تمَيَّزُ من الغيظِ"**[544]، شهيقا حقيقته صوتا فظيعا كشهيق الباكي، و الاستعارة أبلغ منه و أوجز، و المعنى

(542) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص86.

(543) سورة الفرقان، الآية 23.

(544) سورة الملك، الآية 08.

الجامع بينهما قبح الصوت. "تَميَّزُ من الغيظ" حقيقته من شدة الغليان بالاتقاد، و الاستعارة أبلغ منه، لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس، مدرك مدى ما يدعو إليه من شدة الانتقام، فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل، و في ذاك أعظم الزجر و أكبر الوعظ، و أدل دليل على سعة القدرة و موقع الحكمة.))[545]

التركيب الاستعاري	المعنى الحرفي	الدلالات المجازية التي يحملها
سمعوا لها شهيقا و هي تفورُ تكاد تمَيَّزُ من الغيظِ	• **شهيقا** حقيقته صوتا فظيعا • **تَميَّزُ من الغيظ** حقيقته من شدة الغليان بالاتقاد	1. قبح الصوت 2. مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس 3. شدة الانتقام 4. الزجر و الوعظ 5. سعة القدرة و موقع الحكمة

3. **الاستعارة الميتة**، وفيها يهمل المعنى الأصلي للملفوظ، ليكون المعنى المجازي الاستعاري هو الملفوظ. فهي التي استخدمها الناس لفترة طويلة من الزمن بحيث أصبحت شائعة، مما أدى إلى أننا لا نشعر فيها بالفرق بين الموضوع و الصورة؛ أي أنه من غير المتوقع أن يشعر الكاتب أو القارئ بوجود أي صورة استعارية لأن هذه الصورة قد اختفت نتيجة الاستخدام المتكرر[546].و هذا النوع من الاستعارة لم يذكره الرماني وربما هذا يرجع إلى انه يصنفها ضمن الكلام الذي أصبح في حكم الوضع الأصلي للألفاظ.

لم تقتصر الأبعاد التداولية في خطابات الرماني في رسالته (النكت في إعجاز القرآن) بل تظهر هذه الأبعاد أيضا في كتابه (معاني الحروف)[547].و قد وظف الرماني في كتابه منهجيه تتلاءم مع المادة التي حاول دراستها وهي الحروف ومعانيها فقد قسم الحروف حسب العدد؛ فكانت حروف أحادية و ثنائية و ثلاثية و رباعية. وعند التمعن في آلية دراسة كل حرف نجد

(545)أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص87.

(546)عيد بلبع، الرؤية التّداولية للاستعارة، ص100.

(547) الرماني، معاني الحروف، عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2005.

أنه يبتدئ بتعريفه و بيان عمله إذا كان عاملا، و مواضع دخوله و استعمالاته و وظائفه مستندا الى أقوال النحاة.

فالرماني قد اختار منهجية تستوعب مادته التي رام دراستها و هي معاني الحروف و بوبها وفق رؤية توافقية يكمل أحدها الآخر، حيث نجد يعقد موازنات بين كل حرفين تربطهما علاقة الشكل أو العمل أو الوظيفة، و من ثَمَّ حاول استقراء كل ما يتعلق بالحروف و معانيها.تتوافق إلى حد كبير مع ما توصل إليه نظريات اللسانيات الوظيفية والدرس التداولي المعاصر.كما اعتمد في تمييزه بين الوظائف المختلفة لكل حرف على نظرية مقصدية واضحة تراعي غرض و قصد المتكلم أثناء استعمال الحرف بما يوجه معناه وجهة محددة.

فهذا الجهد الذي بذله الرماني يستحق منا دراسة مستقلة متأنية تتبع الأبعاد التداولية في هذا الخطاب المتميز الذي أنتجه.

المبحث الثاني

قراءة لسانية تداولية في صحيفة بشر بن المعتمر

قراءة لسانية تداولية في صحيفة بشر بن المعتمر

بشر بن المعتمر (ت 210هـ)، أحد أكبر أعلام المعتزلة "كوفي، و يقال بغدادي. يكنى أبا سهل. و قد انتهت اليه رياستهم في بغداد. و كان من بلغائهم و فصحائهم المشهورين، كما كان شاعرا مجيدا، و لكن شعره تغلب عليه النزعة التعليمية؛ و إضافة إلى ذلك كان راوية للشعر شأنه في ذلك شأن المعتزلة جميعا. قال الجاحظ:"و ورث المعتزلة كلهم رواية عامة الأشعار و كان بشر أرواهم للشعر خاصة"، و قد بقي لنا من آراء بشر البلاغية و النقدية صحيفته المشهورة؛ التي يبدو أن طبيعة البيئة التعليمية في القرنين الثاني و الثالث هي التي كانت وراء كتابتها، فقد أصبح الاهتمام بالبلاغة و الخطابة، و تعلم أصول فنون القول و فن الكلام كبيرا."[548]

(548)وليد قصاب، التراث النقدي و البلاغي للمعتزلة، دار الثقافة، الدوحة، قطر،37– 38.

و قد أورد الجاحظ نص الصحيفة فقال:[549] **((مرَّ بشر بنُ المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مَخْرَمة السَّكونيّ الخطيبِ، وهو يعلِّم فتيانهم الخَطابة، فوقف بِشرٌ فظنّ إبراهيمُ أنّه إنّما وقَفَ ليستفيد أو ليكونَ رجلاً من النَّظّارة))**

الجاحظ يضع المتلقي ضمن السياقات المختلفة لورود نص هذه الصحيفة؛ لأن هذه السياقات تلعب دورا حيويا و محوريا في فهم الخطاب و إدراك أبعاده و خلفياته المتداخلة.

- **سياق الشخوص:** إبراهيم بن جبلة، بشر بن المعتمر، الفتيان.
- **السياق المكاني:** مكان مخصص للتعليم يتميز بانفتاحه لكل مريد للعلم.
- **سياق معرفي:** إبراهيم و الفتيان يمارسون نشاط معرفي تعلمي.
- **سياق نفسي:** إبراهيم ظن أن بشرا وقف من أجل أن يتعلم أو ليشاهد.

كما وظف الجاحظ بعض المكوّنات اللسانية التي تحمل دلالات خاصة ضمن هذه السياقات؛ وهي:

- **الخطيبِ:** تحمل دلالة مفادها أن إبراهيم كان ذو مكانة علمية رفيعة ومرموقة في وسطه الاجتماعي عامة (و الدليل أنهم أسلموه فتيانهم ليعلمهم) و في الوسط العلمي المتخصص و إلا لما بلغ مرتبة الخطيب. فغاية "الخطيب من ذلك هو الوصول بالمستمعين إلى درجة التعميم على العمل، وحفز أولئك الذين يدركون ما تناوله في خطابه من مبادئ على التقدم في ميزان العمل، وبفضل الخطيب تتحول الأفكار إلى إحساسات ثم تتحول هذه الإحساسات إلى إرادة و تعميم"[550].
- **الخَطابة:** تحمل دلالة المعرفة المتخصصة في فرع محدد من العلوم، أي أنه لم يكن

---

(549) الجاحظ، البيان و التبيين، ج1/ص135 و مابعدها.

(550) محمد جواد علي، عقلان ع الهادي رشيد، صحيفة بشر بن المعتمر(دراسة تحليلية)، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد19، العدد12، كانون الأول 2012، ص145.

يتكلم كلاما عاما بل كلاما أكاديميا."فالخطابة تكاد تكون الوسيلة الوحيدة لبث الأفكار والدعوات لأن الكتابة لم تكن متيسرة آنذاك"[551].

- **مرَّ:** يوحي لنا الجاحظ بتوظيفه لهذا المكوّن؛ أن هذا الاجتماع بين شخوص الحدث كان مصادفة و لم يخطط له مسبقا.

((**فقال بِشر: اضربُوا عمّا قالَ صَفْحاً واطوُوا عنه كَشْحاً، ثمّ دَفَع إليهم صحيفةً من تحبيره وتنميقه**)). يتدخل بشر ليكون فاعلا و متفاعلا مع سياقات الحدث؛ و يبدأ انخراطه بفعلين توجيهيين بما يحملانه من قوة إنجازية (**اضربُوا،اطوُوا**).فبشر يوظف الفعل التوجيهي الذي يصدر عن إضمار حالة قصدية للمتكلم تدفعه إلى جعل المتلقي يقوم بشيء ما، سواء كان الشيء المراد قولا أو تصرفا؛ و الحالة النفسية الموافقة لهذه الأفعال تتمثل في رغبة أو رجاء أو إرادة المتكلم أن يقوم المتلقي بشيء. ويدخل فعل الأمر كما وظفه بشر ضمن هذا النوع من الأفعال اللغوية.فبشر هنا كان واضحا و صريحا في توجيهاته بتوظيفه لمبدأ "قابلية الإبانة" من خلال أفعال إنجازيه مباشر و حرفية؛ فمن الملاحظات المهمة "لدى أصحاب نظرية الأفعال الكلامية في الأفعال الإنجازية الحرفية مبدأ (قابلية الإبانة) الذي اقترحه سيرل، و مفاده أن جميع الحالات الذهنية تقبل الإبانة و التعبير عنها بصراحة و حرفية بواسطة جملة، أي لا توجد حالة ذهنية لا يمكن أن تكون موضوع تعبير صريح"[552].

من خلال مراقبتنا لهذه المكونات اللسانية التي وظفها بشر ثم مُفَاعَلتها مع السياقات المختلفة لهذا الحدث؛ يمكن أن نخرج بالنتائج التالية:

- أن بشر قد استمع جيدا لما كان يلقنه إبراهيم لتلاميذه و فهمه ثم توصل إلى الحكم عليه.

---

(551) إيليا حاوي، فن الخطابة و تطوره عند العرب، دار الثقافي، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص68.

(552) عبد الله حسن طودي، التركيب الخبري أنماطه و وظائفه بين البلاغة العربية و اللسانيات التداولية، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، السعودية، 2007،ص167.

- بشر حكم على ما سمع بأنه فاسد و مخالف للصواب و لا يستحق من التلاميذ أن يضيعوا الجهد و الوقت في تعلمه و حفظه.
- تقديم بشر صحيفته الجاهزة يدل على أن هذه الصحيفة وليدة جهد و تفكير أجراه بشر و دفعه إليه واقع الحياة العلمية آنذاك و متطلباتها. كما أنه قد حرص على إتقان عمله لإخراجه في أحسن صورة و يدل على ذلك المكونات اللسانية **(تحبيره وتنميقه)**.
- فبشر استمع و فهم ثم أصدر حكما حاول فرضه بوسلتين هما:

1. **وسيلة الأولى** وهي لغوية من خلال الأفعال اللغوية الانجازية المباشر المتمثلة في فعلي الأمر **(اضربُوا،اطوُوا)**؛ فالأمر هو "طلب الفعل بصيغة مخصوصة و له و لصيغته أسماء بحسب إضافاته؛ فإن كان من الأعلى إلى من دونه قيل له أمر، و إن كان من النظير قيل له طلب، و إن كان من الأدنى إلى الأعلى قيل له دعاء"(553). و هذا يعني أن الطلب "يسمى **أمرا** إذا صاحَبَه استعلاء المتكلم على المخاطب، و يكون **دعاءً** أو **سؤالاً** إذا خضع المتكلم للمخاطب، و يسمى **التماسا** إذا تساوى المتكلم مع المخاطب. فـــ"منزلة" المتكلم مقارنة بـــ"منزلة" المخاطَب هي التي تصبغ "الطلب" بصبغة خاصة و يؤدي بها اللفظ غرضا خطابيا خاصا و وظيفة تواصلية معينة"(554). فماهي الصبغة التي صُبِغ بها أفعال بشر؟ما يمكن أن نفهمه من اختيار بشر لأفعال تحمل قوة انجازية كبيرة وتدعو التلاميذ إلى محو كل ما سمعوه من إبراهيم و نسيانه و خلق قطيعة معه؛ كل هذه الدلالات توحي أن بشرا قد أعطى لنفسه منزلة استعلائية تخول له الأمر لا الالتماس و الدعاء. و يؤيد هذه المنزلة بالوسيلة الثانية التي وظفها لفرض الحكم الذي أصدره.

---

(553) ابن يعيش موفق الدين، شرح المفصل للزمخشري، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ج4/ص289.

(554) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص106.

2. **الوسيلة الثانية** تتمثل في البديل العلمي الذي يقدمه للتلاميذ و هي صحيفته؛ التي تشتمل على مادة علمية أفضل و أحسن مما يلقنهم إبراهيم. فهو يفترض أنها بما تحتويه ستبين صواب الحكم الذي أصدره.و يدعو المتلقي إلى الاطلاع عليها و مقصدية بشر من هذا هي أن يشاركه في حكمه و يقتنع بإتباع الأصول و القواعد المبثوثة في صحيفته.

إذن فبشر قد تدرج في وفق سلما حجاجيا حتى وصل إلى حكمه و تضافر على ذلك عدة حجج لغوية و غير لغوية.

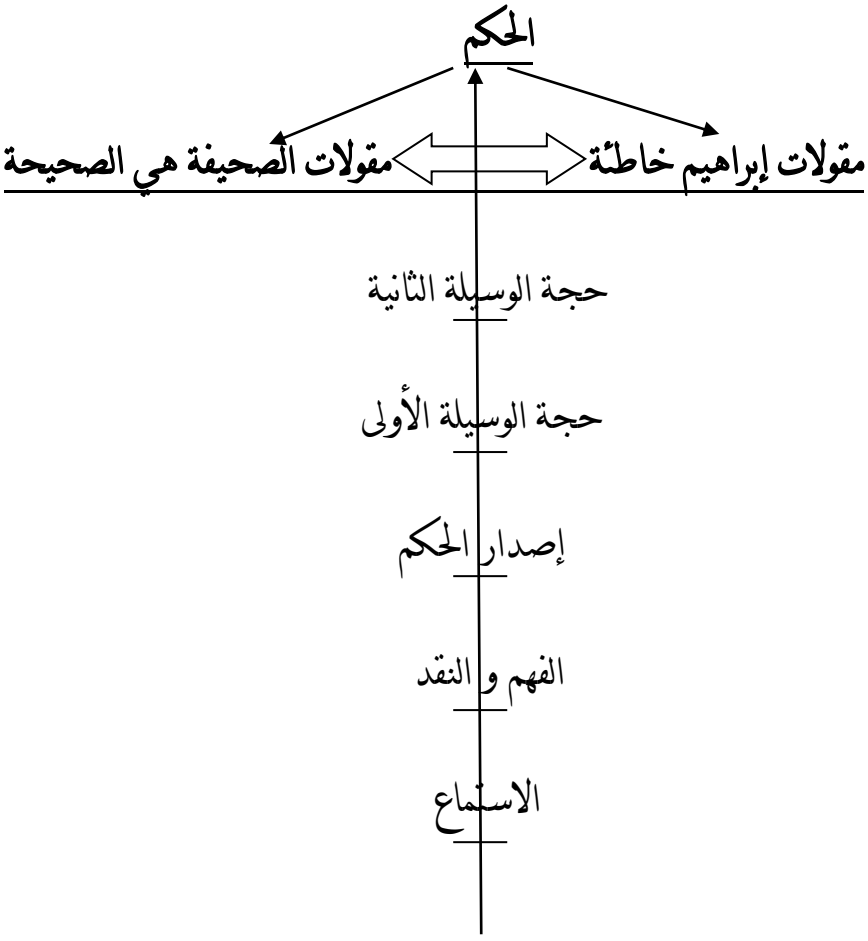

((وكان أوّل ذلك الكلام: خُذْ من نفسِك ساعةَ نشاطِك وفراغِ بالك وإجابتِها إياك، فإنّ قليل تلك الساعةِ أكرَمُ جوهراً، وأشرَفُ حسَباً، وأحسن في الأسماع، وأحلَى في الصدور، وأسلَمُ من فاحش الخَطَاءِ، وأجْلَبُ لكلِّ عين وغُرّةٍ، مِن لفظٍ شريف ومعنىً بديع، واعلَمْ أنّ ذلك أجدى عليك ممَّا يُعطيك يومُك الأطولُ، بالكدِّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلُّف والمعاودة، ومهما

أخطأَك لم يُخطئْك أن يكون مقبولاً قَصْداً، وخفيفاً على اللِّسان سهلاً؛ وكما خرج من يَنبوعه ونَجَم من مَعْدِنه)). ويتضح لنا من عبارة بشر بن المعتمر أن الخطيب عليه أن يتهيأ و أن يكون له رأي سديد في الموضوع الذي يخطب فيه، و أن سداد الرأي الدعامة الأولى للخطبة؛ لكي يثق الجمهور بفكره و يتجه إلى رأيه... و يفهم من كلام بشر في بداية صحيفته أنه لا يؤمن بالإلهام المفاجيء في إنتاج النصوص الأدبية المتميزة، و هو إيمان يشترك فيه النقاد العرب جميعهم دون استثناء، وهو عنصر قد حدد نظرية العرب في الخلق الفني. ولكن بشر ذكر بعض ما يثير القرائح و يدفع الطبائع لكي تسمح بمكنوناتها؛ و حدد أوقاتا يسمح فيها القول و تجود القريحة، فليس الأديب أو الفنان بقادر على الإبداع في كل لحظة، و لا يؤاتيه القول في كل زمن.(555)

بشر يضع الوقت المناسب لإنتاج النصوص لكنه وقت يرتبط بنفسية المنتج؛فيحدد ذلك بثلاثة محددات هي: **(نشاطِك، وفراغِ بالك، وإجابتِها إياك)**؛ فالاستعداد لإنتاج نص ناجح يرتبط بلحظة زمنية تتوافر فيها شروط جسدية، و ذهنية، و نفسية عاطفية.كما يمثل المخطط التالي:

(555)محمد جواد علي، عقلان ع الهادي رشيد، صحيفة بشر بن المعتمر(دراسة تحليلية)، ص148.

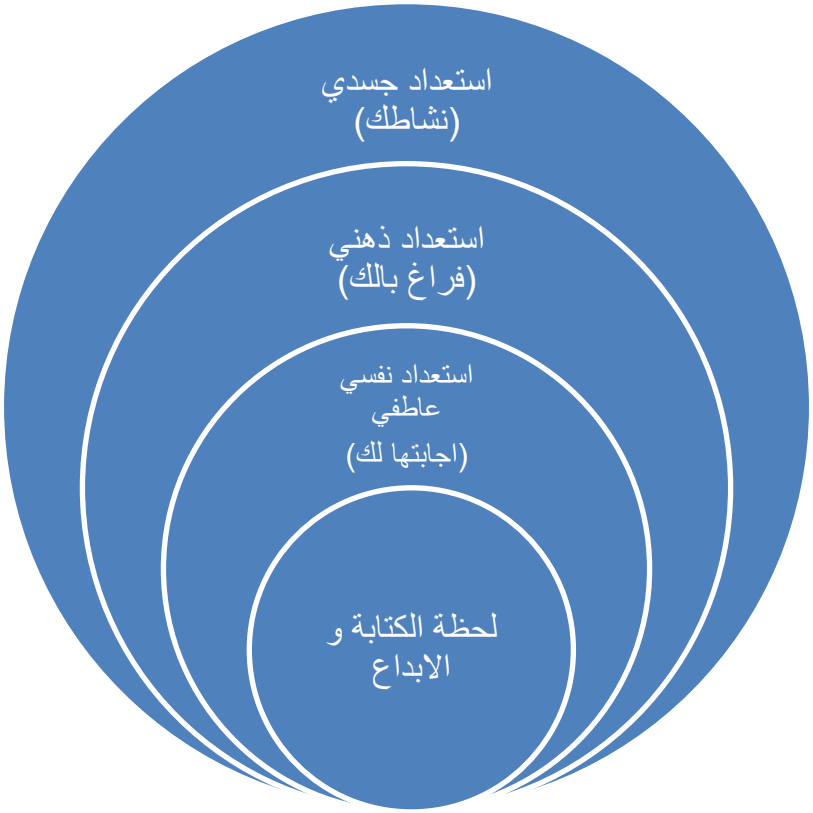

بشر يستعين مرة أخرى بالقوة الانجازية التي يولدها فعل الأمر؛ حيث وظف **(خُذْ، اعلَمْ)** لإقناع المتلقي بتبني قواعده التي تضبط عملية إنتاج النصوص، لكن الملاحظ أن لكل فعل منهما دلالات يفرضها السياق.

- **خُذْ:** من السياق يتضح أن دلالة الفعل **خُذْ** تنحرف من المعنى المعجمي للأخذ إلى معنى الاختيار؛ حيث يطلب من منتج النصوص أن يختار اللحظة المناسبة للإبداع التي سيوضح له بشر شروطها و محدداتها.
- **اعلَمْ:** فهو يوظف قوّة تأثيرية بالقول من خلال الرابط (اعلم)؛ تجعل القول يتخطّى عتبة الإخبار و الإبلاغ إلى الحجاج حيث يقصد بشر تغيير سلوك منتج النصوص و نظرته إلى القواعد و الأصول التي ينبغي أن يمارس من خلالها عمله الإبداعي.

كما استعان بشر في هذا المقطع بصيغة التفضيل بما تحمله من أبعاد تداولية: ((**أكرَمُ** جوهراً، و**أشرَفُ** حسَباً، و**أحسن** في الأسماع، و**أحلَى** في الصدور، و**أسلَمُ** من فاحش الخَطَاءِ،

و**أجْلَبُ** لكلِّ عين وغُرّةٍ، مِن لفظٍ شريف ومعنىً بديع، واعلَمْ أنّ ذلك **أجدى** عليك ممَّا يُعطيك يومُك الأطولُ)).

فصيغة التفضيل توافق "التناسب و التدرج و الأفضلية"[556] التي يقيمها بشر بين مستويات التعبير البلاغي، و يقيم علاقات حجاجية بين طرفين من خلال مجموعة متعددة من النسب التفاضلية كالتالي:

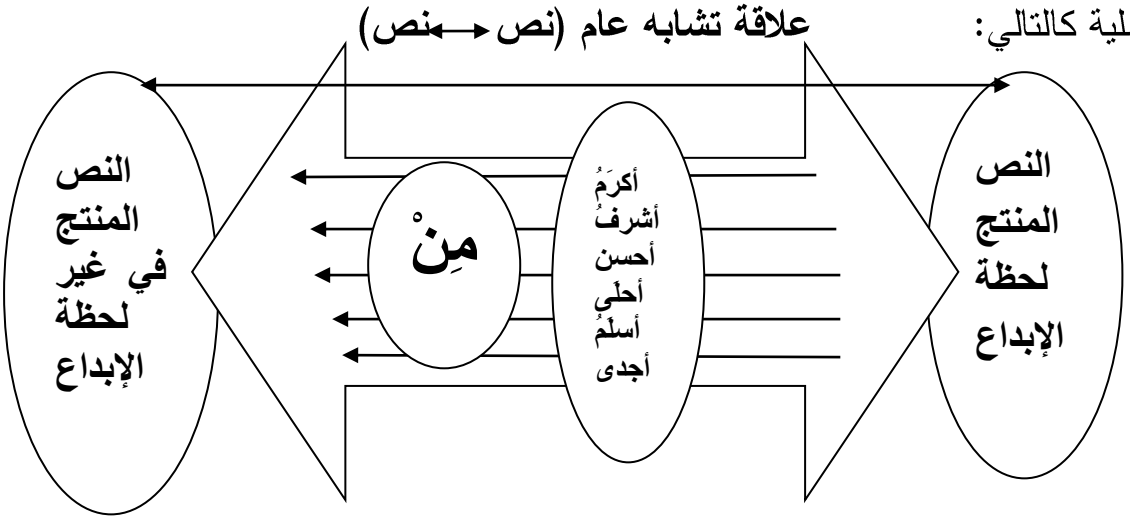

و وفقا لصيغة التفضيل تنتج لنا بعض القواعد الحجاجية هي[557]:

- **القاعدة الأولى:** إذا كانت **ب** أفعل من **ج** في شيء ما، فيجوز أن نستدل على **ب** بنقيض ما نستدل به على **ج** و العكس بالعكس.
- **القاعدة الثانية:** إذا كانت **ب** أفعل من **ج** في شيء، فيجوز أن نستدل على أن **ب** أفعل من **ج** في شيء آخر.

فبشر يقيم حجاج تفاعلي مبني على مبدأ التقابل بحيث يستدعي كل معنى و كل علاقة و كل مثال ما يقابله، و على أساس هذا التفاعل الحجاجي يحاول إقناع المتلقي بصحة قواعده و أصوله التي وضعها لإنتاج النص الأدبي الناجح؛ و مثال ذلك ما يوضحه الجدول التالي؛ حيث و بتطبيق القاعدة الأولى الحجاجية

(556) طه عبد الرحمان، التكوثر العقلي، ص399.

(557) م. نفسه، ص399.

نستنتج أن كل **حكم** يورده بشر عن **النص في لحظة الكتابة** المناسبة يقابله حكم نقيض له للنص في **غير لحظة الكتابة.**

حكم النص في لحظة الكتابة	حكم النص في غير لحظة الكتابة.
1. **أكرَمُ** جوهراً	1. **خسيس** الجوهر
2. و**أشرَفُ** حسَباً	2. **وضيع** الحسب
3. و**أحسن** في الأسماع	3. **قبيح** في الأسماع
4. و**أحلَى** في الصدور	4. **مُرٌّ** في الصدور
5. و**أسلَمُ** من فاحش الخَطَاءِ	5. **متلبس** بفاحش الخطاء
6. و**أجْلَبُ** لكلِّ عين وغُرّةٍ	6. **مُنفِّرٌ و مبعد** لكل عين و غرة
7. **أجدى** عليك ممَّا يُعطيك يومُك الأطولُ	7. **عديم الجدوى و المنفعة**.

و يمكن تطبيق القاعدة الثانية كمايلي:

إذا كان النص المنتج في لحظة الكتابة (**أكرَمُ** جوهراً، و**أشرَفُ** حسَباً، و**أحسن** في الأسماع) من النص المنتج في غير لحظة الكتابة؛ فهذا يعني أنه أبلغ منه و أكثر بيانا منه و أقدر على الإخبار و الإقناع و التواصل منه؛ و بالتالي فالقواعد التي أنتج بناءً عليها أصوب و أدق من غيرها.

يواصل بشر تأصيله فيقول: ((**وإياك والتوعُّرَ، فإنّ التوعُّر يُسلمِكُ إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلكُ معانَيكَ، ويَشين ألفاظك**)).

فقد أدرك بشر وجهي عملة العلامة اللغوية من دال ومدلول . ولم يقف عند الوجه الأول الخاص بالدال

حيث اللغة وتشكلها وتجليها واحترامها للنظام الذي يجعلها في متناول القارئ ، ولكن ذهب إلى الطرف الآخر والمتمثل في المدلول .حيث يؤكد على أن إهماله يؤدي إلى الغموض والتعقيد

، ويكون بذلك الخطاب معيقا على التواصل[558]. ومن هذا المنطلق راح ينصح منتج الخطاب محذرا إياه بقوله: **وإياك والتوعُّرَ**.

فلفظة **التوعر** تحيل إلى دلالاتها المعجمية المرتبطة بركوب الوعر و الصعب من الأماكن و ما يصاحب ذلك من مشقة و إرهاق، و ما يقع في النفس من خوف و فزع. و هذه الدلالة المعجمية ينقلها بشر إلى دلالات ترتبط بإنتاج النص؛ فالتوعر هنا يؤدي إلى التعقيد لأنه يقتضي توظيف الغريب و الشاذ و المهجور من الكلام؛ الذي لا يلتقي بمدلولاته في ذهن المتلقي؛ و بالتالي فهو بعيد عن كل مقاصد التواصل اللغوي التي يفترض أن يحققها النص و أولها الإبلاغ.

فالتوعر عند بشر هو هجوم مباشر على شروط إنتاج النص الناجح؛ فهو يفسد الاستعداد الجسدي من خلال التعب و الإرهاق. و يفسد الاستعداد الذهني و النفسي من خلال القلق والخوف.

فبشر يدعو إلى اجتناب التوعر؛ و لإيصال مقصده هذا و توضيح خطورته يوظف أسلوب التحذير، الذي "عرفوه بأنه تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليتجنبه، فيقوم هذا الفعل على أساس التنبيه و الأمر بالاجتناب أو الدعوة إلى الاجتناب؛ أي الدعوة إلى الترك، و تعتبر تلك هي الفائدة المرجوة منه"[559].فهو هنا و بغرض زيادة الإقناع يوظف أسلوبا يتضمن فعلين كلاميين متداخلين أحدهما التحذير و الآخر الوعيد؛ و بمصطلحات "سيرل يكون أحد الفعلين فعلا كلاميا مباشرا و هو التحذير، و الثاني فعلا كلاميا غير مباشر وهو الوعيد"[560] فهذه الإستراتيجية في استثمار القوى الانجازية للأفعال الكلامية المباشرة و غير المباشرة في آنٍ واحد تجعل خطاب بشر أكثر تأثيرا و إقناعا.

---

(558) عمار حلاسة أحمد قيطون، جذور تحليل الخطاب في تراثنا النقدي والأدبي ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، منشور على شبكة الانترنت، ص16.

(559) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص112.

(560) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص112.

إضافة إلى الاستراتيجيات السابقة يوظف بشر الاستدلال الحجاجي لإقناع المتلقي بأفكاره، فيستخدم قاعدة (دوران المقدم مع التالي) التي يقول عنها طه عبد الرحمان "من المعلوم أن المقدم هو شرط كاف لحصول التالي... و قد يكون منشأ هذه القاعدة المبدأ الأصولي الكلامي الذي ينص على أن العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما؛ ...وأصل هذا القانون الحجاجي هو قاعدة تخاطبية مقتضاها أن المتكلم يخبر المخاطب بأقصى ما يمكن من الفائدة، فيصير هذا الأخير إلى حمل قوله على إفادة أن العلاقة بين المقدم و التالي علاقة شرط، طردا و عكسا معا، لا طردا فحسب، و هذه القاعدة هي التي تعرف بـــــ(قاعدة أو قانون الاستيعاب)"[561].فلفظة التعقيد تلعب دور المقدم الذي يؤدي وظيفة الدوران مع التوالي في قوله: ((فإنّ التوعُّر يُسلمِكُ إلى **التعقيد**، و**التعقيد** هو الذي يستهلكُ معانَيكَ، ويَشين ألفاظك)). فتقدير التركيب كمايلي:

1. التوعُّر يُسلمِكُ إلى **التعقيد** (التالي)
2. **التعقيد** هو الذي يستهلكُ معانَيكَ (المقدم)
3. **التعقيد** يَشين ألفاظك (المقدم)

يعتبر بشر أول من نوه إلى التعقيد، وحث على ضرورة تجنبه في الكلام على أساس انه ناجم عن التوعر الذي يسلم لا محالة إلى التعقيد، ويلاحظ منذ البداية هنا وجود ثنائية تعتور التعقيد الذي قد يكون لفظيا نتيجة تداخل الألفاظ وتراكبها أو معنويا من جراء غموض المعنى و إبهامه و استغلاقه على الأفهام.[562]

يقول بشر ((**ومن أَرَاغَ معنىً كريماً فليلتمِسْ له لفظاً كريماً؛ فإنّ حقّ المعنى الشريفِ اللفظُ الشّريف، ومن حقِّهما أن تصونهما عما يفسدُهما ويهجِّنُهمَا، وعمّا تعودُ من أجله أن**

(561)طه عبد الرحمان، التكوثر العقلي، ص397.

(562)محمد مهدي الشريف، معجم مصطلحات علم الشعر العربي ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط9، 2004م ص84.

تكونَ أسوأَ حالاً مِنك قبل أن تلتمس إظهارَهُما، وترتهِن نفسَك بملابستِهما وقضاءِ حقِّهما)). يدل كلام بشر هذا على أنه يساوي في المنزلة بين اللفظ و المعنى، و يحفظ لكل منهما حقه في وجوب العناية به؛ و الحكم على الأديب بالفنية بقدر ما يستطيع الإجادة فيهما معا[563].

هذا التوجه الذي يسلكه بشر "يعكس حقيقة معرفية مفادها أن الفعل الانجازي للحدث الكلامي على الرغم من تساوي مخرجه في الوجود الإنساني أثناء عملية التلفظ، إلا أننا نجد دليل التمايز في مقصدية اللفظ التي تؤهله أن يكون شريفا، بحكم أن طبيعة المعنى الشريف تقتضي من دليل التشاخص القائم بين المعنى المجرد في ذاتية الباث المتلفظ به في علاقته بالمتلقي، يحقق بحق الشحنة الدلالية لمعنى الشريف، ومن ثم يتحقق التواصل في بعده الشمولي الاستغراقي؛ على أساس أن مبدأ التقابل بين الفعل الانجازي لمعنى الشرف في علاقته بمبدأ التصور يسيران جنبا إلى جنب مع طبيعة المسار الوجودي و المعرفي مع واقع المتلقي[564].

يواصل بشر توظيفه لمكونات لسانية متميزة لتحقيق قصده، حيث نلاحظ التكرار في هذا المقطع؛ حيث اعتمد"الإتيان بالشيء مرة بعد أخرى"[565] و القصد من هذه الإعادة والترداد هو تأدية وظيفة التوكيد وتثبيت المعنى في ذهن المتلقي؛"فإذا أُعيد صدر الكلام اتضحت العلاقة بما يليه وينتمي إليه"[566]. فالتكرار هو الممثل للبنية العميقة التي تحكم حركة المعنى عن هذه الحقيقة إلا بتتبع المفردات في شكلها السطحي ثم ربطها بحركة المعنى. فالمتكلم يلجأ إلى التكرار لغاية جمالية وتأثيرية؛ كما أن المقام يقتضي التكرار عندما يكون المقام وعظيا، أو إرشاديًا، أو تعليميًا.

---

(563) بدوي طبانة، دراسات في النقد الأدبي العربي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1960، ص142.

(564) مختار لزعر، مسار الخطاب التواصلي عند بشر بن المعتمر،منشور على موقع مجلة انسانيات، الجزائر، برقم 2009/46.

(565)صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق:ج2/ص18.

(566)تمام حسان، البيان في روائع القرآن: طبعة خاصة أصدرتها عالم الكتب ضمن مشروع مكتبة الأسرة ، 2003 م.ج1/ص132

مما لا شك فيه أن بشر يرمي إلى تحقيق هذه المقاصد من خلال تكراره لعدة مكونات لسانية ((ومن أَرَاغَ **معنىً كريماً** فليلتمِسْ **له لفظاً كريماً**؛ فإنّ حقّ **المعنى الشريف اللفظُ الشّريف**، ومن حقِّهما أن تصونهما عما يفسدُهما ويهجِّنُهمَا، وعمّا تعودُ من أجله أن تكونَ أسوأَ حالاً مِنك قبل أن تلتمس إظهارَهُما، وترتهِن نفسَك بملابستِهما وقضاءِ حقِّهما)). المفردات التي يكررها بشر تعود إلى مرجعية مشتركة و متطابقة فدلالاتها لم تتغير بتغير سياقها وموقعها في الجملة؛ و هذا يؤيد توجه بشر في مطابقته بين اللفظ و المعني. فالغرض التوكيدي التأثيري واضح .كما نلاحظ أن بشر وظف تكرار الكلمة في الجملتين الأولى و الثانية ثم استغنى عن ذلك بالضمير الذي يؤدي دور الإحالة إلى الكلمات المركزية المكررة سابقا (**معنىً**، **لفظاً**)؛ فارتباط الضمائر بالعنصر المشار إليه ليكون محورًا للأفعال التي ساقها بشر تكشف عن الربط بين ما جاء في الجملة الأولى التي تعدّ بمنزلة المقدمة وما بعدها من النسب و الأفعال و الأوصاف بمنزلة التوالي لهذه المقدمة.(أن تكونَ **أسوأَ حالاً** مِنك قبل أن تلتمس إظهارَهُما، **وترتهِن نفسَك** بملابستِهما وقضاءِ حقِّهما)

يضيف بشر بُعدا آخر يحث به كل منتج للنصوص كي يتعلم قواعد الصحيفة ليتمكن من الإنتاج على وجوهه الصحيحة. و هو بعد الإحساس بالمسؤولية عن نصوصه لأنه سيتحمل تبعاتها السلبية و الإيجابية لذا عليه أن يسعى لإحكام صنعته.فهذه المطابقة بين اللفظ و المعنى من حيث الشرف و الكرم هو في حقيقة أمره "مسؤولية ينبغي أن تعكس واقع مرسل الخطاب فيتبنى حينها هذه المسؤولية فيراعيها حق رعايتها، من عدم إصابتها بشيء من لوازم الإفساد و التهجين"[567].

يواصل بشر فيقول: ((**فكُن في ثلاثِ منازل؛ فإن أُولَى الثلاث أن يكون لفظُك رشيقاً عذْباً، وفخْماً سهلاً، ويكونَ معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إمَّا عند الخاصَة إنْ كنتَ للخاصَّة قصَدت، وإمَّا عند العامَّة إنْ كنتَ للعامَّة أردت، والمعنى ليس يشرفُ بأن يكونَ من**

(567)مختار لزعر، مسار الخطاب التواصلي عند بشر بن المعتمر،منشور على موقع مجلة إنسانيات، الجزائر، برقم 2009/46.

معاني الخاصَّة، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكونَ من معاني العامَّة، وإنّما مَدارُ الشّرَف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافَقَة الحال، وما يجب لكلّ مَقامٍ من المقال، وكذلك اللفظ العامّيّ والخاصّيّ، فإنْ أمكنَكَ أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغةِ قلمك، ولُطف مَدَاخلك، واقتدارِك على نفسك، إلى أن تُفْهِم العامَّة معانيَ الخاصَّة، وتكسُوَها الألفاظَ الواسطة التي لا تَلطُف عن الدَّهْماء، ولا تَجفُو عن الأَكْفاء، فأنت البليغ التامّ)).

في بداية صحيفته أجمل بشر قواعده حول اللفظ والمعنى، لكنه انطلاقا من هذه الفقرة يبدأ تفصيل المجمل. فاللفظ و المعنى وصفا في البداية بالشرف و الكرم.

يتضح من خلال تتبع المكونات اللسانية بمختلف مستوياتها في نص الصحيفة؛ أن هذا النص يقوم على تضافر بعض النظريات التداولية و تفاعلها في تشكيله ضمن مستويين متداخلين:

المستوى الأول: أثناء ممارسة بشر لفعل الكتابة، أي عندما كان ينمق صحيفته و يحبرها؛ و يبدو جليا في هذا المستوى توظيفه لنظرية الافتراض المسبق التداولية.

المستوى الثاني: و نقصد به المقولات و القواعد التي يتبناها بشر و يريد إقناع متلقي صحيفته بأن يتبناها هو أيضا و يوظفها في إنتاجه للنصوص. في هذا المستوى يوظف آليات تداولية مختلفة منها نظرية الملاءمة.

ما تجب الإشارة إليه هو أن هذين المستويين غير متمايزين بل تحكمها علاقات تداخل و ترابط و استلزام؛ ومن خلال هذه العلاقات يتم توجيه النص أثناء بنائه.

ففي المستوى الأول نجد أن الآلية الطاغية التي يوظفها بشر أثناء تحريره لنص صحيفته هي نظرية الافتراض المسبق؛ فعمليات الافتراض "هي ما يعتبره المتكلم أرضية مشتركة مسلما بها لدى كل أطراف المحادثة"[568]فالافتراضات المسبقة تعتبر الخلفية التواصلية الضرورية

(568) جورج يول، جورج براون، تحليل الخطاب، ترجمة:محمد لطفي الزليطي و منير التريكي، دار النشر و المطابع، 1997، ص37.

لنجاح العملية التخاطبية. و يعرف (ديكرو) الافتراض المسبق بأنه "هو العنصر الدلالي الخاص بالقول أو تحويله إلى استفهام: هل (أ)؟ و إلى النفي لا (أ)؟"[569]. و يوضح أن "الافتراض السابق لمحتوى معين يعني قبول هذا الأخير كشرط لحوار لاحق؛ و لهذا السبب يبرر اختيارنا للافتراض السابق بحكم أنه فعلا كلاميا خاصا، لأنه ذو قيمة قانونية و بالتالي لغوية بالمعنى الذي أُسند لهذا المصطلح، ففي حالة تحقيق هذا الفعل الكلامي نقوم بتغيير إمكانيات الكلام عند المتخاطبين"[570].بشر أثناء كتابته لنصه يفترض مجموعة من الافتراضات المسبقة التي كان لها دورا فعالا في توجيه النص و بناءه، ومن هذه الافتراضات ما يلي:

- **الافتراض الأول:** بشر أثناء كتابته لنص الصحيفة كان يضع نصب عينيه قارئا افتراضيا يحاوره وفق نمط تواصلي شفوي؛ رغم أن صحيفته مكتوبة، ويتضح هذا التعامل الشفاهي مع المتلقي الظاهر الحاضر في هذا النص الكتابي من خلال مخاطبته بضمير المخاطب (أنت) منذ بداية الرسالة (اعلم، كُن،قصدتَ، أمكنك...).و صيغة الأمر في الأفعال التي تفترض الحضور الفعلي للمخاطب إزاء منتج الخطاب.
- **الافتراض الثاني:** أن المتلقي الأساسي لصحيفته هو متلقٍ مشتغل بإنتاج الخطاب بالمعنى الخاص بمختلف أنواعه و ليس بمعناه العام الذي يكتفي بالوظيفة التواصلية فقط. و دليل ذلك قوله ((**خُذْ من نفسِك ساعةَ نشاطِك وفراغِ بالك وإجابتِها إياك... واعلَمْ أنّ ذلك أجدى عليك ممَّا يُعطيك يومُك الأطولُ، بالكدِّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلُّف والمعاودة...**)) فمستعمل اللغة العادي العامي الذي يهدف إلى التواصل التبليغي في كل آن ضمن حياته الاجتماعية و معاملاته لا يعقل أن يطلب منه بشر أن ينتظر (**ساعةَ نشاطِه وفراغِ باله وإجابة نفسه**)، كما أنه ليس ممن يمارس (**الكد و المطاولة و المجاهد و التكلف و المعاود**)من اجل نجاح تواصله مع غيره. فبشر يوظف هذه التراكيب انطلاقا من افتراض مسبق لمتلقي خاص لنص صحيفته.و يؤيد

(569) Ojwald Ducrot,Dire et ne pas dire, principes de sémantique linguistique, édition HARMANN,2eme édition, paris, 1980,p81.

(570) Ojwald Ducrot,Dire et ne pas dire p91.

هذا الافتراض أيضا ما قاله إبراهيم و الجاحظ ((قال بشر: فلما قُرِئت على **إبراهيم** قال لي: أنا **أحوَجُ** إلى هذا من هؤلاء الفتيان، قال **أبو عثمان**: أما أنا فلم أرَ قطُّ أمْثَلَ طريقةً في البلاغة من **الكتّاب**)) فنلاحظ أن المشتغلين بإنتاج الخطاب بمعناه الخاص قد عرفوا أن هذه الصحيفة موجهة إليهم:

1. **إبراهيم**: بصفته **متخصص في إنتاج** الخطاب أصدر حكمه بأنه **أحوج** إلى هذه الصحيفة من **الفتيان** الذين مازالوا يمثلون منتجين **غير متخصصين** للخطاب.
2. **الجاحظ أبو عثمان**: يعترف ضمنا بموافقته لتوجه بشر نحو متلقي متخصص من خلال مقارنة القواعد التي ينص عليها مع ما يسلكه الكُتَّاب من طريقة مثلى في البلاغة.

- **الافتراض الثالث**: يفترض بشر مسبقا أن الأرضية التواصلية المشتركة بينه و بين المتلقي لنصه تتضمن فهمه و إحاطته بمفاهيم أساسية هي: مفهوم اللفظ، مفهوم المعنى، مفهوم المنفعة، مفهوم الصواب، مفهوم العامة، مفهوم الخاصة...

هذا القارئ المفترض مسبقا في نص الصحيفة؛ رغم اشتراكه في أرضية تواصلية معه لكن بشر يفترض مسبقا أنه يتساءل عن ما يقصده **بشرف** اللفظ و **شرف** المعنى؟فيجيب بشر؛ ويوضح صفات اللفظ الشريف و صفات المعنى الشريف.

- **اللفظ الشريف** = رشيقا + عذبا + فخما + سهلا.
- **المعنى الشريف** = ظاهرا + مكشوفا + قريبا + معروفا.

و معيار تحقق هذه الصفات لا يرتبط بالمتكلم الباث وحده بل هو أكثر ارتباطا بالمتلقي (خاصة،عامة).فالشرف هنا يُكتَسبُ من خلال تحقيق الصواب و إحراز المنفعة. فجماع الأمر ــ عند بشرــ يدور حول الكفاءة و إمكانية التكيُّف، فهو يفترض في الباث الناجح مايلي:

1. كفاءة لغوية (ألفاظ + معاني).
2. إمكانية تكييف الكفاءة اللغوية حسب المقام (عامة، خاصة).
3. معيار صحة إمكانية التكيف هو الصواب و إحراز المنفعة.

4. قمة التميز و الإبداع أن تنفي الازدواجية عن إمكانية تكييف الكفاءة اللغوية مهما تغيرت المقامات، بحيث يصبح نصك وسطيا مفهوما لدى العامة و الخاصة دون تغييرات تناسب كل مقام على حدى، مع استيفاء معيار الصواب و المنفعة.ويمكن أن نمثل مقومات الباث الناجح بالمخطط التالي:

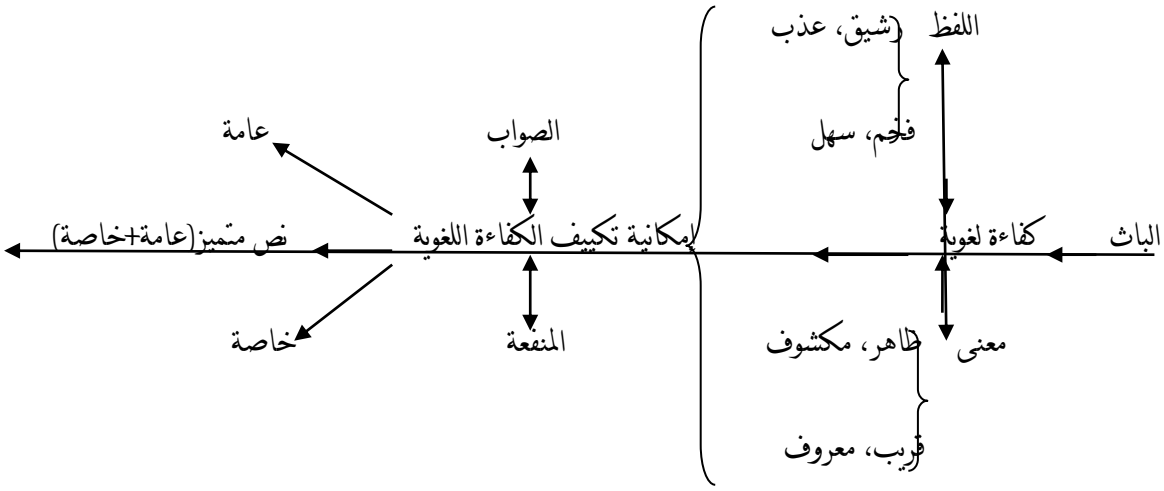

ترتكز مقاربة بشر للعملية التواصلية الخطابية الإبلاغية على نظرية الملاءمة بين مختلف أطرافها و مكوناتها؛ و التي تعتبر "نظرية تداولية معرفية...فنظرية الملاءمة تدمج بين نزعتين كانتا متناقضتين؛ فهي نظرية تفسر الملفوظات و ظواهرها البنيوية في الطبقات المقامية المختلفة ،و تعد في نفس الوقت نظرية إدراكية"[571].فهي تستمد قواعدها من مجالين معرفيين هما "مجال علم النفس المعرفي ، و مجال فلسفة اللغة و بخاصة النظرية الحوارية لغرايس"[572].و أهم ما يميز هذه النظرية هو تصورها للسياق و تعتبر أنه يبنى "تبعا لتوالي الأقوال. و يتألف السياق من زمرة من (الافتراضات السياقية) تُستمد من مصادر ثلاثة هي:

(571) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص37.

(572) م. نفسه، ص38.

تأويل الأقوال السابقة، و المحيط الفيزيائي، و ذاكرة النظام المركزي التي تحتوي على معلومات مختلفة عن العالم نستخدم بعضها في السياق التأويلي"[573].

فنجاح العملية التواصلية مرتبط بالتحكم في مبدأ الملاءمة سواء من طرف المتكلم أو المتلقي؛ وهذا المبدأ بتحدد انطلاقا من وسيطين اثنين "**الآثار المعرفية contextuel effects** وهو كل تعالق بين معلومتين احداهما قديمة و الثانية جديدة مما ينتج عنه مجموعة من الحوسبات الذهنية، كتعديل أو تحسين أو إثبات أو إقصاء افتراضات توجد في ذاكرتنا التصورية، و الوسيط الثاني هو **الجهد المعرفي cognitif cost** الذي يؤدي دور في تقويم مدى ملاءمة الأقوال حسب المبدأ الآتي:

- كلما قل الجهد المعرفي المبذول في معالجة الملفوظ ازدادت ملاءمة هذا الملفوظ.
- كلما استدعى التعامل مع ملفوظ ما جهدا كبيرا كانت ملاءمته ضعيفة
- كلما أنتج الملفوظ آثارا سياقية أكثر؛ كلما كان الملفوظ ملائما.

تتجلى مبادئ نظرية الملاءمة في صحيفة بشر في أنه يؤكد أن منتج الخطاب ينبغي عليه أن يجعل فعله الانجازي الذي ينتجه مبني على التلاؤم مع مكونات العملية الخطابية من حيث:

1. **من جهة العناصر الخارجية للتخاطب:**

- أن يكون ملائما للمعنى الذي يقصد إيصاله.
- أن يكون ملائما لقدر المتلقي (العامة، الخاصة).
- ان يكون ملائما للحال الذي يرِدُ فيه الخطاب.

2. **من جهة الخطاب نفسه:** تبرز مبادئ نظرية الملاءمة التداولية في بنية الخطاب وفق تصور بشر بن المعتمر كما يوضحه الجدول التالي:

(573)مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص39.

الخطاب وفق نظرية الملاءمة	الخطاب وفق تصور بشر
كلما قل الجهد المعرفي المبذول في معالجة الملفوظ ازدادت ملاءمة هذا الملفوظ.	وإياك والتوعُّرَ، فإنّ التوعُّر يُسلمِكُ إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلكُ معانَيكَ، ويَشين ألفاظك
كلما استدعى التعامل مع ملفوظ ما جهدا كبيرا كانت ملاءمته ضعيفة	اجتناب كل خطاب يأتي بالكدّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلُّف والمعاودة
كلما أنتج الملفوظ آثارا سياقية أكثر؛ كلما كان الملفوظ ملائما.	إذا استطعت أن تُفْهم العامَّة معانيَ الخاصَّة، وتكسُوَها الألفاظَ الواسطة التي لا تَلطُف عن الدَّهْماء، ولا تَجفُو عن الأَكْفاء، فأنت البليغ التامّ

يشير بشر كثيرا إلى مفهوم الشرف في المعنى و يستلزم بالضرورة ضده أي وضاعة المعنى؛ وبعد أن حدد مجموعة من الصفات التي يجب إن تتحقق في المعنى حتى يكون شريفا.

المعنى الشريف = ظاهرا + مكشوفا + قريبا + معروفا.

لكن بشر ينتبه إلى أن هذه الصفات لا تكفي لتحديد مفهوم المعنى الشريف؛ فيوضح بقوله: ((والمعنى ليس **يشرفُ** بأن يكونَ من **معاني الخاصَّة**، وكذلك ليس **يتَّضع** بأن يكونَ من **معاني العامَّة**، وإنّما مَدار الشّرَف على **الصواب وإحراز المنفعة**، مع موافَقَة الحال، وما يجب لكلّ مَقامٍ من المقال، وكذلك اللفظ العامّيّ والخاصّيّ)). فهو يلاحظ أن السياق الاجتماعي يفرض مفهوم للفظة الخاصة يرتبط بمعنى الشرف، و مفهوم للفظة العامة يرتبط بمعنى الوضاعة. فيوضح بشر أن مفهوم **شرف المعنى** لا يتعلق بهذه المفاهيم المتولدة من السياق الاجتماعي؛ بل هو مفهوم يرتبط بمبدأ الملاءمة التي يتحكم فيها الصواب و النفع.و يمكن أن نوضح هذا بالمخططين التاليين.

مخطط مسار المعنى باعتبار المفاهيم وفق السياق الاجتماعي:

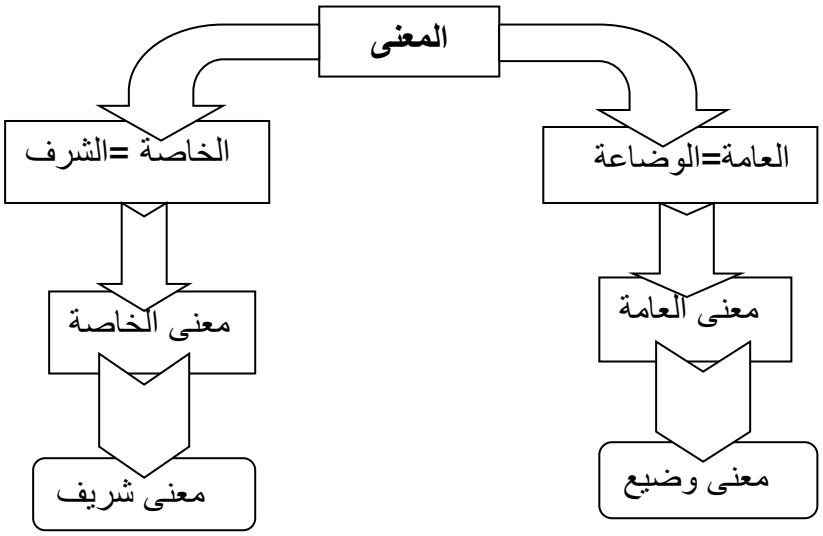

مخطط مسار المعنى باعتبار المفاهيم وفق مبدأ الملاءمة:

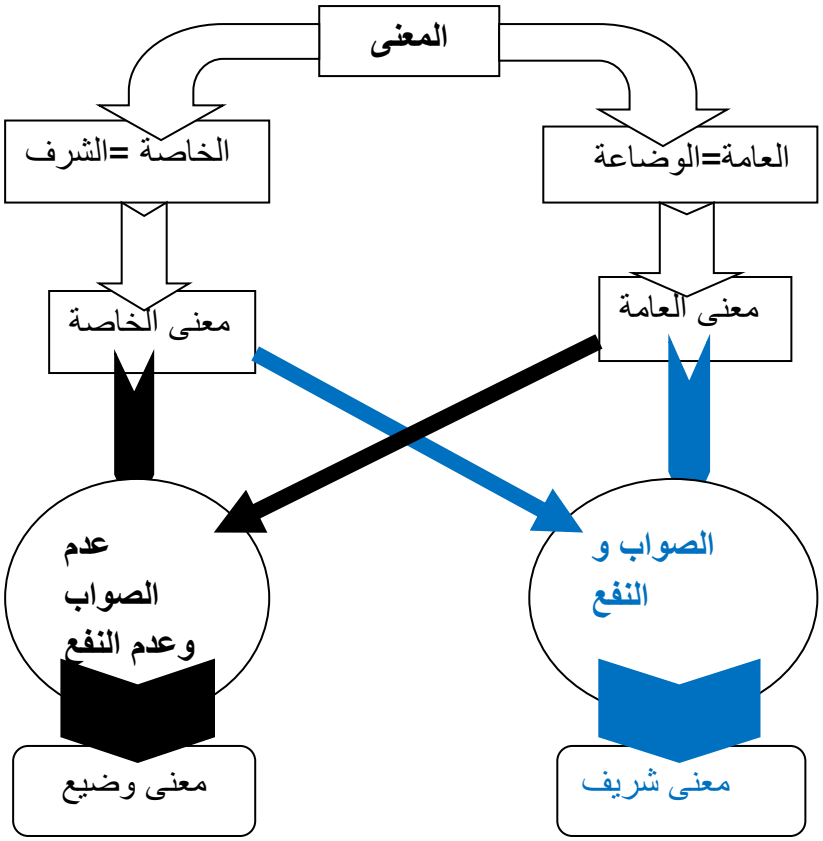

وقال: **((ينبغي للمتكلّم أن يعرِفَ أقدارَ المعاني، ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعينَ وبين أقدار الحالات))**. هذا القول يعكس ضمنيا حقيقة معرفية مفادها أن المتكلم أو مرسل الخطاب ينبغي عليه أن يراعي في فعله الانجازي؛ مهما كان نوعه أو جنسه؛ قدر المعنى الذي يحويه؛

لكي يوازن بينه و بين أقدار المستمع و بين قدر الحالة التي يتعامل معها[574].فمنتج النصوص عليه أن يفترض مسبقا إمكانيات كل مستمع؛ حتى يتمكن من انتقاء الأفعال الانجازية الملائمة لهذه الإمكانيات، كما يجب أن يراعي الحال التي قد تلعب دورا مفصليا في تقبل نصه أو رفضه.((**فيجعلَ لكلِّ طبقةٍ من ذلك كلاماً، ولكلّ حالةٍ من ذلك مَقاماً، حتَّى يقسمَ أقدارَ الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدارَ المعاني على أقدار المقامات، وأقدارَ المستمعين على أقدار تلك الحالات**))، فهناك طبقة من المتلقين لهم من الكلام ما يليق بواقعهم الإدراكي و الاستيعابي، فالمقصود بالطبقة هو واقع المتلقي بما له من قدرة على استيعاب مكونات النص بكل ما تحمله من حمولات متنوعة.فمنتج النص عليه أن يفترض أن كل طبقة لها الأهلية في إدراك المعنى و تقديره حسب القدرة الإدراكية التي تمتلكها. وهذا الذي يدعو إليه بشر هو عينه ما ينبني عليه مبدأ الاستلزام الحواري الذي يولي اهتماما بالغا إلى هذا النوع من التقدير في عملية التواصل بين الباث و المتلقي.

بعد أن وضع بشر الأصول و القواعد التي إذا استطاع أي منتج للنصوص تطبيقها فهو في منزلة المنتجين المجيدين البلغاء؛ بعد هذا الوضع والتأصيل يبدأ بشر في توظيف مجموعة من الاستراتيجيات الحجاجية ليثبت صحة ما ذهب إليه و يصل بخطابه إلى درجة الإقناعية.

- **إستراتيجية تفصيل المجمل:** حيث أن بشر بعد أن أجمل القواعد و الأصول يبدأ في تفصيلها و تفريعها؛ فنجده يجمل كلامه عن المعنى بوصفه بالشرف ثم يعود فيفصل معنى الشرف الذي يقصده و يفرعه حسب المنازل و الطبقات.و هذه الإستراتيجية تنبني على علاقة تقوم على شرح ما أجمل ذكره سابقًا، فالتفصيل يحمل المرجعية الخلفية لما سبق إجماله، وكذلك يرد عجز الكلام إلى الصدر؛ فيؤدي بذلك وظيفتين متكاملتين؛ الأولى تقوم على التكرار المفضي إلى التذكير و التأكيد و تثبيت المعلومات؛ و الأخرى نتيجة للأولى وهي وظيفة إقناعية.

(574)مختار لزعر، مسار الخطاب التواصلي عند بشر بن المعتمر،منشور على موقع مجلة إنسانيات، الجزائر، برقم 2009/46.

- **إستراتيجية المقارنة** : المقارنة هي وجود عنصرين يقارن النص بينهما ، وتنقسم على المطابقة والتشابه وتقوم على ألفاظ من مثل وصف الشيء بأنه شيء آخر، أو يماثله ،أو يوازيه ، وبعضها يقوم على المخالفة كأن تقول أفضل،أو أكبر، أو أجمل[575].فبشر يعتمد على المقارنة ضمنيا حيث نلاحظ مقارنة بين المعنى الشريف و المعنى الوضيع. و المقارنة بين الساعة المناسبة للكتابة النص و غير المناسبة، والمقارنة بين أنواع الخطابات حسب اختلاف الطبقات و المقامات.

- **إستراتيجية التمثيل:** نقصد بالتمثيل إيراد الأمثلة للاستدلال على الآراء و الأفكار. يذكر الجرجاني أن التمثيل "إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه و نقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، و كسبها منقبة، و رفع من أقدارها، و شب من نارها، و ضاعفت قواها في تحريك النفوس لها، و دعا القلوب إليها... و إن كان حجاجا كان برهانه أنور، و سلطانه أقهر، وبيانه أبهر"[576]. فالتمثيل إذًا وسيلة حجاجية ذات تأثيرات في المتلقي من جهات عدة، فهو خطاب للعقل بوصفه ينقل العقل من المعنى في الحالة التصورية العادية إلى الحالة التصديقية[577].إذ أن ذكر الأمثلة من خطابات و مصطلحات خاصة ببعض الفئات الاجتماعية يعتبر نقل من الحديث المجرد إلى حالة التصديق.ومما يورد بشر من الأمثلة ما ذكره من أن المتكلمين – أي علماء الكلام – يوظفون مصطلحات خاصة تناسب طبقتهم و سياقاتهم التي يفهمونها دون غيرهم؛ **((ولذلك قالوا: العَرَض والجوهر، وأيْس وليس، وفرَقوا**

---

(575)محمد الخطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب : الناشر المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء– المغرب،الطبعة الثانية ،2006 م.ص19.

(576) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص69.

(577) علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، رسائله نموذجا، وزارة الثقافة و التراث، مملكة البحرين،ط1، 2010، ص67.

بين البُطلان والتّلاشي، وذكروا الهذيّة والهُوِيّة وأشباهَ ذلك))، و كذلك علماء العروض و أوزان الشعر الذين يوظفون ما**((وضع الخليل بنُ أحمدَ لأوزان القصيد وقِصار الأرجاز ألقاباً لم تكن العربُ تتعارف تلك الأعاريضَ بتلك الألقابِ، وتلك الأوزانَ بتلك الأسماء، كما ذكرَ الطَّويلَ، والبسيطَ، والمديد، والوافر، والكامل، وأشباه ذلك))** و غيرها من

من التمثيلات التي يوردها بشر في نمط حجاجي جدلي يهدف من خلاله إلى التأثير على متلقي نص الصحيفة و بالتالي إقناعه باعتقاد الأصول و القواعد الواردة فيها.

- **إستراتيجية حجة السلطة:** نقصد بالسلطة هي ما يوظفه الباث على أنه مصدر يقيني للمعرفة لا يقبل التشكيك أو النقاش؛ و يظهر حجاج السلطة عندما "يقدم العارض دليلا يؤيد به إثباتا ما، و يتمثل هذا الدليل في كونه صادرا من متكلم حجة يعوّل عليه و يلوذ به لكونه مقبولا من لدن شخص يضمن صحته"[578].و تتمثل السلطة الحجة عند بشر في الشعراء المجيدين و الأعراب لن لغته محتفظة بمقومات الصواب؛ إن السبب في لجوء البلاغيين – و منهم بشر – إلى الشاهد الشعري هو قدرة الشعر على استيعاب مادة البلاغة، فهو المادة الصالحة للتطبيق على ألوان البلاغة، وهذا يرجع إلى" أن الباعث على القول في البلاغة هو الوجدان والخيال، وذلك أكثر ما يكون جولانًا في ميادين الشعر[579]"، فكان اهتمامهم بالشواهد الشعرية يفوق الاهتمام بالنثر بدرجاتٍ كبيرة، فقد اتجهوا إلى أن علوم البلاغة العربية، من بيان وبديع ومعانٍ لا تظهر بصورتها الواضحة إلا من خلال الشعر والصور الشعرية الأكثر دلالة ووضوحًا في الاستدلال على المظاهر البلاغية التي يعرضونها، ومن ثم التأثير في المتلقي، وتحقيق أكبر قدر من الإبلاغية،" إذ لابد للبلاغة من ركنين الأول أن يكون الكلام متلائمًا مع أوضاع المخاطبين، والثاني أن يكون مؤثرًا في النفس حتى تتفاعل وتتجاوب

(578) كريستيان بلانتان، الحجاج، ترجمة عبد القادر المهيري، مراجعة عبد الله صولة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008، ص153.

(579) أحمد سامي سليمان، خطاب التجديد النقدي عند أحمد ضيف، د.ط، مكتبة الآداب، القاهرة، 2003 ، ص250.

معه[580]". و مما أورده بشر من هذا النوع من الحجاج قوله: **((وقد يتملّحُ الأعرابيُّ بأن يُدْخِل في شعره شيئاً من كلام الفارسيَّة كقول العُمّانيّ للرَّشيد، في قصيدته التي مدحَه فيها:**

مَن يَلْقَهُ مِن بطلٍ مُسْرَنْدِ * في زَغْفَةٍ مُحْكَمةٍ بالسَّرْدِ))**

وقد أورد هذا ليجعله حجة في ما ذهب إليه من أن كل طبقة من الناس لها ألفاظ يمكنها أن توظفها دون غيرها من الطبقات فالأعرابي يجوز له أن يتملح بألفاظ فارسية في نصه، وهذا ما فعله العماني الأعرابي في حضرة الخليفة هارون الرشيد و الرشيد لم ينكر ذلك لأنه لا يعتبره قد جانب الصواب.

ومن ذلك أيضا ما أورده ليبرهن على أن منتج النص يمكنه أن يوظف ألفاظ طبقة معينة في عدة حالات منها أن يكون متمكنا متقنا لهذه اللألفاظ و سبل إيرادها، و منها أن يوردها على سبيل الظرف و التملح ؛ فيقول: **((وقد تَحسُنُ أيضاً ألفاظُ المتكلِّمين في مثل شعرِ أبي نُواسٍ وفي كلِّ ما قالوه على وَجْه التَّظرُّف والتملح، كقول أبي نُوَاس من المجتث:**

وذات خـــــدٍّ مُتورَّد * قُوهيّـــة المُتَجَرَّدْ

تأمَّلُ العَيْـــــنُ منها * محاسناً ليس تنفَدْ

فبعضُهـــا قد تَنَاهَى * وبعضُهـــا يتـــولَّدْ

والحسنُ في كلّ عضوٍ * منها مُعادٌ مُردَّدْ))

في الأخير ما يمكن قوله هو أن هذا النص المتميز (صحيفة بشر بن المعتمر)مشحون بالقيم و الاستراتيجيات التداولية التي كانت منطلقا لتأسيس الدرس البلاغي العربي القديم. فهو نص يحتاج منا إعادة قراءة متأنية و متأملة حتى ندرك عظمة أسلافنا و مدى الترف العقلي و الفكري و المعرفي الذي بلغوه.فنص بشر يدل على وعي تام و عميق بالطبيعة التداولية التي تقوم عليها العملية التخاطبية بمختلف وسائلها و على رأسها اللغة.

(580)عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، ط 1، الفرقاء للنشر والتوزيع، عمان،2004 ، ص13.

((ينبغي للمتكلّم أن يعرِفَ أقدارَ المعاني، ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعينَ وبين أقدار الحالات، فيجعلَ لكلِّ طبقةٍ من ذلك كلاماً، ولكلّ حالةٍ من ذلك مَقاماً، حتَّى يقسمَ أقدارَ الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدارَ المعاني على أقدار المقامات، وأقدارَ المستمعين على أقدار تلك الحالات)).

خاتمة

في ختام هذا البحث يمكن القول إن الدرس التداولي و اللسانيات بمختلف تفرعاتها قد أعطيا دفعة قوية و انطلاقة جديدة في معالجة العملية التواصلية على تعدد وسائلها و مستوياتها.من هنا نذكر أن تناول التراث بمنظور حداثي تداولي لساني قد يفتح بعدًا آخر لمعالجة هذا التراث البلاغي و النقدي الضخم، بحيث يوسع هذا من آفاق رؤيتنا له، ويعيننا على إدراك خصائصه الابستمولوجية والمنهجية المتميزة.

و من أهم النتائج الذي توصلنا إليها أن الخطاب اللغوي العربي خاصة البلاغي من يحمل في طياته بذور التداولية، ويمكن اعتباره جوهر التداولية؛ فهي في عمق تكوينها، وأهدافها تداولية، فكل من البلاغة العربية والتداولية يعتمدان على طرفي الخطاب :المتكلم والسامع؛ بالإضافة إلى أن المتكلم يخضع كلامه أثناء استعماله لشروط تداولية، وذلك قصد تحقيق الهدف البلاغي، وإقناع المتلقي أو السامع والتأثير فيه.

فالقاعدة التي أصل لها البلاغيون العرب وهي: (لكل مقام مقال) تبرز الأبعاد التداولية التي تنبني عليها البلاغة العربية؛ فالاهتمام بكل من طرفي التواصل:المتكلم والسامع، بالإضافة إلى الاهتمام بالمقام، وسعيها لتحقيق التأثير في" السامع"وإقناعه، وإنجاح العملية الاتصالية بين طرفي الخطاب، كل هذا يمكن أن يثبت البعد التداولي للبلاغة العربية.

كما أن البلاغة العربية ارتكزت على مبدأين مهين في التداولية وهما(**مبدأ الإفادة**)، وذلك في ضبطها (علم المعاني)؛ فهذا العلم يهتم بالتراكيب المفيدة دون غيرها، والمبدأ الثاني وهو(**المقصدية**).

فالمقَصْدِيَّةُ تُعَدُّ مِنْ أظهرِ مبادئِ البلاغةِ العربيَّةِ التي رَسَمتْ بها البلاغةُ قوانينَ صناعةِ الخِطابِ وتفسيرِهِ رسمًا يُبرهِنُ على أَنَّ البلاغةَ العربيَّةَ نظرَتْ إِلى تحقُّقِ العمليَّةِ الإبلاغيَّةِ مِنْ ثلاثِ زوايا: زاويةِ المُبدِعِ أو المُتكلِّمِ، وزاويةِ المُتلقِّي أو المُخاطَبِ، وزاويةِ النَّصِّ البلاغيِّ الذي ينبغي أَنْ يتطابَقَ فيهِ قَصْدُ المُتكلِّمِ معَ اللَّفظِ المُختارِ أَو التَّركيبِ لأَداءِ العمليَةِ الإبلاغيَّةِ.

ووظيفةُ البلاغةِ هي وصفُ الأساليبِ الخاصَّةِ في استعمالِ اللُّغةِ وتصنيفُها بحسبِ تمكُّنِها في التَّعبيرِ عَــنْ أَغراضِ المُتكلِّمِ ومقاصِدِهِ الفنيَّةِ تعبيرًا يتجاوزُ الإبلاغَ إلى التَّأثيرِ في المُخاطَبِ أَو إقناعِهِ بما نقولُ أَو إشراكِهِ في ما نحسُّ بهِ، ولذلك وصفَ بعضُ الباحثينَ علمَ البلاغة (علم المقاصد)؛ لأنَّنا نتكلَّمُ في الأغلبِ مِنْ أَجلِ أَنْ نبلغَ قَصْدًا مُعيَّنًا.

وفي معالجتنا لمفهوم السياق خلصنا إلى أن التداولية تتمركز حول البعد العملي للمعنى،لأنها تميز بين معنيين في كل ملفوظ الأول: هو معنى الجملة أو ما يعرف بالقصد الإخباري، والثاني :هو القصد التواصلي، وهو ما يعرف بمعنى المتكلم، وهذا ما نجده واضحا في البلاغة العربية في علم البيان، والبديع، والمعاني، فالسياق وأثره في تحديد المعنى واضح في المباحث البلاغية.

من خلال مناقشتنا لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني استنتجنا أن مقاربات الجرجاني و تأصيلاته لنظرية النظم؛ خاصة في مناقشته لقضايا اللفظ والمعنى؛ تعد جذرا طبيعيا لنظرية الفعل الكلامي التي جاء بها أوستن في أهم عناصرها المكونة: الفعل اللفظي (فعل القول)، والفعل الإنجازي (الفعل الكلامي).

كما لاحظنا أن المعنى ومعنى المعنى عند الجرجاني يخرج لأغراض معينة مثل الاستعارة والمجاز والكناية وهذه الأغراض عند عبد القاهر؛ هي التي تعدّ من الأفعال الإنجازية غير المباشرة عند المحدثين، فيتضح بأن (الأفعال الإنجازية غير المباشرة) في تسميتها الحديثة هي ما ذكرها عبد القاهر قبل هذه التسميات بقرون وتناولها من جميع الجوانب النحوية والفنية والذوقية.

فبالمقارنة بين دراسة الجرجاني للاستعارة و دراسة سيرل لها؛ نجد أنهما يشتركان في مقاربتهما للاستعارة في النقاط الآتية:

- أنها تعبر عن علاقات بين الأفكار وعمليات تبادل النصوص، أو ما يعبر عنه الجرجاني بادعاء معنى الاسم لشيء.

- هي تشبيه على وجه المبالغة مع الاختصار ليكون المعنى أقوى وأبلغ.
- كلما ازداد أخفاء المكون التشبيهي في الاستعارة كلما ازدادت الاستعارة حسناً.

ولعل **الجرجاني** بدراستهِ للصورة الاستعارية قد قَدم لنَا نظرية تداولية مُتكاملة الجوانب: المبدِع، المتلقي ، والنص ، وكان بِإمكان لأفكارهِ هذه أن تُخرج لِلوجُود نَظرية في تَداولِ الصُورة المجازية لَوْ أن المتَأخرينَ اهتمُوا بهذَا الجانبِ و أولَو هُ نصيباً من البَحثِ والدراسة.

و في دراستنا هذه للخطاب البلاغي و النقدي عند المعتزلة من وجهة نظر الدرس التداولي المعاصر، كان لزاما علينا استجلاء بعض ملامح هذا الدرس عند بعض أعلام هذا التوجه الفكري في التراث العربي الإسلامي.و قد حاولنا الوقوف على الخطاب البلاغي عند الجاحظ من وجهة نظر تداولية لسانية؛ و خاصة في الجانبين الإقناعي و الحجاجي منه و اللذان يعدان من أهم أركان الدرس التداولي.

انطلاقا من التوجه الاعتزالي في فهم البيان و الخطاب البلاغي؛ سعى الجاحظ إلى بناء إستراتيجية متكاملة للخطاب البلاغي لكي يحقق هدفه الاقناعي.

حاول الجاحظ أن يعالج إستراتيجيته الإقناعية بجعلها شاملة لكل مراحل العملية التواصلية انطلاقا من ما قبل إنتاج الخطاب إلى إنتاجه ثم توصيله إلى المتلقي ثم استجابة المتلقي(الإقناع) ؛حيث تناول العملية البيانية بمختلف مراحلها من خلال تأصيله لشروط إنتاج الخطاب البياني، و الذي يؤدي بالضرورة إلى الإقناع. فالجاحظ يؤسس لشروط إنتاج الخطاب البياني البلاغي، وهذه الشروط هي:

6. البيان وطلاقة اللسان .
7. البيان و اختيار الألفاظ.
8. البيان و كشف المعنى
9. البيان و البلاغة
10. البيان سلطة

و مما لا شك فيه أن توجه المعتزلة – و الجاحظ خاصة – في خطابهم البلاغي نحو هذه القصدية الإقناعية كان يمثل موقفا حضاريا ومحاولة إرساء مجتمع عقلاني ، تربط بين أفراده علاقات الإقناع بالمنطق ، أو الاستمالة بشتى صور الدلالة والتعبير الاجتماعي ، اعتمادا على رصيد منتخب من مأثور الأقوال الخطبية و الشعرية ... نظرية البيان و البلاغة باعتبارها موقفا وسطا بين العنف الأناني من جهة ، والصمت المتخاذل من جهة ثانية فكان من الطبيعي أن يلامس الحديث التقني البلاغي المفاهيم و المواقف الاجتماعية.

أما مناقشتنا للبنية الحجاجية في الخطاب الجاحظي فتوضح أن أصول الحجاج، في خطاب الجاحظ،تعود إلى علم الكلام القائم على البرهنة العقلية على المسائل المتعلقة بالإلهيات والعقائد حيث يتوجب على المتكلِّم أنْ يؤسس مواقفه الكلامية على براهين نظرية داعمة ومؤيدة .لقد أفاد الجاحظ من تمكّنه في مبحث علم الكلام في حقل الأدب و غيره من معارفه.فقد عاش الجاحظ في زمن صاخب بالجدل والمساجلات والنظر و المقابسات، حيث ولدت الجماعات والمدارس والاتجاهات الفكرية المتباينة التي كانت تتصارع في ما بينها على تداول الأفكار التي من شأنها حسم القضايا المرتبطة بالخلافة، والسلطة، والنص القرآني، والمعارف الوافدة .ليس هذا فحسب بل إنّ نشأة الجاحظ المبكّرة في مدينة البصرة صقلت منهجه الذي اعتمد على الأدوات المنطقية، والآليات البرهانية، والحجج العقلية، وهذا الأمر الذي يظهر جليا في خطابه ومدونته الموسوعية الزاخرة بالأفكار الجدلية، والآراء الاستدلالية، واللغة البيانية حيث اقتحم موضوعات مختلفة.

خلاصة القول أننا إذا تأملنا الخطاب البلاغي و النقدي العربي بصفة عامة و عند المعتزلة خاصةً؛ نخلص إلى النتائج التالية:

1. إن الخطاب البلاغي النقدي العربي يلتقي مع التداولية في تناول الحدث الكلامي و منتج الخطاب و متلقيه و الوظيفة الانجازية، و السياقات المختلفة للإنتاج اللغوي.
2. الغاية النفعية و الإقناعية هي أهم ما يشترك قيه الخطاب النقدي البلاغي العربي مع الدرس التداولي المعاصر.

3. البعد الوظيفي للمكونات اللسانية في الخطاب اللغوي يعد مساحة مهمة تلتقي فيه البلاغة العربية مع الدرس التداولي المعاصر.
4. ركزت البلاغة العربية عنايتها على إظهار أطراف العملية التواصلية و العلاقة القائمة بينهم؛ الأمر الذي أفضى إلى تماثل الخطاب البلاغي العربي مع الهداف التي سطرتها الدراسة التداولية المعاصرة و هي تتعاطى مع اللغة في إطار العملية التواصلية التخاطبية.
5. يشكل مبدأ القصدية أفق يلتقي فيه الدرس التداولي المعاصر مع الدرس البلاغي العربي.
6. تبرز البنية الحجاجية في الخطاب النقدي و البلاغي العربي حتى تشكل مكونا أساسيا في هذا الخطاب، ومن المعلوم أن الحجاج يعتبر من أهم مبادئ الدرس التداولي المعاصر في معالجته للخطاب اللغوي التواصلي.

وقد حاولنا استجلاء هذه النقاط المشتركة من خلال هذا البحث حيث تتبعناها ضمن الخطاب البلاغي و النقدي العربي عامة، ثم خصصنا الخطاب المعتزلي فتتبعنا هذه النقاط المشتركة في ثنايا خطابات الجاحظ، و أيضا من خلال مقاربتنا للخطاب اللغوي عند علمين آخرين من أعلام المعتزلة هما (أبو الحسن الرماني، و بشر بن المعتمر)، فوجدنا أن إرهاصات الدرس التداولي و اللساني مبثوثة في ثنايا معالجتهم للقضايا البلاغية و النقدية؛ و لا تحتاج منا سوى دراسات متأملة متأنية لتكوين نظريات متكاملة و أصيلة.

و في الأخير أتمنى أن تكون هذه المحاولة البحثية قد ساهمت و لو بقسط ضئيل في لفت الانتباه إلى ثراء التراث العربي و غناه، و حاجته إلى دراسات حداثية جادة.

و الله الموفق إلى السداد و الهادي إلى سبيل الرشاد. و الحمد لله رب العالمين.

ملحق المصطلحات التداولية:

Pragmatics Terminology / Terminologie de la pragmatique

المصطلح باللغة العربية	باللغة الفرنسية / الانجليزية
اتفاق مسبق	Accord préalable / Prior agreement
إثبات	Affirmation Statement/ Assertion
إثباتية تأكيدية	Confirmatifs / Confirmative
ارتباطات خطابية	Connexions discursives / Discursive connections
ازدواجية صوتية	Diaphonie Cross talk / dissonance
إستراتيجية	Stratégie / Strategy
اقتباس	Citation / Quotation
استشهاد	Illustration / Illustration
استعارة	Métaphore / Métaphore
استدلالات	Inférences / Inférences
اطراد تبليغي	Occurrence communicative / Occurrence communicative
اعتراض	Restriction / Restriction
اقتضاء /افتراضات مسبقة	Présomptions/présuppositions presuppositions
التقريريات	déclaratifs / declaratories
تقديميات استهلالية	introducteurs / introducers
إنجازيات	Performatifs / Performatives
اقتناع	Persuasion / Persuasion
انسجام تداولي	Cohérence pragmatique / Pragmatic coherence
انعدام الملاءمة	Incompatibilité / Incompatibility

Réflexivité /Reflexivity	انعكاسية
Assertifs / Assertives	إيقاعيات
Macro-structure pragmatique / Pragmatic macrostructure	بنية تداولية شاملة
Hyperstructure / Hyperstructure	بنية عليا
Perlocutoire / Perlocutionary	تأثيري
Empirique / Empirical	تجريبية
Analyse du discours Discourse anlysis	تحليل الخطاب
Analyse actantielle \ Actantielle analysis	تحليل العناصر الفاعلة
Pragmatique\ Pragmatics	تداولية
Pragmatique intégrée\ Integrated Pragmatic	تداولية مُدمَجة
Progression thématique \Thematic progression	تدرج الموضوع
Schématisation textuelle\ Textual schematization	تشكيل نصي
Inclusion \Inclusion	تضمن/ تضمين
Implication\ Implication	استلزام
Convention\ Convention	تعاقد
Transitivité\ Transitivity	تعدية
Mise en relation Comparison	تعليق
Interactivité \Interactivity	تفاعل
Interactionisme symbolique\ Symbolic Interactionism	تفاعلية رمزية
Raisonnement par autorité \Reasoning by authority	تفكير بالحجة
Raisonnement analytique \Analytical reasoning	تفكير تحليلي
Raisonnement dialectique \Dialectical reasoning	تفكير جدلي
Raisonnement polyphonique\ Polyphonic reasoning	تفكير متعدد الأصوات
Adaptabilité\ Adaptability	تكييف
énonciation paradoxale\ Paradoxical énonciation	تلفظ مفارق
Représentations socials\ Social representations	تمثلات اجتماعية

Analogie\ Analogy	تمثيل
Contradiction \Contradiction	تناقض
Argumentation\ Argumentation	حِجاج
Argumentation dialogique\ Dialogical argumentation	حجاج حواري
Définition\ Definition	حد
Théorie de la Pertinence\ Relevance Theory	نظرية الملاءمة
Dialogisme \Dialogism	حوارية
Discours rapporté \Reported discourse	خطاب مروي
Connecteur\ Connector	رابط
Statique\ Statics	سكونية
Echelles argumentatives\ Argumentative scales	سلالم حجاجية
Hiérarchies \Hierarchy	سلّميات
Support\ Support	سند
Contexte de situation\ Context of situation	سياق الحال
Conditions de finalité\ Conditions of finality	شروط الغاية
Formalisation\ Formalization	صورنة
Apparent\ Apparent	ظاهر
Anaphore\ Anaphora	عائد
Aspectualisation\ Aspectualisation	عرض
Contrat d'authenticité \Contract of authenticity	عقد أصالة
Contrat de sérieux\ Contract of seriousness	عقد الجدية
Contrat de lecture\ Contract of reading	عقد القراءة
Contrat de communication \Contrat of communication	عقد تبليغي
Paradigme\ Paradigm	عمود
Contraintes situationnelle \Situational Constraints	عوائق مقامية
Opérateurs argumentatifs\ Argumentative operators	عوامل حجاجية

Visée séductrice\ Tempting aiming	غاية إقناعية تأثيرية
Liaison \Connection	وصل
Espace de locution\ Space phrase (utterance)	فضاء الكلام
Espace public\ Public space	فضاء عمومي
Acte de parole\ Speech act	فعل كلامي
Macro-acte de langage\ Macro-act of language	فعل كلامي جامع أكبر
Acte locutionnaire\ Elocutionary act	فعل القول
Acte illocutionnaire\ Illocutionary act	فعل إنجازي أو فعل متضمِّن في القول
Acte perlocutionnaire \perlocutionary act	فعل ناتج عن القول
Règle de justice\ Regulate justice	قاعدة العدل
Stéréotype\ Stereotype	قالب لغوي جامد
Intentionnalité\ Intentionality	قصدية قالب لغوي جامد
Propositions élémentaires\ Elementary proposals	قضايا أولية
Macro-proposition\ Macro-proposal	قضايا جامعة
argument \argument	حجة
Valeurs \Values	قيم
Enonciateur\ Enonciator	متلفظ
Archi-énonciateur\ Archi-enonciator	متلفظ جامع
Linguistique de discours\ Linguistics of discourse	لسانيات الخطاب
Linguistique instructionnelle\ Instructional linguistics	لسانيات توجيهية
Déjà dit\ Already said	ما قيل
Tiers parlant \Third party speaker	متحدث آخر
Locuteur\Speaker	متكلم
Archi-locuteur\ Archi-speaker	متكلم جامع
Exemple \Example	مثال

Transphrastique \Transphrastique	مجاوز للجملة
Vraisemblable\ Probable	محتمل
Péritexte\ Around the text	محيط النص
Formant\ Formant	مُشكِّل
Anti-métaphysique\ Anti-metaphysics	مضاد للميتافيزيقيا
Repérages argumentatifs\ Argumentative Locations	المعالم الحجاجية
Acceptabilité intentionnelle\ Intentional acceptability	مقبولية قصدية
Présupposé\ Presupposed	مقتضى القول
Séquence\ Sequence	مقطع
Enoncé / phrase\ Enoncé/sentence	ملفوظ / جملة
Propos\ Matter	مناسبة
Paratexte \Paratext	مناص
Logicisme\ Logicism	منطقة الفلسفة
Lieux spécifiques \Specific places	مواضع خاصة
Attitudes \Attitudes	مواقف
Attitude énonciative \enonciative attitude	موقف تلفظي
Grammaire mythologique\ Mythological grammar	نحو ميثولوجي
Mode d'accomplissement\ Mode of achievement	نمط الإنجاز
Modèle\ Model	نموذج
Intention \Intention	نية، قصد
Intention collective \Collective intention	نية جماعية
Co-intentionnalité\ Co-intentionality	نية متبادلة / مشتركة
Sémème\ Sémème	وحدة دلالية
Promissifs Promissive /Commissives	وعديات
Liaison de succession\ Connection of succession	وصل تتابعي
Liaison de coexistence\ Connection of coexistence	وصل تواجدي

وقائع	Faits \Facts

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

1. إبراهيم خليل، في نظرية الأدب وعلم النص، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1331هـ – 2010م.
2. ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل،الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1985م.
3. ابن جني، الخصائص، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية سيدنا الحسين، 1418هـ
4. ابن حزم أبي محمد علي بن احمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، صححه ،تحقيق:محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمان عميرة، دار الجيل، بيروت، لبنان.
5. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ــ لبنان، الطبعة الخامسة، 1401 ه ــ 1981 م
6. ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمود هارون، ج2، دار الجيل، ط1، 1991.
7. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1 ، .199
8. ابن يعيش موفق الدين، شرح المفصل للزمخشري، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
9. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبيّ، الموافقات في أصول الشريعة : تحقيق الشيخ عبد الله درّاز، دار الفكر العربي، القاهرة ــ مصر ، د.ت
10. أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ــ لبنان ، 1411 ه ــ 1990م
11. أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى، تحقيق: فتح الله صالح علي المصري، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط1، 1987.
12. أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، دار المعارف ،مصر، ط3، 1976.

13. أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، معاني الحروف، عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
14. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء :مقاييس اللغة، تح :محمد هارون عبد السلام دار الفكر، بيروت، د.ط، 1979 م،
15. أبو الفتح الشهرستاني، الملل والنحل، احمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1992
16. أبو بكر العزاوي :الحجاج في اللغة ، مجلة المنار http://www.almannarah.com
17. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج: ط1، دار الأحمدية للطباعة، الدار البيضاء ــ المغرب، 1426هـ ــ 2006م.
18. أبو تمام، ديوانه، شرحه زكريا الخطيب البتريزي–مطبعة السلسبيل مصر .د.ت.
19. أبو حامد محمد بن محمد الغزاليّ ، المستصفى في علم الأصول : تحقيق الشيخ محب الله بن عبد الشكور ، المطبعة الأميرية ، بولاق ــ مصر ، الطبعة الأولى ، 1322 ، منشورات دار الذخائر ، قم المقدسة – إيران ، 1368.
20. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيُّوب المعروف بابن قــيِّــم الجوزيَّة، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمَّام ــ السعودية، الطبعة الأولى، 1423 ه.
21. أبو هلال العسكري ، الصناعتين تحقيق على محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ط1 ،2006م
22. أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، تعليق محمد محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2000م
23. أحمد أبو زيد، الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي، مجلة عالم الفكر، دورية تصدر عن و ا زرة الإعلام- الكويت-، المجلد السادس عشر العدد الثالث، 1985.
24. احمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، دار الأمان، الرباط، المغرب،ط،2006
25. احمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985م.
26. احمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، منشورات عكاظ، 1989م.

27. احمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة التجارية الكبرى مصر، ط12،1379ه /1960م
28. أحمد جليل ، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، دار الطليعة، بيروت، لبنان،
29. أحمد سامي سليمان، خطاب التجديد النقدي عند أحمد ضيف، د.ط، مكتبة الأداب، القاهرة، 2003 .
30. أحمد قيطون، الرمز والتحديد المستحيل، مجلة مقاليد، العدد الأول، جوان 2011،
31. احمد واضح، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي، رسالة دكتوراة، جامعة وهران، غير مطبوعة،2012.
32. احمد ودرني، قضية اللفظ والمعنى و نظرية الشعر عند العرب، دار الغرب الاسلامي،بيروت ، لبنان، ط1، 2004
33. الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،سوريا، 2001
34. إدريس مقبول ، الأسس الابستمولوجية و التداولية للنظر النحوي عند سيبويه، جدارا للكتاب العالمي ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، 2007م
35. إدريس مقبول، الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في ممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث للنشر .والتوزيع، ،الأردن ،ط1، 2011
36. آلان وباربرا بيز، المرجع الأكيد في لغة الجسد، مكتبة جرير، السعودية، ط1، 2007
37. أمبرتو إيكو، التّأويل بين السيميائيات والتّفكيكية، ترجمة :سعيد بن كراد .المركز الثقافي العربي، الرباط، ط 1، 2000.
38. إيليا حاوي، فن الخطابة و تطوره عند العرب، دار الثقافي، بيروت، لبنان، (د.ت)،
39. *الباقلاني، الإنصاف*، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري، مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة ،ط2، 1382هـ- 1963م،
40. *الباقلاني، التمهيد*، تحقيق الأب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي، منشورات جامعة الحكمة في بغداد، بيروت، 1957م
41. بدوي طبانة، دراسات في النقد الأدبي العربي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1960.
42. بلخير عمر، تحليل الخطاب، المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة – الجزائر، ط1، 2003م

43. بوطاجين السعيد، الترجمة والمصطلح، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، و منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2009.
44. بول ريكور، نظرية التأويل ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثافي العربي، المغرب ط1، 2003
45. بيتر كليتون ، لغة الجسد، ترجمة دار الفاروق، مصر، ط1، 2005
46. تراث حاكم الزيادي ، الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني، مؤسسة دار الصادق الثقافية، الطبعة الأولى 2011 م – 1432 هـ ، دار الصفاء للنشر والتوزيع
47. تمام حسان، البيان في روائع القرآن: طبعة خاصة أصدرتها عالم الكتب ضمن مشروع مكتبة الأسرة ، 2003 م.
48. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب الطبعة الخامسة 1427 هـ – 2006 م
49. تمام حسّان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، بيروت، ط2، سنة 1974،
50. التهانوي محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم، تحقيق على دحروج، مكتبة لبنان ناشرون،بيروت، لبنان ط1، 1996م
51. ج أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الاشياء بالكلام ، ترجمة عبد القادر قنيني افريقيا الشرق، الطبعة الثانية، 2008 ،
52. الجاحظ، البيان و التبيين،تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1998
53. الجاحظ، الرسائل، نسخة الكترونية ، موقع مكتبة المصطفى على شبكة الانترنت.
54. الجاحظ، *رسائل الجاحظ*، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي - القاهرة *1964*– ١٩٦٥ م
55. الجاحظ، كتاب الحيوٌان تح : عبد السلام هارون دار الكتاب لبنان ط3، 1969،
56. جاك موشلر، آن ريبول ،التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني ، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، بيروت، 2003، ط1، ص27.
57. جاك موشلر–آن ريبول، القاموس الموسوعي التداولية، ترجمة: مجموعة من الأساتذة الباحثين بإشراف عزالدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، المركز الوطني للترجمة–دار سينا، تونس، ط2، 2011م.

58. جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، وضع حواشيه غريب الشيخ . دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط 2، 1428 ه، 2007 م
59. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح :فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، ،بيروت، لبنان، ط1، 2003،
60. جمال عبد المجيد،البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن مشروع مكتبة الأسرة ،2006
61. جميل الحمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، نسخة الكترونية من موقع الألوكة،
62. جورج يول، جورج براون، تحليل الخطاب، ترجمة:محمد لطفي الزليطي و منير التريكي، دار النشر و المطابع، 1997.
63. حاتم حسن، البحث الدلالي عند المعتزلة، رسالة دكتوراة مقدمة إلى كلية التربية، جامعة المستنصرية، 1999.
64. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي ط3، 1986
65. حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته: عالم الكتب الحديث، إربد ــ الأردن، ط1،1431هـ، 2010م.
66. حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي واشكالاته، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى 2009
67. حسن السندوبي، أدب الجاحظ، ، المطبعة الرحمانية، القاهرة ،ط1 ، 1931
68. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، دار المعارف،مصر، ط12، 1973،
69. حفناوي بعلي، التداولية ..البراغماتية الجديدة خطاب ما بعد الحداثة، مجلة اللغة و الأدب، مجلة أكاديمية محكمة يصدرها معهد اللغة العربية وآدابها،جامعة الجزائر، العدد 17، جانفي 2006م
70. حمادي صمود ،التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ــ لبنان ، الطبعة الثالثة ، 2010 م
71. حمّو النَّقاري، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المملكة المغربية، ط1،1427هـ ــ 2006م.

72. خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية محاولة تاصيلية ، بيت الحكمة، الجزائر، ط2، 2012م
73. تغريد الشميري، مفهوم التداولية في الفكر العربي القديم ، مقال منشور على شبكة الانترنت.
74. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، دار الأمل، الجزائر، 2005،
75. رشيد عبد الرحمن العبيدي، الألسنية بين عبد القاهر والمحدثين، المورد ، المجلد 18 خريف 1989 ، العدد الثالث
76. الزركشي بدر الدين محمد بن بهادر ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، دار التراث ، القاهرة ، .197م
77. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد ــ الأردن، ط2،1432هـ، 2001م.
78. سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، 1988م،
79. شارل بيلاّ، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة :إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ط1،1985م
80. الشيخ محمد رضا المظفر: المنطق، مطبعة سرور، انتشارات إسماعيليان، قم المقدَّسة ــ إيران، الطبعة العاشرة ، 1424ه..
81. صابر الحباشة، الأبعاد التّداوليّة في شروح التّلخيص للقزويني ، دار المتوسطية للنشر، تونس، ط1، 2009
82. صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى،1431 ه-2000 م..
83. الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر
84. صلاح إسماعيل، جون سيرل في القصدية، دراسة في فلسفة العقل، مجلس النشر العلمي، الكويت،2007.

85. صلاح الدين زرال، إرهاصات التداولية في التراث اللغوي العربي، مجلة الاثر، العدد الخاص باشغال الملتقى الدولي الرابع في تحليل الخطاب، جامعة ورقلة.
86. صلاح حسين، المدخل إلى علم الدلالة وعلاقته بعلم الانثربولوجيا و علم النفس، دار الكتاب الحديثة، (الجزائر، القاهرة، الكويت)، د.ط،2008م
87. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص: دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط1، 2004م.
88. الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون للنشر والتوزيع، ،تونس ، ط2، 2007
89. طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998
90. طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1993، ص141ــ142.
91. طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للابحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011
92. عاطف فضل ، الخطاب وعلم اللغة التداولي، جامعة الزرقاء، تشرين الثاني 2013م،محاضرة، غير منشورة
93. عاطف فضل محمد ، مقدمة في اللسانيات : دار المسيرة ، الطبعة الأولى 2011 م – 1432 هـ
94. عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، ط 1، الفرقاء للنشر والتوزيع، عمان،2004 .
95. عبد الرحمان بدوي، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1997م.
96. عبد الرزاق السّومري، الحجاج : منطلقاته ، تقنياته و مفاهيمه ،يونيو 2010 ، موقع أنفاس نت على شبكة الانترنت.
97. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، دار الكتاب الجديد ، الطبعة الثانية 2009 م .
98. عبد السلام حمدان اللوح، حوار مع(الرماني) في وجوه الإعجاز القرآني، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية) المجلد السادس عشر، العدد الثاني،2008.

99. عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي القاهرة مصر، الطبعة الثانية، 1399 هـ - 1979 م
100. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه و علق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة–مصر، الطبعة 1991/1.
101. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه و علق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة–مصر، الطبعة 2004/5
102. عبد القاهر الجرجاني، شرح الجمل في النحو، تحقيق: خليل عبد القادر عيسى، الدار العثمانية – عمان، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة العاشرة، 1432 – 2011 م
103. عبد القاهر الجرجاني،المقتصد (في شرح الإيضاح)، تحقيق كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ،الجمهورية العراقية، 1982
104. عبد الله الخليفة ، نظرية الفعل الكلامي، مكتبة لبنان – الشركة المصرية العالمية للنشر – الطبعة الأولى ،2007
105. عبد الله حسن طودي، التركيب الخبري أنماطه و وظائفه بين البلاغة العربية و اللسانيات التداولية، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، السعودية، 2007
106. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: دار الفارابي ــ بيروت، كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة، ودار المعرفة للنشر ــ تونس، ط2، 2007م.
107. عبد الله عودة، الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، مجلة المسلم المعاصر، مجلة فصلية محكمة، لبنان، العدد112، 2004.
108. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ط1 .
109. عبد الواسع أحمد الحميري، شعرية الخطاب في التراث النقدي والبلاغي مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2005
110. العبيدان موسى مصطفى عبد القادر، ظاهرة الحذف في الإسناد و مخصصاته، دار الإسراء للطباعة، ط1، 1994.
111. عطية أحمد أبو الهيجاء ، معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني بين التنظير والتطبيق، الثقافة – دار الخليج ، الطبعة الأولى 1431هـ - 2010 م

112. علا بوخبوز، القصدية و تعدد الخطابات، رسالة دكتوراة غير مطبوعة، جامعة قسنطينة
113. علي رزق، نظريات في أساليب الإقناع، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط1، 1994.
114. علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، رسائله نموذجا، وزارة الثقافة و التراث، مملكة البحرين،ط1، 2010.
115. علي محمود حجي الصراف،الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة،دراسة دلالية و معجم سياقي، مكتبة الآداب،1431هـ-2010 م
116. عمار حلاسة أحمد قيطون، جذور تحليل الخطاب في تراثنا النقدي والأدبي ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، منشور على شبكة الانترنت.
117. عواد بن عبد الله المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة، مكتبة الرشيد، الرياض، السعودية، ط2، 1995
118. عواطف كنوش مصطفى ، الدلالة السياقية عند اللغويين ، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى 2007،
119. *عياد شكري* ، المؤثرات الفلسفية والكلامية في النقد العربي والبلاغة العربية، مجلة الأقلام، العدد 11، السنة الخامسة عشرة، بغداد، 1980م
120. عيد بلبع، الرؤية التّداولية للاستعارة، مقالة في مجلة علامات، العدد23 ، مكناس، المغرب،2005.
121. فؤاد عبد العزيز محمد، موسيقى البصر في النص والصورة التلفزيونية-مقاربة جمالية بين المدخلات النصية والتشكيلية والصورية الثابتة والمتحركة في التلفزيون، كلية الاتصال، قسم الاتصال الجماهيري، مسار الراديو والتلفزيون، جامعة الشارقة
122. فازية تقرشة، ظاهرة الاتساع والإيجاز ومقاصدها التداولية، مجلة الأثر،العددالخاص بأشغال المؤتمر الدولي الرابع في تحليل الخطاب.
123. فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم، لبنان ،ط1،2000.
124. الفراء، أبو زكريا، يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل،عالم الكتب، ط2، 1920م
125. فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود،أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم: منشورات كلية الآداب ــ منوبة، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، (د.ت)،

126. عاطف فضل ، دراسات في الفكر اللغوي والنحوي، دار ابن الجوزي، عمان، الأردن، 2013م،
127. فيليب بلانشيه ،التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشه، دار الحوار للنشر، الطبعة الأولى، 2007
128. قاسم مقداد، هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحمي، دار السؤال للطباعة والنشر ، دمشق ط1، 1984
129. القاضي عبد الجبار المعتزلي، المغني في أبواب العدل و التوحيد، قوَّم نصه أمين الخولي، دار الكتب، القاهرة، 1960م
130. القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، مكتبة وهبة، مطبعة الاستقلال الكبرى، ط1، 1965م
131. قدامة ابن جعفر، نقد الشعر،تحقيق عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
132. كريستيان بلانتان، الحجاج، ترجمة عبد القادر المهيري، مراجعة عبد الله صولة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008.
133. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، 1963م
134. مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، مصر ، ط4، 2004
135. محمد أديوان، نظرية المقاصد بين حازم ونظرية الأفعال اللغوية المعاصرة، مجلة الوصل، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة تلمسان، العدد الأول، جانفي 1994، جامعة الرباط، كلية الآداب.
136. محمد التونسي جكيب، إشكالية مقاربة النص الموازي وتعدد قراءته عتبة العنوان نموذجا، المؤتمر العلمي الدولي الأول النص بين التحليل والتأويل والتلقي، مجلة جامعة الأقصى، مجلة علمية محكمة نصف سنوية، غزة، فلسطين، الجزء الأول، جوان2006.
137. محمد الخطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب : الناشر المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء– المغرب،الطبعة الثانية ،2006 م.
138. محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، ط1، 2005،

139. محمد العبد، طارق عبد الحليم، المعتزلة بين القديم و الحديث، دار الأرقم، برمنجهام، ط1، 1987

140. محمد الماكري، الشكل والخطاب– مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991.

141. محمد بركات حمدي أبو علي، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، دار وائل ،بيروت طـــ2003م..

142. محمد بن يعقوب بن السراج الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح:محمود مسعود أحمد، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2009.

143. محمد جواد علي، عقلان ع الهادي رشيد، صحيفة بشر بن المعتمر(دراسة تحليلية)، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد19، العدد12، كانون الأول 2012

144. محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة ــ الدار البيضاء، ط1، 1426هـــ ــ 2005م،

145. محمد عابد الجابري، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1998م

146. محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،ط9، 2009م.

147. محمد عبد المطلب ، قضايا الحداثة عند عبد القاهر ، مكتب لبنان ناشرون – الشركة المصرية العالمية للنشر ، الطبعة الأولى 1995

148. محمد عبد المنعم خفاجي ،محمد السعدي فرهود ،عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية ،1412هـــ -1992م

149. محمد محمود بني يونس ، سيكولوجيا الواقعية والانفعالات ، دار المسيرة، عمان، ط1، 2007،

150. محمد مهدي الشريف، معجم مصطلحات علم الشعر العربي ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط9، 2004م .

151. محمد يسري عيسى، الاتصال والسلوك الإنساني، رؤية في انثروبولوجيا، الاتصال، البطاش سنتر، الاسكندرية، مصر

152. محمود توفيق محمد سعد،نظرية النظم و قراءة الشعر، جامعة الازهر، من شبكة الانترنت.
153. مختار لزعر، مسار الخطاب التواصلي عند بشر بن المعتمر،منشور على موقع مجلة انسانيات، الجزائر، برقم 2009/46.
154. مسعود صحراوي، لتداولية عند العلماء العرب، ، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005م
155. مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة ــ المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، الكويت، 1415 ه ــ 1995 م.
156. مهدي المخزومي، في النحو العربي، نقد وتوجيه، دار الرائد العربي بيروت لبنان،ط2، 2003م
157. مهند حمد شبيب الفهداوي، القصد في الخطاب النقدي والبلاغي العربي القديم ، (أطروحة دكتوراه)غير مطبوعة.
158. ميلاد خالد، الإنشاء في العربية بين التركيب و الدلالة، دراسة نحوية تداولية، كلية الآداب منوبة و المؤسسة العربية للتوزيع،تونس، 2001.
159. نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الملقَّب بضياء الدين بن الأثير المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ـــــ مصر ، الطبعة الثانية ، د . ت
160. نعمان بوقرة، المصطلحات الاساسية في لسانيات النص و تحليل الخطاب، جدارا للكتاب العالمين عمان، الاردن، ط1 ، 2009
161. نواري سعود أبوزيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ الاجراء، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009
162. نورالدين بوزناشة، الحجاج بين الدرس البلاغي العربي و الدرس اللساني الغربي، رسالة دكتوراة، جامعة سطيف، 2016/2015،
163. هدى محمد صالح الحديثي ، جوانب من النظرية اللغوية العربية في ضوء الدراسات الحديثة ،مجلة المجمع العلمي ، المجلد 48 ، 1421 هـ - 2001 م
164. هنريش بليث ، البلاغة والأسلوبية ، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ، تر :محمد العمري ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1، 1989

165. هيثم سرحان، الحجاج السَّردي عند الجاحظ بحثٌ في المرجعيّات والنصّيات و الآليات، جامعة فيلادلفيا، الاردن، على شبكة الانترنت.
166. وئام الحيزم، تأويل اللفظ والحمل على المعنى، الجامعة التونسية، كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية، 2009.
167. وليد قصاب، التراث النقدي و البلاغي للمعتزلة، دارالثقافة، الدوحة، قطر، 1985
168. وليم كري ، الاستعارة والمعنى ، ترجمة صفاء عيسى حسن ، مجلة الثقافة الأجنبية،العدد 4 ، 2009
169. يحيى احمد ، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون ، ع3، 1989م

المراجع الأجنبية:

170. A.J GRIMAS , J. COURTES : SEMIOTIQUE RAISONNE DE LA LANGUE , HACHTTE UNIVERSITE ; PARIS , 1965.
171. DELCROIX(M), HALLYN(F),Methodes du texte ?introduction aux etudes litteraires ,Paris,Ducult,1987
172. G.Mounin, Dictionnaire de linguistique Quadrige, PUF,èdition, 1973
173. Georges ELIA SARFAT, Précis de pragmatique, Henri Mitterrand, France
174. Jean Dubois, dictionnaire linguistique, larousse, Paris, France,1988
175. Jean searle, sens et expression, les éditions de minuit , paris,1979,
176. Ojwald Ducrot,Dire et ne pas dire, principes de sémantique linguistique, édition HARMANN,2eme édition, paris, 1980.

فهرس الموضوعات

المحتوى	الصفحة
المقدمة	06
الفصل الأول : مدخل نظري	12
المبحث الأول: التداولية المفاهيم و القضايا	16
1.الاشاريات	13
2.الاستلزام الحواري	14
3.الافتراض المسبق	14
4. الأفعال الكلامية	14
أولا: ماهية التداولية	17
1. تعريفات ترتبط بحقل نشأة التفكير التداولي	19
2. تعريفات ترتبط بحقل موضوع التداولية و وظيفتها	19
3. تعريفات ترتبط بحقل التواصل و الأداء	20
4. تعريفات ترتبط بحقل علاقتها بالعلوم الأخرى.	20
5. تعريفات ليفنسون	21
ثانيا: أنواع التداولية	23
تصور هانسون	24
تصور سيرل لأفعال الكلام	28
ثالثا: مفاهيم التداولية	32
1. مفهوم الفعل	32
2. مفهوم السياق	32
3. مفهوم الانجاز	32
4. نظرية الملاءمة	33
5. مبدأ القصدية	33
6. الاستلزام الحواري	33

7. منتظمات القول	34
8. الإحالة	35
9. الاقتضاء	36
10. الحجاج	37
11. الوظائف التداولية	38
المبحث الثاني: المعتزلة	43
أولا علم الكلام	44
ثانيا المعتزلة	48
ثالثا الأصول الخمسة	51
شرح أصول المعتزلة	52
1. التوحيد	52
2. العدل	55
3. الوعد و الوعيد	59
4. المنزلة بين المنزلتين	59
5. الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر	60
الفصل الثاني: ملامح التداولية في الخطاب البلاغي و الخطاب النقدي	
مدخل تمهيدي	63
المبحث الأول: في الخطاب البلاغي و النقدي	73
المبحث الثاني: ملامح التداولية في نظرية النظم	92
الأفعال الكلامية عند عبد القاهر الجرجاني	93
الأفعال الانجازية المباشرة و غير المباشرة عند عبد القاهر	102
المبحث الثالث: السياق بين البلاغة العربية و التداولية	113
1. تعريف السياق	114

2. السياق عند البلاغيين والنقاد العرب	116
المبحث الرابع: المقصدية في الخطاب البلاغي و النقدي العربي القديم	133
اولا: مفهوم المقصدية	134
ثانيا: المقصدية في البلاغة العربية و النقد العربي	140
خلاصة القول	150
الفصل الثالث: الابعاد الاقناعية و الحجاجية في الخطاب النقدي و البلاغي عند المعتزلة -- الجاحظ نموذجا –	153
مدخل	155
المبحث الأول: إرهاصات التداولية عند الجاحظ	157
التأسيس البلاغي عند الجاحظ	160
المبحث الثاني: الإقناعية في الخطاب الجاحظي	184
تعريف الإقناع	185
إستراتيجية الإقناع عند الجاحظ	188
الخطاب البلاغي الاقناعي عند الجاحظ وفق نظرية تعلم الرسالة	191
أولا: مقومات المصدر	193
ثانيا: مقومات الرسالة	197
ثالثا: مقومات المتلقي	200
المبحث الثالث: البنية الحجاجية في الخطاب البلاغي الجاحظي	205
أولا: تعريف الحجاج	207
قوانين الحجاج في الخطاب البلاغي عند الجاحظ	212
1. قانون الأنفع	212
2. قانون السلالم الحجاجية	219
3. قانون القوة الحجاجية	228

4. الاستدلال الحجاجي عند الجاحظ	231
الفصل الرابع: الجهود التداولية اللسانية في خطابات أعلام المعتزلة	237
المبحث الأول: مقاربة في خطابات أبو الحسن الرماني	239
المبحث الأول: مقاربة تداولية لسانية في صحيفة بشر بن المعتمر	255
الخاتمة	270
ملحق المصطلحات التداولية	276
المصادر و المراجع	281
فهرس الموضوعات	295